دكتور عبد الكريم دهينة

صراع بين النفس والعقل

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا
فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑩ فَاعْتَرَفُوا
بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑪

سورة تبارك

المكتب الثقافي للنشر والتوزيع
الأزهر - القاهرة

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٩٨٩/٩٢٢١
الترقيم الدولى
٦ - ١ - ٠ - ١٨٥٠ - ٩٧٧

الطبعة الأولى بمصر
١٩٨٩

المكتب الثقافى للنشر والتوزيع
AL MAKTAP AL THAQAFY PUBLISHING & DISTRIBUTING
٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر تليفون ٩٣١٨٠٦ - ٩٠٠٩٣٨ القاهرة - مصر

بسم اللّه الرحمن الرحيم

﴿ يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسوّاك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك ، كلا بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون ، إنّ الأبرار لفى نعيم ، وإنّ الفجار لفى جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله ﴾

صدق اللّه العظيم

« سورة الإنفطار »

الفصــل الأول

الصراع الكونى ، حيث نشأ الإنسان

- تفسير قوله تعالى هل أتى على الإنسان حين من الدهر
- أصل الحياة
- اللّه والعقل البشرى
- الفلسفة لا ترضى بذلك
- شطحات تملأ الكتب الإسلامية

طبيعة الإنسان

- الجسد
- النفس
- الروح

الصراع الكونى حيث نشأ الإنسان

قال الله تعالى فى كتابه العزيز . ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل إمَّا شاكرا وإما كفورا ﴾ .

* * *

ذكر ابن وهب قال ، حدثنا ابن زيد قال ، إن رسول الله ﷺ ليقرأ هل أتى على الإنسان حين من الدهر " وقد أنزلت إليه ، وعنده رجل أسود اللون كان يسأل النبىﷺ ، فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لا تثقل على النبى ﷺ . قال . دعه يا ابن الخطاب ، قال فنزلت هذه السورة وأنا عنده فلما قرأها وبلغ صفة الجنان زفر زفرة ، فخرجت نفسه ، فقال رسول الله ﷺ " أخرج نفس صاحبكم - أو أخيكم - الشوق إلى الجنة وروى عن ابن عمر خلاف هذا اللفظ .

قوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ . قيل . هل . بمعنى قد « قاله الكسائى ، والفراء وأبو عبيده وسيبويه ، وقيل هل بمعنى الاستفهام المعروف وقيل بمعنى . قد . وقيل بمعنى الجحد ، تقرر أنك أعطيت إنسانا فتقول ، هل أعطيتك ؟ . تقصد أنك أعطيته فعلا ، والجحد أن تقول ، هل يقدر أحد أن يعطيك مثل هذا ؟

والحين لا يعرف مقداره .

لم يكن شيئا مذكورا ، فى الخلق ، وإن كان عند الله شيئا مذكورا ، ويعجبنى قول القائل : إن الإنسان آخر خلق الله من أصناف الخليقة ، التى اصطرعت فى الخلق الأول ، وأنه قد مضت أزمنة طويلة قبل خلق الإنسان .

قال قتادة (أحد مفسرى القرآن الكريم) إنما خلق الإنسان حديثا ، وهذا الرأى القديم ، هو ما ذكره علماء (الأنثرولوجيا) حديثا والذين لم يقولوا ، بأن الإنسان تطور من أصناف حيوانية ، وأن الخليقة ابتدأت " مائية " ثم برمائية ، ولذلك نذكر ما يأتى : -

أصـل الحيـاة :

نسأل السؤال الآتى . هل فسر العلم التجريبى أصل الحياة ، إذا كان هناك بعض علماء الحياة والكمياء الحيوية يعتقدون أن الحياة ظهرت تحت ظروف ملائمة لذلك كنتيجة طبيعية حتمية لهذه الظروف التى من شأنها أن تتطور ذاتيا ، كما يتكون الثلج من قطرات الماء عندما يبرد تلقائيا إلى درجة الصفر ، فإن هناك علماء آخـرين ، لا يميلون لهذا الرأى ، وهم أكثر منهم تجربة وتبحرا فى علوم الحياة . وقد برهنوا ، أن الحياة لا يمكن أن تنشأ بهذا الشكل تحت قوانين المصادفة والاحتمال ، وأنه لولا تدخل قوى خارقة للعادة وللقوانين ما كانت هذه الحياة . ويدللون على ذلك بأن قوانين الاحتمال الرياضى الحديث لا تفسر ، قوانين المصادفة ، بل العكس تدحضها دحضا .

والذى يهمنا من أبحاث علماء الصدفة وعلماء التطور ، والمعتقدين فى نشوء الحياة بالنظرية المادية أو القائلين بأزلية المادية ، أن النظريات الرياضية أثبتت خطأ كل هذا ، ﴿ فهم فى ريب يعمهون ﴾ ، وصدق الله سبحانه وتعالى إذ يقول فى كتابه العزيز ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ .

إن الحياة ظهرت بإرادة قوية ، ظاهرة تحتاج إلى شىء أقوى من منطق العلم لتفسير حدوثها ولبست هذه الظواهر الكونية نتيجة المصادفة أو الاحتمال أو الحظ . فلا يقول هذا إلا فاسد العقل ، فلا بد لكل رمية من رام ، ولابد لهذا الكون العظيم من محدث ، كون له أول ، أوجده أزلى لا أول له سبحانه وتعالى ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ، وهو الله فى السموات والأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ (أول سورة الأنعام).

نحن نعرف الله . علم الإنسان ما لم يعلم ، وأن الله كرمه وأسجد له ملائكته ، وإن الملائكة تدعو لهذا الإنسان بالهداية كما جاء فى سورة الشورى ﴿ له ما فى

---

(١) راجع كتابي « سر الوجود والحفريات » .

السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم ، تكاد السموات يتفطرن منفوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ .

إن هذا الإنسان خليفة الله فى الأرض ، يعرف ما لا تعرفه الملائكة ، فها هو ذا يكشف أسرار الوجود ويعلم ظواهر هذه الحياة ، وكتاب العلم التجريبى لم يخرج أبدا عن كتاب الله القرآن الكريم فكلاهما مفتوح للمعرفة ، ولن يتضّاد العقل والنقل . فإن العيب ليس فى النقل إنما العيب فى عقولنا ، ولن تجد حقيقة صريحة ، عارضت نصا قطعيا ثابتا ..

إن علماء الإنثرولولجى ، والبيلوجى والجيولوجى والرياضيات ، كل فى طريقه وصلوا إلى أن هذا الكون ابتدأ من قبل خمسمائة مليون سنة ، وقالوا إن هناك حقبا أخرى قبل ذلك لم يصلوا إليها انتهت باسم " الحقب الأركى " وآخر تقرير يقول ٤.٦ ألف مليون سنة قبل الميلاد وكان لهم تساؤلات قربوا [١] منها إلى بارىء النسم . قالوا من أى شىء جاء هذا الكون ؟ ، وكيف جاء ؟ وأية ظروف فيزيقية أو كيمائية أو رياضية توافرت أو انفردت أو تجمعت لإيجاده ؟ ، وما هى طبيعته؟ وهل يمكن تعريفه ؟ ، وهل جاء من تلقاء نفسه ؟ ، أم على يد عزيز جبار مقتدر وهبه القدرة على البقاء ، ثم ما بال هذه العمالقة من الجزئيات التى يتكون منها هذا الكون سماؤه وأرضه وكواكبه حتى الدقيق من المخلوقات كالذرة التى لا ترى ، والمخلوقات المتهالكة كالخلايا حريصة على نفسها وكيانها فمنذ قيامها وهى تتجدد بالتكاثر والتوالد ، وصدق الله سبحانه وتعالى كما جاء بأول سورة الروم ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ .

إن علامات الاستفهام ضخمة ستظل ماثلة أمام العلماء تصرخ ، تطلب الجواب الشافى ثم تهتف النفس متطاولة متسائلة ، ما الله ؟ ، نقول لها ليس هذا مكانك فاسكتى ، إن المواد (الفيزيقية) تخضع للتجارب لأنها مرئية بالعين المجردة أو بالأشعة السينية أو الكونية أو تحت الحمراء ، لكن واهب الحياة ، لا يخضع لهذه

---

(١) كادوا أن يعرفوه أو عرفوه فعلا ، ولكنهم لم ينتهوا بنهيه ، أو يطيعوه ..

التجارب التى تخضع لها عقولنا فهى من اختراعاتنا نحن ، وواهب الحياة عرفنا بنفسه وقال ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أن يطعمون إن الله هو الرازق ذو القوة المتين ﴾ يكفى أن نؤمن بقيوميته ، لا بكيفيته ، فلا يعلمها إلا هو ، وكانت الرسل حجة على الآدميين ، والرسل لم يأتوا بأشياء تجافى العقل ، فعلينا أن نسمع ونطيع . ونعلم إن الإنسان خالد ، له أول وليس له آخر .

خلق الناس للبقاء فضلت أمشة يحسبونهم للنفاد

حياة ثم موت (ضجعة قصيرة فى القبر) ثم حياة أبدية تترتب على ما قدمه الإنسان لها فى حياته الدنيا ، التى كانت إرادته فيها حرة لا إكراه فيها ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ . ومن غير المعقول أن يخلق الله هذا الكون ويتركه بدون منهج يسير عليه ، ﴿ ألا يعلم من الخلق وهو اللطيف الخبير ﴾ ، أو يتركه لغيره يديره ، كما يقول أصحاب العقل الأول أو القطب الصوفى . خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم ، وألهمه الخير والشر ، غير أن دوافع الشر تدخلت فيها نفسه إن أطاعها ، ودوافع الخير كانت نزعة العقل ، فالصراع بين النفس والعقل أو بالأحرى بين الشر والخير قائم ، منذ قامت البشرية وسيظل حتى يرث الله الأرض ومن عليها فالعالم الذى نعيش فيه ، شغل كثيرا من الفلاسفة قديما ، ومن سار على نهجهم الفلسفى حديثا ، وهؤلاء الذين يبحثون عن خالق هذا الكون فلسفيا أمثال أرسطو « قديما لم يبحثوه ليؤمنوا ، أو ليعتقدوا ، وإنما كان الكلام عن الله » من قبيل مباحث العلوم وتفسيرها وعللها وتفسير الظواهر الطبيعية بحثا عن علة هذا الكون ، هكذا كان أرسطو ، وهكذا كانت فلسفة السفسطائين ومن إليهم ، ومن قال بوحدة الوجود ، وإلهيه المادة وإن الله حلّ فى بعض خلقه ، أو فى جميع خلقه ، وما يسمونه فى التصوف وحدة الشهود ، حتى يجرؤ صوفى «أخرس الله لسان تابعيه إلى أن يقول »

وما الكلب والخنزير إلاّ إلهنا وما الله إلاّ فى صورة إنسان (١)

راجع : ابن عربى فى كتابه نصوص الحكم .

وما من فيلسوف إلاّجعل لموضوع هذا الكون وبارئه منهجا فلسفيا يدور حوله ، والفلاسفة الناعقون الآن يدورون حول هذه المناهج ، ويأبى الإسلام ألا أن يناقش هؤلاء الفلاسفة ويدحض حجتهم المبنية على الظن وويل للدين من الفلسفة ، فهى أفسدته قديما وتلعب به حديثا ، ومعرفة الله سبحانه وتعالى بارىء هذا الكون فريضة وبينته . كما وصف نفسه ، وعرفنا بها عن طريق الإسلام وكتاب الله مفتوح لهذه الحقيقة لا يزيغ عنها إلاّ زائغ العقل ، وفى ذلك يقول الله تعالى﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ الأعراف .١٧٩ .

الله ، والعقل البشـرى :

وراء الحقب السحيقة من تاريخ الإنسان ، حاول العقل البشرى ، وهو قيد المادة أكتناه حقيقة " الوجود الإلهى" وتصوره ، وتصويره وإخضاعه لمقاييس الحواس ، ومنطق العقل ،

· فأعلنت البشرية ، أن وجود الله محس معقول ، ولكن العقل ضل فى البحث عن ما هيته ؟ وكيف هو ؟ وما حقيقة ذاته ؟ أهى ذات شخصية ؟ أو وجودها مطلق . أو متعين ملموس ؟ وهل هذا الوجود الإلهى متوحد ، أم متعدد ؟!

وهنا يزل العقل ، وتضل فلسفته ، إذ يحاول أن يصور " الوجود الإلهى " تصويرا ، يتواءم مع مقاييسه المادية ، ويتلاءم مع القضايا الذهنية ، التى تختلف فى عقول المفكرين ، فما يراه هذا ، يتعارض مع ما يراه ذاك .

ولذا لم تكن الفلسفة بمناطقها بابا للولوج إلى معرفة الوجود الإلهى فزلت ، وضلت ، وتاه المناطقة والفلاسفة ، وضاعوا فى حيص بيص .

ولذا كانت البشرية فى حاجة إلى معرفة حقيقة هذا الوجود ، ومنتهاه وعلته ، وبارئه ، فأضحت فى حاجة إلى الرسل ، ومنهم فقط عرف الناس ما كان ، وما سيكون ، وما علة خلق السموات والأرض ، إنما ما دار حول الذات الإلهية لم يتعد الإيمان بها ، وبوجودها ، وبهيمنتها على الكون ، ولكن تعليل هذه الذات ، وصفاتها ، وما هيتها وكينونتها ، قد أيت الدعوات السماوية المتواكبة التعرض

لذلك ، فلا يعلم الله ، سوى الله ، وما على البشرية إلاّ عبادته إن أرادت أن تصل إلى درجة الكمال فى هذه الدنيا ، وما بعدها من حياة دائمة ، وكان من حكم المعصوم عليه الصلاة والسلام إذا تحدث الصحابة عن الله (تفكروا فى خلقه ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا) وعاب القرآن الكريم على بعض أقوام تركوا لأذهانهم الخيال الميتافيز يقى حول مقام الألوهية فقال ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ وقال ﴿ولا يحيطون به علما ﴾ ..

الفلسفة لاترضى بذلك :

حاول العقل أن يتطاول بغلوائه فى سعة وخيال ، أن يخرج من دائرة الشريعة ويكتنه الذات الإلهية ، فالعقل لا يأبه إلى حدود فى تفكيره ، ولذته المشوق إليها أن يسرح فى متاهات يظنها حرية التفكير ، فرأى بعض علماء الكلام تجريد الذات الإلهية من الصفات زاعمين أن هذا النوع من التعدد ، فكل صفة لابد لها من موصوف ، وهذا فى رأيهم هو التعدد ، ذلك منهم زعم مكذوب ، فإن معرفة الله من طريق الدين أثبتت إن لله صفات وصفها نفسه ، ولا تتطلب الصفة ذاتا غير الذات التى تتطلبها صفة أخرى أو ضدها ، فمفهوم أن الإنسان فى حالة الغضب تتكيف ذاته (جسميا ونفسيا) غير ما تتكيف فى حالة الرضاء ، وذلك التصوير فى حق الله سبحانه وتعالى تصوير كاذب .

ونرى بعض الفلاسفة القدامى إذ يصفون الله بالأقانيم الثلاثة ، فهو عقل ، وعاقل ، ومعقول ، أو عاشق ومعشوق وعشق ، أو اللذة واللأذ والملتذ ، أو الآب ، والابن والروح القدس ، حتى تغالى بعض زنادقة الصوفية فقال فى شطحاته

تثلث محبوبى وقد كان واحدا وصير الأقنوم بالذات أقنما

وعلى هذه الأقانيم الثلاثة قامت ديانات كثيرة ، بعضها من قدماء المصريين (حوروس وهيروس ، وإيزيس) وديانة اليهود اليهودية والسنفكريتية وما تفرع منها ، فالله واحد عندهم ولكن له زوايا ثلاث كضوء الشمس ، فالضوء مثلث ، والمصدر واحد . ولذا خاطب القرآن الكريم أهل الكتاب بقوله ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ سورة المائدة آية ٧٦ .

وبعض الفلاسفة نفى عن الله سبحانه وتعالى صفة أنه الخالق وزعموا ، إن الخلق صدر عن الخالق بالوجود ، فلا اختيار له فى وجود خلقه أى أنهم صورة له ، فاض عنه فيضان النور عن الشمس ، وقالوا إن الخلق يتطلب حركة وانتقالا ، والله غير متحرك ولا منتقل .

وهكذا غالت الفلسفة فى باطلها ، لأنها قاست الله وكينونته وصفاته على قضايا الحواس ، والله سبحانه وتعالى إذا وصف نفسه بصفة فهو أعلم بها منا ، فليس لنا أن نعللها بقضايا عقولنا " المحدودة فى دوائر المخ " فهو البارىء العظيــم الذى احتجب عن خلقه ، فإذا وصف الله نفسه بالنسيان كما جاء فى قوله تعالى ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ أو قوله ﴿ ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ فمن الباطل أن يعمد العقل قياسا على الحواس أن ينسب للذات الإلهية " النسيان " وعدم النظر فتلك صفات الإنسان « وهو قيد اللحم والشحم والدم والأعصاب » .

وشطت الفلسفة وجمحت ، ولم تقتصر على نظرياتها الباطلة التى سبق أن ضربت بعض الأمثال لها ، بل قالت فرقة إن الله حال فى الإنسان أو متحد معه ، أو إن الإنسان جزء من الله ، وكلها قضايا باطلة تجدها ماثلة فى كتب الفلاسفة قديما من تأثيرهم فى بعض الفرق التى زعمت أنها من الإسلام كالباطنية ، والقرامطة ، والشيعة ، والصوفية (راجع أشعار « ابن الفارض » فى تائيته المشهورة عند الصوفية) .

وقامت نظرية وحدة الوجود ..[1] ؟!

فما قصة وحدة الوجود هذه ؟

اتفق فلاسفة اليونان مع الصوفية على أن الوجود واحد ، وأنه ليس فى الكون إلا الله ، وأنه لا يوصف غير الله بالوجود ، وأن وجود الله مطلق بين غائب لا يرى، وهو الله . وواقع محس حاضر يرى وهو الخلق ، فكيف يكون ذلك ؟!

لا بدلهم من تعليل غائب وحاضر ، أو بالأحرى مادى ولا مادى ..

كيف يكونون فى وحدة ؟!

(١) راجع كتابنا (وحدة الوجودين المتسوت واللاهوت)

فتحايلت الفلسفة تحايلا فرقها كلَّ ممزق ، وقالت : إن الله أوجد فى الأزل ، وسائط أزلية متدرجة وفق وسائل ميتافيز بقية (أنظر كتاب المدخل فى الفلسفة الإسلامية ترحمة الدكتور محمد يوسف موسى) ولعل هذه الوسائط الميتافيز يقية هى المعروفة قديما عند اليونان بالعقل العام والعقل الخاص ، والعقول العشرة ، وما عرف عند الصوفية بالأقطاب والأبدال والأغواث ... إلخ

وكان للفيلسوف الصوفى « ابن عربى » الباع الأطول حينما أخذ يردد فى صوفيته ، إن الله هو عين هذا العالم ووافقه « عبد الكريم الجيلى » فى كتابه (الإنسان الكامل) معارضا الحلاج فى صوفيته إن الله حال فى هذا العالم ، وأن قولنا بوجود خلق وخالق ثنائية وشرك (فإن وجود الواجب هو بعينه وجود العالم فليس ثمت غير الله بل الكون والله شىء واحد) هكذا .

ويقول ابن عربى : إن الله وحده هو الوجود الحق وإن العالم يشبه أن يكون ظلاً له إذ لا قوام له الاَّ بذاته .

وقالوا .. لكن لما كان الوجود المطلق لا يمكن إلاَّ أن يكون صورة فى الذهن فعللوا أزلية الله سبحانه وتعالى أنه كان فى عماء أزلى قبل أن يفيض عنه الخلق ، ولذا يقول الشاذلية فى أورادهم عندما يناجون الله سبحانه وتعالى (بعماء كنت به أزلا ..) وقالوا بالتعينات الإلهية ، أو التنزلات ، أو الفيوضات ، حسب اختلاف أذواقهم ومواجدهم كما يقولون ، إنهم من ذوى الأسرار اللدنية كما يقول شاعرهم .

وفى السر أسـرار دقاق لطيفة تباح دمانا لو بها جهـرة بحنا

والعماء عند الفلاسفة ، حيث كان الله لم يظهر فى مادة ، فلما ظهر فى مادة أصبح فى درجة (الوحدانية) أى تعين الله فى مادة أصبحت محلى الذات الإلهية

ومن ذلك فسروا كيف أصبح المطلق " متعينا " كما يقول الصوفى " النابلسى " فى مؤلفاته : أراد الله أن يتعين بعد أن كان فى عماء فصار واحدا فبدت حضـرة (الوحدانية) ثم تكثر فظهرت حضرة (الهوية) وحضرة (الإنية) أى باطن الذات وظاهرها ...

والحضرة الواحدية يسمونها " الحقيقة المحمدية " فالحقيقة المحمدية عند الصوفية المسلمين تشبه العقل الأول عند الفلسفة الإغريقية قديما ، وتشبه بدء الكلمة أى المسيح عند فلاسفة الصوفية المسيحية .

وكثيرا ما نسمع على المآذن فى نداء الصلاة (يا أول خلق الله) يقصدون رسول الله ﷺ ، وما هو إلاّ ترديد لفلسفة حضرة الوحدانية ، وقد حمل الفيلسوف الصوفى ابن عربى المولود فى الأندلس سنة ٥٦٠هـ لواء الدعوة إلى وحدة الوجود فى كتبه المتعددة الفتوح المكية ، وفصوص الحكم ، وذخائر الاغلاق لشرح ترجمان الأشواق ، وقد ثار الفقهاء على ابن عربى ثورة عنيفة كما ثاروا على من قبله حيث نشأت الفرق الصوفية من منتصف القرن الثانى الهجرة . واتسع نطاقها ، واشتد أوارها واتخذت من جهل الناس ، وميلهم إلى الأساطير سندا ، إنهم وسائط الله فى الأرض يقولون للشىء كن فيكون .

إن الوجود عند ابن عربى واحد ، وإن وجود المخلوقات هو عين وجود الخالق ، لا فرق بينهما من حيث الحقيقة ، أما ما يظن أن هناك فرقا بين الخالق والمخلوق فهو أمر يفضى الحس الظاهر والعقل القاصر عن إدراك الحقيقة على ما هى عليه ...

إنها وحدة ذاتية يجتمع الأشياء فيها جميعا ترى ذلك فى قوله :

(سبحان من خلق الأشياء وهو عينها) الفتوحات المكية ج.١ ص٦٠٤ ومن قـوله شعرا -

يا خالـــق الأشياء فى نفســـه   أنـــت لمـــا تخلقـــه جامـــع
تخلـــق مـــا لا ينهتـــى كـــونـــه   فيك فـــأنت الضيق والواســـع
لقد صار قلبى قابلا كل صـــورة   فمرعى لغـــزلان ودير لرهبـــان
وبيت لأوثـــــان وكعبـــة طائفـــــة   وألواح توراة ومصحف قرآن
أديـــن بديـــن الحب أنى تـــــوجهت   ركائبه فالحب دينى وإيمـــانـــى

شطحـــات تمـــلأ الكتب الإسلامية :

إن ترك هذه الخرافات فى أمهات الكتب ، بدون التعليق عليها - أو حذفها ، مما أساء إلى الإسلام كثيرا وجعل المستشرقين والعلمانيين يحملون عليه حملات هوجاء ، مدعين أنها من أس التشريع الإسلامى .

ومن الغريب أن نجد من يسمى بعض هذه الخرافات بالشطحات وأنها جائزة ، فإن أصحابها معذورون ، لأن أصحابها قالوها فى حالات سكر من لذة المشاهدة ، وهو

تبرير باطل ، فقد كان الرسول ﷺ وأصحابه والمبشرون بالجنة والتابعون من أشد الناس حباً لله ، فما شطحوا ولا نطحوا ، ولو أجيزت هذه الشطحات التى سأضرب عنها أمثلة ، لأجزنا لمعتقدات الأمم الأخرى كقول النصارى " المسيح بن الله " واليهود عزيز بن الله ، والبوذيون والكونفوشيوس - وما إليهم من الأمم التى عرفت الله سبحانه وتعالى وخرجت عن المقام اللائق به ونقول أنهم شطحوا حبا فى الله ، وإن كانت هذه الشطحات قيلت فى حالة سكر ، وحالة السكر يهزى صاحبها ولكن هذه الشطحات ليست بذات هزاء مما يشجع القول بأن أصحابها ، كانوا فى حالة عقلية كاملة وأنها مقصودة بالذات ، وليست هزاء ...

ولماذا لا نسميها معتقدات أتوا بها فى صور كلامية واضحة جلية ، وكانوا فى غاية الخوف من المسلمين ، فلما انكشف أمرهم حاولوا الخداع يقولهم ، إنها شطحات لدنية ومع الأسف الشديد أن الإمام الغزالى يقول فى ص١٣ (الإملاء للغزالى بها من الأحياء ص١) : إن الشطح كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معرفة .. إلخ ..

ومعنى ذلك أنه يجيز هذا " الشطح " ولا أدرى أيجيزه للمسلمين عامة ، أو لبعضهم والشريعة كما نعلم أنها للناس عامة ، وليست لطبقة - دون طبقة - فما معنى أن يقول أحد الشطاحين .

وفى السر أسرار دقائق لطيفة   تباح دمانا لوبها جهـــرة بحنا

والقصد سر " الألوهية " ؛ أنهم هو الوحيدون الذين يعرفونها ، ولا تعجب فإن من بعض الناس من يسمى نفسه ، أو يسميه الناس العارف بالله ، - سر الألوهية - عند هؤلاء - كما ورد فى كتبهم ، وحدة الوجود [(١)] وهل قصر الرسول ﷺ فيما يختص بمعرفة الله سبحانه وتعالى وعبادته ، حتى تكون هناك أسرار لبعض الناس تباح دماؤهم لو بها جهرة باحوا . وهل ما صرحوا به بعد سر الألوهية أم بعد كفرا بواحا ما لقد صرح الحلاج - به إثارات من مجوسية لم يستطع أن يكبتها صرح بعد محاكته الطويلة ، حول " ناسوت الله ولا هوتيته " كما وضح ذلك فى أشعاره متبعا الكهنوت قال - وهم يقودونه إلى الاعدام .

---

(١) أى أ ن الله والعبد واحد فالثنائية عندهم كفر ولذا يقول الدسوقى فى شطحاته وما شهدت عينى سوى عين ذاتها وإن سواها لا يلم بفكرتى .

كفرت بدين الله والكفر واجب علىَّ وعنــد المسلمــين قبيــح

واعتبر بعضهم أن هذا لا يقدح فى إيمانه ، بل فى ولايته وأن المقصود بالبيت الشعرى ، وبالأبيات الشعرية التى قالها فى لاهوتيته أو أن ناسوتيته أشياء أخرى لا تصل إليها عقول عوام الناس فما هى التى وصلت إليها عقول خواص الناس ؟ رالقرآن الكريم قد وضح معنى الكفر بدين الله ، وذلك يقول إن الكفر واجب عليه وعند المسلمين قبيح .

والآن أعرج إلى القرآن الكريم فهو ، إلى مجموعة من المراجع المتداولة بيننا والتى ترجم أغلبها إلى اللغات الحية ، والتى يستمسك بها كثير من الشيوعيين لمحاربة الإسلام ، أشهر الكتب التى تحدثت عن هذه الشطحات الكفرية " اللمع " طبقات الشعرانى ، طبقات المناوى ، الكواكب الدرية ، الإحياء ، شرح الحكم لابن عجيبة ، الأخلاق المتبولية والإبريز للدباغ - وكلها مع الأسف كتب صوفية .

ولم أذكر الكتب التى قامت بالرد عليها ، أضراب تلبيس إبليس لابن القيم وتكفير ابن عربى للبقاعى ، ومن الكتب الحديثة - الحياة الروحية فى الإسلام للدكتور مصطفى حلمى ، ومصرع التصوف لعبد الرحمن الوكيل ... و ... و ...

وأذكر من الكتب الحديثة التى ملئت بالخرافات والتى أوجبت سخط الأزهر وعلماء الأوقاف والناس جميعا ، كتاب نصح الأمة للشيخ البرهانى .. صاحب الطريقة - البرهانية ، وقد استقى مراجعه من الكتب سالفة الذكر مضافا إليها كتاب جواهر البحار للسيوطى ومؤلفات الجيلى وأبى طالب المكى والنابلسى وابن عربى وكأن هذه الكتب وأضرابها حجة على الإسلام يجب تقديس ما جاء فيها ..

ومن الأسف الشديد أن أجد من يدافع عن هذه الخرافات ، ولا قيمة لهذه الدفوع لا من حيث الاقتداء برسول الله والرعيل الأول - ولا من حيث مقتضيات الأسلوب اللغوى والادراك الذوقى البيانى [(١)] .

وها ءنذا أقطف للقارىء الكريم بعض مقتطفات سموها شطحاً وكنت آمل أن تكون هذه خزعبلات أضيفت إلى أصحابها ، وأنهم براء مما قيل ولا سيما أنهم أعلام يفتر بهم بعض الناس ، ويضعونهم فى قمة الولاية والصلاح . فهذا

(١) عادة يدافع عن هذه الكتب : الصوفية ، والإباحيون والشيوعيون ، فهم ملة واحدة .

البسطامى يقدسه كثير من الصوفية ، ويقولون عنه إنه أشهر من أن يذكر ، وأعرف من أن يعرف - هاك - بعض أقواله لتبيان حاله للقارىء - قال يناجى الله سبحانه وتعالى -

أريدك لا أريـــدك للثواب ولكن أريـــدك للعقـــــاب

وكل مآربى قد نلت منهـــا سوى ملذوذ جلدى بالعذاب

أنظر هذا من قول رسول الله ﷺ ، كما تحدث القرآن الكريم عنه ﴿ قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ فالرسول يخاف العذاب ولايرجوه ، والبسطامى " يشطح " ويرجو العذاب ، فأى إسلام هذا ؟!

ويقول كما جاء على الأخص بالكواكب الدرية للمنياوى ص٢٤٤ ، سبحانى سبحانى ، ما أعظم شانى ، ما الجنة إلا لعبة صبيان ، وطرق عليه طارق الباب قائلا أريد أبا يزيد فأجاب ليس فى البيت إلا الله ، وقوله قال لى الحق : اخرج إلى خلقى بصفتى فمن رآك رآنى ، ودافع ابن عربى عنه بقوله « فمن ظهور صفات الربوبية عليه ... إلخ ...

وقوله عن الله سبحانه وتعالى : رفعنى مرة ، فأقامنى بين يديه وقال لى : يا أبا يزيد إن خلقى يحبون أن يروك . فقلت زينى بوحدانيتك وألبسنى أنانيتك ، وارفعنى إلى أحديتك ، حتى إذا رآنى خلقك قالوا رآيناك . فتكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هنا ومن أقواله « ضربت خيمتى بإيزاء العرش » وقال أبو تراب النخشيى لتلميذه هلا رأيت أبا يزيد ؟ فأجاب : من يتجلى له الحق كل يوم مرات فما يصنع بأبى يزيد ؟، فشوقه إلى رؤيته حتى وقع بصره عليه ، فخر مغشيا عليه (صعقا) فسئل أبو يزيد فأجاب لما رآنى تجلى له الحق على قدرى فلم يطق ومات ..

وبعد فإن فرعون لم يقل ما قال أبو يزيد فى نفسه ومن الغريب أن نجد أن الغزالى صاحب أحياء علوم الدين ممن يمجدون أبا يزيد حتى يقول عنه «إنه كان لا يتكلم إلا من أعلى المقامات ، وأقصى الدرجات ، ومن أقواله « وددت لو أن القيامة قامت حتى أنصب خيمتى على جهنم ، فإنى أعلم أن جهنم إذا رأتنى تخمد .

انظر أنه يضع نفسه فى مقام الألوهية وانظر إلى قوله تعالى ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلئت وتقول هل من مزيد ﴾ والحديث الشريف الصحيح الذى معناه أن الرحمن يقول لها قط . قط . إلخ .

ومن قوله : تعقب على قول الله تعالى ﴿ إن بطش ربك لشديد﴾ وحياتى إن بطشى أشد من بطشه ، ومن أقواله ﴿ والله إن لوائى أعظم من لواء محمد ، ومن أقواله أرادموسى أن يرى الله ، وأنا ما أردت أن أراه ، هو أراد أن يرانى ...

وبعد فهذا جزء يسير من شطحات ، تعج بها هذه الكتب ، ويدفع عنها من يدعى أنه هو وغيره يقصدون عبارات آخرى ونوايا بعيدة بأسلوبهم هذا ، ولا تقبل دفع من يقول أنهم أرادوا كلاما خلاف ما ظهر منه ، وإلاَّ قلنا بخير كلام الملل الأخرى ، وأنه إذا كان هناك حسن النوايا فما الداعى للإساءة فى اللفظ ؟ ولو تركنا للناس حرية التصرف فى الألفاظ ، وقلب معانيها الظاهرة إلى معانى أخرى كما يدعى هذا الفريق الشاطح ، لصارت الحقائق كلها نسبية أو اعتبارية أو شخصية ، كل إنسان يحور فى المعنى بما يحلو له ، باسم الذوق الفردى كما يقولون ، وعلى ذلك فإن المعلومات العامة والقوانين والتشريعات ، والأفكار تصبح لا قيمة لها ، ونصبح نحن فى سفسطائية ، فمثلا كلمة الحمار عند شخص تعنى معنى آخر عند شخص آخر كل حسب ذوقه حتى يسميها بعضهم الأسد والبعض الآخر الكروان .. إلخ هذا إذا وضعنا قاعدة وجوب صرف الألفاظ حسب الأذواق الفردية ، وهو باب من أبواب الباطنية وغيرها من الفرق التى دخلت الإسلام لتكيد له بهذه الدعاوى الباطلة وبعد « فكل شطحة صرحت بنفى الربوبية أو الوحداينة أو عبادة أحد غير الله ، أو مع الله فهى كفر ، كمقالة الدهرية ، وسائر الفرق كالصابئة ، والباطنية والنصارى والمجوس ، والذى أشركوا ، بعبادة الأوثان ، أو أحد غير الله ، وكذلك كل من أقر بالوحدانية وصحة النبوة ، ولكن جوز على الأنبياء الكذب فيما أوتوا به ، ولو ادعى المصلحة كما يزعمون ، أو لم يدعها ، فهو كافر باجماع كالمتفلسفين ، وبعض الباطنية والروافض ، وغلاة المتصوفة ، وأصحاب الإباحة ، والذين زعموا أن لظواهر الشريعة حقائق آخرى غير التى تؤخذ من ظواهرها ، فعطلوا الشرائع .

الإنسان من حيث تكوينه الإلهى ، ثلاثى التكوين ، جسد ، نفس، وروح .

طبيعة الإنسان

١ - الجسد :

فهو الجسم المادى المشاهد ، المحتوى على الأجهزة العضوية المعروفة ، من رأس فيها العين والأذن والأنف والشعر والمخ والمخيخ ، والخلايا الدماغية ، وما إلى ذلك والجلد الذى يغطى الرئتين والقلب ، والقصبة الهوائية والبلعوم والمعدة ، والأمعاء والكبد والطحال ، والأثنى عشر والحجاب الحاجز ، والكليتين والقولون والأمعاء الدقيقة والغليظة والمثانة ، والأعصاب والعظام ، وما إلى ذلك ، ولا يجوز أن نعتبر الإنسان من الناحية الجسدية ظاهرة منعزلة عن بقية المخلوقات من المملكة الحيوانية حتى قال بعض (البيولوجيين) ، علماء الحيوان ، إن الإنسان ما هو إلاّ جزء من مملكة الحيوان وأنه يترابط بطرق لا تعد بكل عضو آخر فى عالم الحيوان . وليس من موضوع بحث مناقشة القائلين ، بالتطور .. وأنهم كما يقولون إن الجسم الإنسانى كان فى الأزل فى صورة أقل ارتفاعا مما هو الآن من ناحية التنظيم . وأنهم اعتبروا الإنسان (جميع الرجال والنساء) حيوانا بلغ أعلى مراحل الارتقاء فى مملكة الحيوان ، وأنه ارتقى عن الحيوان بحجم مخه ، لأنه تعلم كيف يعمل متعاونا مع زملائه ، من بنى الإنسان وأنه رأى أن يمشى على ساقيه الخلفيتين . وأن يستعمل ساقيه الأماميتين يدين لأداء مختلف الأعمال ، وأن الهياكل الحيوانية العظمية تكاد تتشابه ، وأن البعض قالوا إن الإنسان قد انحدر من نوع من القردة. كلها افتراضات لقوم لا يؤمنون بقول الله تعالى كما جاء فى سورة ص الآية ٧١ وما بعدها ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت

بيدى أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ (١) ص . ٧١ .

ولا زالت أبحاثهم حائرة ، وهم أيضا فى واد من الحيرة ، لم يهتدوا عقليا إلى ما يزعمون أنهم يبحثونه بعقولهم ، وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بإيضاحه ليرتاح البشر ، ويعبدوه حق عبادته ، ولكن هيهات هيهات ﴿ إن الإنسان لفى خسر ﴾ .

وإن جسم الإنسان كقشرة البيضة تراها العين ولكن فى داخل القشرة يوجد البياض والصفار ، كالأعضاء عند الإنسان ، وتوجد حركة أخرى خفية لا يدركها العقل حركة خلق الكتكوت . وأن هذه الحركة الخفية تجعلنا نهتم بأن الأشياء المادية فى البيضة ليست هى الكل فى حياتها .. إن الحركة الداخلية التى لا ترى ، نسميها (العالم الميتافيزيقى) فى البيضة ، عالم النفس والروح) عالم لا يدرك إنما نعرف اتجاهاته ونتائجه ، ونجهل حقيقته .

ولقد أعجبنى بعض القائلين ، إن الغرض من البيضة هو إنتاج حياة جديدة . وتستغرق البيضة عادة مدة تفريغ محوطة بظروف معينة ، فإذا ما انقضت المدة تنشق القشرة وتلقى فى سلة المهملات ، وينبثق عندئذ فجر جديد لحياة جديدة تسفر عن حالات لم يكن يتوقعها الفرخ وهو جنين ، وكذلك الحال معنا ، فإن وجودنا المادى ، خطوة لحياة جديدة تنكشف بعد أن يتكسر هذا الجسد كما تكسرت قشرة البيضة . فإذا ما بلغنا فى النهاية الغرض المحتوم انشقت البيضة وتكسرت ، وهذا التشقق والتكسر ، هو موت الجسد وانحلاله ، وهذا الموت هو الجزاء الأخير لحياتنا سواء أكانت صالحة أم طالحة لحياة أخرى يسبقها (٢) رمس يبعث منه الإنسان ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاويه ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية ﴾ وتكون حالة الوجود الثانية أشبه بحالة وجود فرخ البيضة عند خروجه من القشرة إنها الحياة الجديدة ، نعيم مقيم . أو عذاب أليم لم يخطر على قلب بشر . ولم تره عين ،

---

(١) نظرية داروين ، ونسب إليه خطأ أنه القائل بأن الإنسان انحدر عن القردة الراقية ، وفى المراجع التى رجعت إليها ، لم أجد هذا الرأى ، إنما وجدت رأيه إن الإنسان انحدر من جنس أخر ، قريب الشبه بالقردة الراقية وعلى كل فالقرآن الكريم قد حلَّ هذه المشكلة ... راجع كتابى سر الوجود بين الحفريات والدين .

(٢) قبر يدفن فيه الإنسان ثم يبعث حيا عندما يأذن الله سبحانه وتعالى بالحياة الآخرة .

حياة الجزاء ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ وهناك مثل توضيحى آخر يلقى الضوء على الإنسان فى عوالمه الثلاثة . مثلا فى الإذاعة اللاسلكية فأول ما نجده هو هذا الجهاز (الراديو) الذى يستقبل الموجة اللاسلكية ، وهى بطيئة الصوت لكن المكبر الصوتى يضاعفها لنسمعها . يضاعف الموجات اللاسلكية التى تنبعث ، من محطة الإذاعة ثم تتحول فى جهاز الراديو إلى موجات صوتية ضعيفة جدا لا تكاد تسمع فيقوم المكبر بتكبيرها بعد أن تقوم الأجهزة المختصة بتحويلها إلى موجات صوتية ثم تصدر على شكل أنغام أو أحاديث وندرك إن هذه العملية ليست مرئية أدركنا أثارها فحسب . أما العنصر الهام وهو ذلك الواقف وراء الميكروفون فى جهاز الإرسال يتكلم أو يغنى أو يعزف . والذى أذيع وانتشر فى الأثير هو الغرض من العملية والأن فلنطبق هذا المثل على الإنسان فنقول : –

إن الجسد فى الإنسان يمثل العنصر المادى فى محطة الإذاعة ،

والنفس فى الإنسان تمثل العنصر الأثيرى فى الجهاز ،

والروح تمثل الحركة غير المنظورة . وغير المعلومة . التى تحول الموجة الكلامية إلى موجة ... ١٨٦ ميلا فى الثانية . وهذا سر عجيب علمه عند ربى [١] .

فالجسم آلة . والنفس محركة . والروح توجد الحياة .

وقد فسر بعض العلماء ظاهرة الرؤية عن بعد أو سماع عن بعد حيث يكون بين الرائى والمرئى مسافات شاسعة عدا ما يحجب الضوء من مواد معتمة كالجبال والحصون أن بعض الفوحات النفسية ، إذا انطلقت تفعل فى الأثير كما تفعله الموجة المغناطيسية إلى أن تنبض فى محطة الإذاعة أى أن لبعض الجسوم تيارا أثيرا ينساب من الجسد المادى .

٢ – النفـــس :

إن الرأى بأن النفس عالم أثيرى مطابق كل المطابقة للجسم المادى إرتاح إليه كثيرا لأن مادة النفس فوق الفيزيقية ليست فى متناول الحواس إنها جسم آخر من مادة أرقى تتخلل الجسم المادى وتكسبه القوة والحيوية كما تتخلل الموجات الأثيرية

---

(١) إن مادة الأثير مادة مفترضة ، ليست ذات كيان غازى ، عرفت هذه المادة بآثارها ، ولم يعرف كنهها كالكهرباء ...

المادة الفيزيقية . وعلى ذلك فإننا جسمان . جسم أثيرى هو النفس ، وآخر فيزيقى وهو الجسم . هذان الجسمان مختلفان كل الاختلاف رغم تطابقهما من حيث الشكل . والعالم الأثيرى من شأنه يتخلل العالم المادى .

فإذا نزلنا إلى مصطلحات (السايكولوجيا) نقول + إن دولة النفس تنقسم إلى قسمين (فيزيقى، هو الشعور . وميتافيزيقى وهو اللاشعور) . وأن نشاطنا فى أحدهما قد يتغلب على نشاطنا فى الآخر مع أننا نعيش فيهما معا . ففى النهار يسود الشعور وفى الليل يسود اللاشعور ، ومن ثم نحن نقضى حياتنا نتأرجح بين حياتين بين دولة الشعور ودولة اللاشعور ، وسلامة الخلق وتسويته ، تقتضى الا يطغى واحد منهما على الآخر [1] .

فنحن إذن نعيش حياتنا فى جسمين كل بمناشطه الخاصة فيعمل الفيزيقى بواسطة الشعور وميكانيكية الحس والمخ . ويعمل الميتافيزيقى خلال مناطق اللاشعور . أو المناشط الذهنية . ويعمل هذان الجسمان فى عالمين متقابلين خارجى وداخلى أو عملى وذهنى . ومن المهم أن نعى ذلك لنفوس كثيرا من أحداث الحياة التى نقف أمامها فى حيرة ، وننسبها أحيانا إلى الخرافة . أو ينسبها بعضهم إلى المعجزة ليتحكوا بها على عقول الدهماء الذين يضعونهم فى مصاف الأنبياء . وليست معجزات إلاّ للأنبياء فقط [2] وليست المعجزة لدجال أو لملحوس صوفى يثبت ولايته ، وأنه قريب من الله يقول للشيء كن فيكون ، كما يدعون ، فهذه الكينونة لله وحده فالرسل عليهم الصلاة والسلام لم تثبت لهم هذه الكينونة ، فالله وحده له الخلق والأمر ، فهذا خليل الرحمن يطلب من الله أن يغفر لأبيه ، فلا يجيبه ، ونوح يقول إن ابنى من أهلى ، فيقول الله له (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألنى ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال ربى أعوذبك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلاّ تغفرلى وترحمنى أكن من الجاهلين ، ويشير الله سبحانه وتعالى إلى الرسول الكريم بقوله ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن

(١) فإن طغى واحد منهما على الأخر قبل للإنسان إنه غير سوى شاذ لابد من تدخل الطب الجسمى أو النفسى لبحث حالة هذا الشذوذ .

(٢) المعجزة شيء خارق للعادة يتحدى به الأنبياء أممهم بعد نقاشهم معهم أنهم رسل الله فيكذبونهم فباذن الله المعجزة فتطهر .

يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان إستغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ سورة التوبة .

والنفس هى العنصر الباعث للحركة الوجدانية والتفكيرية فى الجسم . وبالأحرى إنها باعثة الحياة . بعد أن أضاءتها الروح . فالروح كزر الكهرباء ما علينا إلاّ أن نديره فتبعث حركة الضوء فى المصباح المجهز تجهيزا كاملا للإضاءة فهذه الحركة هى النفس . والجهاز المضاء هو الجسم . ولابد لنا من وقفة قصيرة ها هنا لنعرف مهمة (الروح) .

٣ - الـــروح :

لو تأملنا حاسة البصر وسألنا عن الشىء الذى يبصر لقلنا إنه العين . ولكن ليست إلاّ آلة مادية « كاميرا للتصوير » بعدستها وحاجزها الضوئى ولوحتها الحساسة. والكاميرا وحدها لا تستطيع أن تقوم بالتصوير ، فهل المخ يا ترى هو الذى يقوم بالعملية وأن العين لم تكن إلاّ مجرد لاقطة ؟ كلا . لأنه إذا فارقت الروح البدن وقف عمل المخ مع وجوده .

ونلاحظ فى عملية همود النفس فى بعض الحالات مؤقتا يفقد الجسم الشعور كما فى حالة الأغماء أو استنشاق الكلوروفورم . ويجىء الطبيب ويرفع الجفن . وتبدو العين مفتوحة . ولكنها لا ترى وذلك لهمود النفس وقديما قيل (إن النفس لا المجموع العصبى ، هى التى تدرك ، وتفكر وتدبر نظام الجسم . إن المخ بلا نزاع متداخل فى كل أرائنا وأفكارنا ، ولكنه آلة فقط فإذا أردت أن أرفع زراعى أو أمعن النظر فى شىء أو أتحرك فإن النفس هى التى تعطى الأوامر بعد أن يفكر العقل وقد تطيعه النفس أو لا تطبعه ، فهيمنة العقل هيمنة علمانية وعلى ذلك فإن الجسم يطيع النفس طاعة عمياء . وصدق الشاعر القائل .

يا خادم الجسم كـــم تسعـــى لخدمته   أتطلـــب الـــربـــح ممـــا فيه خســـران
أقبل على النفس واستكمل فضائلهـــا   فأنت بالنفس لا بالجســـم إنســـــان

والقائل :

فبالنفس أشباح الوجود تنعمت   وبالروح أرواح الشهـود تهنت

والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ .

وهناك رأى آخر . يعزو إلى الروح كل شىء يحدث فلا مانع . فإذا أخذنا هذا الرأى على اعتبار (السببية) أى أن الروح سبب فى الحياة فلا مانع . أما إن أخذنا هذا الرأى على اعتبار (همود النفس قطعا كالجسم) فقد أخطأنا بالرغم إن هناك من يسمون أنفسهم علماء الأرواح يصرون على ذلك وقد بين الله سبحانه وتعالى أمر الروح فى قوله تعالى ﴿ يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ ويدعون أنهم يمكنهم تحضير أرواح الموتى والله يقول فى كتابه العزيز مقررا مصير الروح بعد الموت كما جاء فى سورة الواقعة الآية ٨٣ .

﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين . فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم ، وتصلية جحيم ﴾ هذا هو مصير الروح . إذا خرجت من الجسم فلا رجوع إليه . حتى ولو قيل أن هناك انفصالا مؤقتا أو دائما كما يزعم هؤلاء القائلون . وقد ملأوا الناس ضجة بهذا الافتراء وادعوا أن ذلك صوفية (وما هى إلاّ فكرية فلسفية لا دينية [١] يقصد بها اعتبار كل الأديان الأرضية منها السماوية واحدة ، كما يقول قائلهم وبئس قوله :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى   إذا لم يكن دينى إلى دينه دانـى

لقد صار قلبى قابلا كل صـــورة   فمرعى لغـزلان ودير لـــرهبـــان

---

(١) ذلك لأن الأرواح التى يزعمون حضورها ، كلها تتكلم عن اليوم الآخر عالم الترقى أى لا ثواب هناك ولا عقاب إنما يترقى الإنسان فى عمله الذى كان يعمله فى الدنيا ، فالممثل والراقص يترقى فى عالم الرقص هناك ؟! هكذا يدعون وبعض العلماء يوالونهم ويحرفون لهم آيات القرآن الكريم مع الأسف .

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهّت ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وقال أيضا :

عقد الخلائق الآلهة عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

راجع . فصوص الحكم لابن عربى ص١٩١ طبعة ١٣٠٩ .

أما هذه الهيمنة والأشباح المتجسدة فى جلسات التحضير فليست إلا " عفاريت " وحيث أن (الأجانب من الخواجات) لا يعتقدون فى وجود الجن فإنهم كسوا العلم بخرافة تحضير الأرواح ، زعموا ذلك كذبا وقاموا بهدم النفس . وألفوا فى ذلك كتبا كثيرة ، وانبهر بعض علماء الدين [١] (بالأصوات التى يسمعونها فى جلسات التحضير . وظنوا أنها أصوات شوقى الشاعر وسعد زغلول الزعيم . وهتلر وموسولينى وهيرودوت . وتوت عنخ آمون . وإن الجميع فى جنات النعيم . ويعتريهم فى بعض الأوقات ندم على بعض ذنوب فعلوها فى عالمنا الدنيوى . والقصد من ذلك . ترك الدين أو اعتبار الأديان قاطبة تدعو إلى الله . كما قال ابن عربى سابقا . وقد جارى الصوفية كثيراً من سذجة أهل العلم وصدقوهم فى الأحاديث التى عزوها للرسول ﷺ مع أنها تخالف عقيدة التوحيد مخالفة صريحة وآيات القرآن الكريم مخالفة أوضح مما يجعلنا نرمى بها بعيدا عن التفكير المنطقى السليم . ومن أشهر الكتب المتداولة فى هذا الموضوع . كتاب الروح لابن القيم . ولكنه رحمه الله وغفر له ولنا كان شديد الورع فيورد الحديث بحسن نية تاركا علم الصحيح إلى الله . مستغفرا إياه . ونسج على منوال هذا الكتاب نساج محدثون لم يراعوا أنهم قلدوا ولم يفعلوا مثله فى عدم التأكد مما يورده . فاعتبروا قضية حضور الأرواح من المقابر إلينا واضحة جلية لا نقاش فيها . وزعموا أن أرواح أقطابهم وأوليائهم ، تأتى إليهم عيانا ، بيانا . يكلمونها وتكلمهم . ويناجونها وتناجيهم . ويأخذون منها العلوم اللدنية . وما إلى ذلك . والغرض هدم الشريعة . بما يسمونه . علم الحقيقة . وقد قام أحد الزملاء الفضلاء العالم الجليل محمد نجيب المطيعى بكتابة أبحاث متتابعة فى مجلة الهدى النبوى حول أحاديث كتاب الروح

(١) قليلوا الخبرة بعلم النفس ، أو أنهم متأثرون بالتصوف فهو يجيز هذا .

لابن القيم . وزيف أكثرها . ويكفيها تزييفا أن تخالف القرآن الكريم . راجع مجلة الهدى النبوى المجلد ٢٩ سنة ١٣٨٧ وما قبله وما بعده . فقد اجتهد فى عدة مقالات لتزييف هذه العقيدة الفاسدة عقيدة حضور أرواح الصالحين بعد وفاتهم لتدعو الناس إلى الاحتفال بموالدهم . التى فيها يرتكب كل أنواع الوثنية . والفواحش العلنية . وهذا أمر معروف مشاهد مع الأسف فى جميع الدول . وفى جميع الملل (١) .

وأخيرا . فإن الإنسان . جسم . ونفس . وروح . والأخيرة تغلف هذا كله إنها قبس من نور الله . به أصبح الإنسان مكلفا . وبه تمت المسئولية . وبه ساد الإنسان غيره من المخلوقات . وبه خاطب الله سبحانه وتعالى عباده ، فى أوامره ونواهيه ، فقال فى أيات كثيرة . أفلا تعقلون ؟ . وقوله . ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ . وقوله ﴿ لقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ (٢) . وقوله على لسان أهل النار ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير .. ﴾ .

فما هو العقل ؟! ...

* * *

---

(١) ومن أشهر الكتب القديمة فى محاربة هذه الوثنيات ، كتاب نقد العلم والعلماء (تلبيس إبليس لإبن القيم) ومن الكتب الحديثة هذه هى الصوفية لعبد الرحمن الوكيل ومصرع التصوف على حاشية التنبية إلى كفر ابن عربى للبقاعى .

(٢) ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ ، الأعراف آية ١٧٩ . وقوله تعالى على لسان أهل النار ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ سورة الملك .

الفصـــل الثانى

بيان المراد من معنى القلب . والنفس . والعقل

- القلب المادى : القلب المعنوى ، ومكان كل منهما
- النفس : الجهاز التنفسى ، مم يتألف ؟ المكبوتة ..
- أعضاء النفس
- الملكات الباطنه اللاشعورية
- الذكريات المدفونه فى النفس

إن هذه الأسماء كثيرا ما تتردد على الألسنة . وكثيرا ما يتشابه المراد منها ، مع أن معانيها مختلفة . فكثيرا ما نعنى بالقلب عن النفس والعقل . ولذلك رأيت أن أشرح المعنى الحقيقى المراد من كل لفظة من هذه الألفاظ . ومتى يمكن حمل لفظة على معنى لفظة أخرى بمقاييس اللغة العربية المعروفة (بالمجاز اللغوى) أو المجاز العقلى فى علم البلاغة . فنقول وبالله التوفيق .

القلـــب :

المعنـــى الطـــبى :

يطلق لمعنيين . المعنى الطبى . الفسيولوجى . ونقصد به قطعة اللحم الصنوبرية ، فى الجانب الأيسر من الصدر . وهو المشتمل على الأذين والبطين وما يتعلق بهما من الشريان الأكبر والوريد الأكبر ويعتبر هذا العضو من أهم الأعضاء للكائن الحى فهو لا يكف خفقانه طول الحياة ، فما دام الإنسان أو الحيوان على قيد الحياة فإن القلب يستمر فى دقاته . وإذا وضعت يدك على صدرك فى الجانب الأيسر تحت ثيابك فستشعر بضرباته منتظمة . ومع أن الناس يعرفون ظاهرة ضربات القلب منذ قرون طويلة . ولكن ماهية هذا العضو لم تعرف حقيقة إلا على يد طبيب إنجليزى يدعى هارفى .

وإن كانت المراجع العربية وبعض المراجع الأفرنجية العادلة تصف ابن النفيس العربى بأنه هو أول من تصرف فى ماهية القلب . وعندما قدم هارفى بحوثه حول القلب لم يصدقه العلماء حينذاك إذ قال إن القلب مضخة فعلية وظيفتها دفع دم الحياة حول الجسم ، بلا توقف من طريق جميع الأوعية الدموية ..

وعلينا أن ندرك أنه يوجد فى جميع أجزاء الجسم عدد لا يحصى من الأنابيب الصغيرة يتدفق فيها الدم ، حاملا الطعام والمواد الأخرى إلى جميع خلايا العضلات الصغيرة والعظام والجلد وما إليها . وهذه الأنابيب الصغيرة أو الأوعية الدموية كما نسميها من نوعين مختلفين فبعضها سميك بعض الشىء وقوى ويعرف باسم الشرايين . ويجرى الدم فى الشرايين فى اتجاه واحد . مثال ذلك الشريان الذى يجرى فى الذراع يحمل الدم خلايا الذراع إلى أطراف الأصابع . وفيها تستدق الأوعية الدموية حتى لا نستطيع رؤيتها إلا تحت آلة الميكروسكوب . وكان هذا

الجهد الذى وصل إليه هارفى فى القرن السابع عشر الميلادى مدهشا للغاية ، لأن اكتشاف ميكروسكوب قوى إلى درجة رؤية تتيح أن نرى الشعيرات الدقيقة جدا أمر مدهش للغاية الدم إن الشعيرات الموجودة فى الأصابع وفى أطرافها ينقل إليها الدم فى الشرايين . وينقل منها الدم فى الأوردة . والأوردة ليست كبيرة كالشرايين كما أنها لا تشبهها فى قوتها ولا سمك جدرانها .

ويتدفق فى اتجاه مضاد للشرايين عائد للقلب الذى يسحبه من الأوردة لتوزيعه ثانية إلى أجهزة الجسم بعد إجراءات كيمائية وبعد تنقيته فى الرئتين ..

والقلب عضلة قوية جدا وهى شديدة التعقيد . ولكن يسهل شرحها لطالب الطب ولو أمكن أن نرى القلب مفتوحا لرأينا الأجهزة الآتية . الشريان الرئوى ، والأوردة الرئوية ، التى تقوم بحمل الدم إلى الرئتين لتنقيتهما وإعادتهما للقلب ، ثم الأذين الأصغر والمصراع التاجى ، والبطين الأيسر ، والجدار العضلى للقلب ، والوريد الأجوف الداخلى . والأورطى . والصمام الأورطى والأذين الأيمن والبطين الأيمن والوريد الأجوف السفلى عندما يتقلص البطين يدفع الدم إلى الأورطى بقوة عنيفة فيتدفق الدم فى هذا الوعاء الكبير بمعدل قدمين تقريبا فى الثانية . لكن ما إن يصل الدم إلى الأوعية الشعرية النهائية فى الأجزاء البعيدة من الجسم حتى تكون سرعة تدفقه تصل إلى حوالى ١ على ٦٠٠ من سرعته عند خروجه من القلب ولكن عودة الدم إلى القلب لا تستغرق هذا الوقت الطويل .

ومن المعروف طبيا أنه يوجد فى الجسم نوعان من الخلايا العضلية . وتنتمى عضلة القلب إلى النوع المخطط مثل العضلات الموجودة ، فى الذراعين والساقين . ومن ثم فإن المتوقع أن بالقلب نوعا من السيطرة العصبية ، ولكن هذه السيطرة مستقلة بذاتها ، ولا تتأثر كثيرا ببقية الجسم . فما دام الإنسان يعيش عيشة طبيعية ويسلك سلوكا هادئا فإن قلبه يطرق بمعدل ٧٢ طرقة فى الدقيقة . ويزداد هذا العدد كثيرا عند الأطفال وإن كان لا يختلف كثيرا فى الأحوال العادية . هناك مناسبات يطلب فيها من القلب أن يؤدى عملا أكثر من المعتاد فيؤديه عن طريق الإسراع فى ضرباته فحين نؤدى تدريبا عنيفا مثل العدو أو الألعاب الرياضية أو السباحة يضطر الدم إلى التدفق بسرعة أكثر من العادة فإذا كان القلب سليما فإنه

لا يلبث أن يستقر ويعود إلى نظامه العادي عند انتهاء التدريب . والرياضى السليم هو الشخص الذى يعود إلى ضربات قلبه العادية بعد رياضته مهما كانت عنيفة ومن المعروف . أن جميع أجزاء القلب لا تطرق كلها دفعة واحدة . إذ ينبغى أن يطرق الأذينان قبل البطينين ، ويحتفظ الاثنان بتناسق ضرباتهما بواسطة جهاز صغير مصمم ببراعة موجود بداخل القلب نفسه . وقد قضى كثير من فطاحل العلماء سنوات طويلة يبحثون فى كيفية هذا التناسق ووجد أن هذا التناسق لا يتغير مطلقا مهما كانت سرعة النبض فى ازدياد .. وبعد . فليس من شأن هذا البحث أن يتكلم عن القلب من الوجهة (الفسيولوجية) ولكن حب استطلاع هذا الجهاز العظيم جعلنى أحوم حوله ببعض العبارات السابقة . وأنه لأخطر من ذلك بكثير . وهو نعمة مسداة من الخالق جل شأنه إلى جميع مخلوقاته طراً . والقلب الذى أقصده من هذا البحث هو :

القلـب المعنــوى :

اللطيفة الربانية ولها بالقلب الفسيولوجى تعلق . هذه اللطيفة الربانية هى حقيقة الإنسان فى إدراكه ، وعلمه ومعارفه ، وبها خوطب من الله وكلف وبسببها جوزى خيرا أو شرا . وقد تحير الفلاسفة والباحثون فى معرفته . إنه النور الداخلى المدرك للحقائق . وإن كان متعلقا بالقلب الصنوبرى . كما تتعلق العين بالأبصار . والمخ بالتفكير ولكن الحقيقة إن تحقيق الكيفية سر من أسرار الروح . والقرآن الكريم يجيب عن هذا السر بقوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ والأثر عن الرسول ﷺ إنه لم يتكلم عن الروح متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود عنها فأمسك النبى ﷺ ولم يرد عليهم . وما دام الرسول ﷺ لم يتكلم فيها فأولى بنا ألاَّ نتكلم فى كنهها . فلن نستفيد من هذا الكلام إلاَّ التخبط والزندقة . التى ذهب إليها القائلون بأنهم علماء الأرواح .

وعلى ذلك إذا أطلقنا لفظ القلب أردنا هذه (اللطيفة الربانية) لا الجهاز العضوى وكثيرا ما نطلق كلمة القلب . ونقصد به النفس انظر إلى قول الشاعر :

قلبى إلى ما ضرنى داعى يكثر همى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدوى إذا كان عدوى بين أضلاعى (١)

فالمقصود هنا بالقلب النفس . وكثيرا ما يأتى تعبيرا عن العقل كما ورد فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم . واللغة تجيز هذا فالقلب (الروحى) مصدر الإشعاع الحيوى للعقل والنفس . بما يعرف بالعلاقة السببية .

قصد بعض الباحثين بمعنى الروح (حياة البدن) فعللوها بقولهم إنها جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينتشر بواسطة العروق المنتشرة فى الجسم فيفيض بأنوار الحياة ومنها الحس والسمع والشم ، يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت . فكل شىء فى البيت ينار من هذا السراج . ذلك هو البحث الطبى أى أن الروح عندهم هى حيوية الجسم . ويقول بعضهم أنها بخار لطيف أنضجته حرارة القلب . وليس هذا البيان من غرضنا أنه غرض أطباء البدن . إنما غرضنا هذه (اللطيفة الربانية) التى نصل بها إلى الكمال . وإلى السمو بالذات الإنسانية لترقى إلى رتبة الملائكة . ولا تنحط إلى هوة الشياطين . ذلك هو القلب الذى أعنيه وعلى ذلك فإنه سر من أسرار الله تحار فيه العقول والأفهام كما سبق تبيان ذلك ...

النفـــس :

ما هو الجهاز النفسى . ومم يتألف ؟! :

إن الإنسان كائن حى . كما سبق أن وضحت . يتكون من عنصرين . العنصر المادى المشاهد وعنصر آخر خفى ، مصدره الحياة والحركة والنشاط ، والجسم هو مظهر هذه الحركة ، أى أن النفس . قوة محركة " والجسم قوة متحركة ، وتلك طبيعة الحياة جميعا وما الانسان إلاّ مثل مصغر من هذا الكون ، وإن كان مثلا مصغرا إلى أبعد مدى أشبه شىء بالذرة ، ولكل نوع من المواد لابد من دراسة لمحاولة فهم كنهها . أو على الأقل منافعها وجهدها فى هذه الحياة . فمثلا دراسة خواص المواد وظهورها من خصائص علماء الكيمياء . ودراسة الحركة والنشاط وسائر القوى التى تؤثر فى المادة من خصائص علم الطبيعة . ومن البديهة العلمية

(١) يقصد أن نفسه الأمارة بالسوء تدعو إلى الضرر ، وكيف يحترس منها وهى ناشبة بين أضلاعه.

أن المادة قاصرة بذاتها . أى ليست حية . فلا تتأثر إلاّ إذا أثر فيها مؤثر أو حركها محرك خارجى أو أى قوة مستقلة عنها فمثلا الآلة الموسيقية ، نجد فيها الوتر ، لا يمتعنا بالأنغام إلاّ إذا نهزته يد فنان . فالذى أطلق الوتر من صمته ليست قوة ذاتية فيه إنما مؤثر خارجى هزه فاهتز والأجسام المادية قاطبة مهما كانت أنواع العناصر التى تتألف منها خاضعة لهذا القانون البديهى . فإذا بدت على جسم مادى نوع من حركة أوصوت عرفنا أن هناك مؤثرا خارجيا أودع هذا النشاط قد يكون منظورا وقد لا يكون منظورا ، وإذا تضمنت حركة الجسم المادى ما يدل على التفكير والتصرف ، أدركنا بالبداهة أن القوة التى حركت هذا الجسم إنما هى قوة عاقلة متصرفة .

والنشاط النفسانى لم يخرج عن هذه القاعدة مثله كمثل الكهرباء والمغناطيس والضوء والحرارة ، وما إليها من سائر القوى الطبيعية التى تعمل فى الكون وتعطى المواد نشاطا ليس من شأنها .

وموقف النفس الإنسانية (وهى معنوية) أشبه شيء بموقف الفنان من آلته الموسيقية . فالفنان (نفس) والآلة جسم تتحرك متجاوبة مع اهتزازات الفنان . والجسم المادى كالآلة فى تلبية أوامر النفس والخضوع لسلطانها ولو أن كليهما يتأثر وينفعل بالآخر ، أى إذا أصاب الجسم عطب من أى نوع تأثرت النفس . وإن اهتزت النفس لأى حادث تأثر الجسم .

ودراسة الجسم المادى من حيث تركيبه ووظائفه وتغيراته الطبيعية والمرضية والعناية به وعلاجه من اختصاص الطبيب الجثمانى . أما دراسة الجهاز النفسى من حيث تركيبه ووظائفه ، وتغيراته الصحية والمرضية ، والعناية به وعلاجه من خصائص النفسانى . والعنصران (النفس والجسم) يختلفان اختلافا جوهريا .

والعناصر التى يتألف منها الجهاز النفسى :

ليس من خصائص هذا البحث التفكير للوصول إلى كنه النفس . فلا زالت لغزا محيرا . مثلها مثل الروح فحقيقة هذا العنصر لازالت مغلقة فى وجه العلماء والعلم إلاّ فى أساطير أهل الخرافة .

والمقصود من دراسة الجهاز النفسى هو معرفة العناصر النفسية التى يتألف منها هذا الجهاز . أعنى تركيبه المعنوى . أو بعبارة أخرى واضحة . دراسة الظواهر النفسية قسمان فالقسم الأول أشبه شيء بدراسة علم تشريح النفس . والقسم الآخر أشبه شيء بعلم وظائف الأعضاء (النفس) .

العناصر النفسية التى يتألف منها الجهاز النفسى . هى مجموعة الغرائز البشرية والحيوانية التى تتعلق بحياة الفرد وبحياة نوعه . كما يشمل مجموعة الاستعدادات والميول والنزعات الموروثة . وهى تؤلف الجزء الموروث من النفس . ثم الأفكار والذكريات والخواطر والصور الفكرية وجميع الممارسات العقلية والنفسية والمواهب الفكرية والملكات العقلية ، المكتسبة من النواحى التعليمية ، والمران ومن تجارب الفرد فى الحياة من يوم ولادته إلى يوم مماته ، وهذه تؤلف الجسم المكتسب من الجهاز المذكور .

فالقسم الموروث بأكمله وقسط كبير من القسم المكتسب وهو الذى يشمل الممارسات العقلية والحوادث النفسية والميول والنزعات والمشتهيات والتأثرات والصدمات النفسية التى كابدها الفرد ، ولكنها كبتت فى أعماق نفسه وأصبحت نسيا منسيا تؤلف الجانب اللاشعورى من الحياة العقلية وهو ما يسمى اصطلاحا بالعقل الباطن أو باللاشعورى .

أما الذكريات والخواطر والأفكار وجميع المعلومات والوجدانات الماثلة فى الشعور ، أو التى يمكننا تذكرها بالإرادة ، وإظهارها على صفحة الشعور اختيارا فإنها تؤلف الجانب الشعورى من حياتنا العقلية وهو ما يعبر عنه إصطلاحا بالعقل الظاهر أو الشعور .

هذه العناصر التى يتألف منها الجهاز النفسى إجمالا بشقيه الشعورى واللاشعورى . ومن دراستها يتبين لنا أن هذا الجهاز معنوى بحت فى تركيبه وتكوينه . وهو وإن كانت تجمعه بالجسم رابطة تفاعل بمعنى أنه يؤثر فى الجسم ويتأثر به ، إلاّ أن العلم لم يكشف لنا والعقول فيه من قبيل التكهنات العلمية . كما أن العلم لم يكشف لنا كذلك عن وجود مكان معين "محيز" للنفس فى الجسم . هل هو فى المخ أو المجموع العصبى أو فى القلب ؟!

فعلومات الإنسان ودراساته وذكرياته وخواطره وجميع ممارساته من يوم مولده إلى يوم مماته تظل محفوظة فى خزائن عقله بشقيه الباطن والظاهر . وقد يقال من الوجهة الفسيولوجية إن هناك خلايا بالملايين تختزن كل خلية ذكرى معينة أو ممارسة أو تجربة أو فهم ، وما دامت هذه الخلية حية فإنها تصبح دائما فى صفحة الشعور يتذكرها صاحبها . أما إذا فنيت الخلية غاصت الذكرى . ومن عادة الخلايا أن تنتهك وتفنى وتقوم خلايا أخرى (أى تخلق أو تتوالد) . وهذا الرأى له وجاهته فقد ينسى المرء لصدمة فى المخ مادية جزءا من حياته ، ويحتفظ بأجزاء آخرى ، وذلك نتيجة انتهاك الخلايا التى وعت هذه الذكريات . وفكرة الخلايا فكرة وجيهة . قد يميل إليها بعض العلماء فإذا فنيت الخلية واعية (الذكرى أو التجربة أو الحفـظ) ذهبت الذكرى . وإذا ضعفت تأرجحت الذكرى . ولكن هذا الرأى لم يخل من اعتراض . فإننا وجدنا الذين يحيون الذكريات القديمة بالتكرار فى ذكرها دائما حية لا تنتهى لأنها فى صفحة (الشعور) الإنسانى . ولذلك يلزم تكرار حفظ أو ترتيل القرآن الكريم والأحاديث النبوية والأشعار التى حفظناها ونحن صغار حتى لا تذهب بعيدا فى أعماق النسيان (أى فى هوة اللاشعور) ويمكن أن نجمع بين الرأيين . والرأى القائل بالاحتزان فى الخلية . والرأى القائل بالشعور واللاشعور بأنه لابد من العناية بالجسم المادى وأجهزته بجانب العناية بالجسم المعنوى (النفس) . وقد قال أخرون بوجود نوعين من العقل . ويسمونه النوع الأول العقل الظاهر (الواعى) والثانى العقل الباطن وكلاهما لا يخرج عن نظرية الشعور واللاشعور . وهى محاولات لفهم هذا العالم العظيم فى الإنسان .

وأخيرا إن المعلومات المختزنة إذا ما جمعت وسطرت قد تملأ مجلدات ضخمة لا يحصى لها عدد ولكنها مع ذلك تظل فى الجهاز النفسى . وربما إثارتها تبعث كثيرا من الأسى كما يقول الشاعر كامل الشناوى :

لا تثرلى ذكـرياتى إنـها شيبتنى شيبت حتى صبايا

ومظاهر النشاط النفسى لها قياسات مخصوصة كقياس الكهرباء . ولا يضير علم النفس . بأن يجهل كنه النفس . إن النفس فى عالم مجهول الكنه ، فهى ليست مشاهدة محسة كالجسم ، ولكن علم النفس قام على رصد الظواهر النفسية ، التى

تقع تحت الحس سواء عن طريق المشاهدة أو التجربة أو التحليل النفسى ورد هذه المشاهدات إلى قوانين علم النفس لتفسيرها ، والجهاز النفسى كما قدمت غير مادى ولكنه مجموعة متماسكة الأجزاء والعناصر ، فمظاهره تدل على تماسك عناصره . وأنها تكون وحدة لها كيان ويعيش طوال العمر محتفظا بتكوينه وتركيبه وأجزائه التى يتألف منها . والتى ضمها إليه منذ البداية على توالى الزمن . والجهاز النفسى الخاص بكل فرد كما أنه يؤلف عناصر يشترك بها مع الأفراد ، فإنه فى الوقت ذاته له ميزات خاصة يحتفظ بها لتتميز شخصيته عن غيره . والجهاز النفسى مع كونه معنوى التركيب إلاّ أنه أكثر خلودا وأشد احتفاظا بعناصره من الجسم . لأن المعروف طبيا أن خلايا الجسم وأنسجته معرضة للتغيير والتجدد بمرور الزمن . وهذا لا ينافى مع احتفاظ الجسم إلى حد بمظهره الخارجى . أما الجهاز النفسى فإنه يكاد لا يفقد شيئا من عناصره وجزئياته التى يتألف منها . فما يكتسبه بمرور الزمن عن طريق الخبرة والتجربة والممارسة لا يفقده بل يظل كامنا فى طياته .(الشعور أو اللاشعور) إذ أن الجهاز النفسى سجل تدون فيه جميع الحوادث خيرها وشرها ، ولعل هذا يعطى ضوءا لتفسر الآية الكريمة فى سورة فصلت ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعلمون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعلمون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ الأيات ١٩ وما بعدها .

قد تستيقظ الذكريات الدفينة فى اللاشعور . ونحسب أننا تناسيناها جملة ، تستيقظ فى حلم أو رؤيا أو فى التنويم . أو فى خطرفة حمى ، أو مرض ، كما يمكن كشفها عن طريق التحليل النفسى الذى دلت تجاربه على إمكان كشف ذكريات الماضى البعيد حتى سن الطفولة ..

وقد سمى علماء النفس العنصر المسجل للحودث بإسم Psycho Plama أى المادة النفسية وعلى الأثر المطبوع عليها اسم Bsycho Gam

وذهب بعض علماء الحياة إلى افتراض (أن الخلايا العصبية والخلايا التناسلية لها خاصية الاحتفاظ بالتجارب التى مرت بها . أعنى لها نوع من الذاكرة وقد أطلقوا على هذه الطاقة اسم Menema وعلى الأثر المطبوع فيها Engram ويعللون انتقال الممارسات والعادات المكتسبة من جيل إلى جيل ومن سلالة إلى سلالة بالوراثة فى صورة استعدادات فطرية فهم يفترضون للجرثومة البشرية The Germ cell نوعا من الذاكرة (أى لها عقل خاص بها) تكنه فى طياتها وهو الذى يؤهلها لأن تنقل شبه الوالدين أو أحد الأصول إلى الأولاد أو الأحفاد .
والاعتقاد السائد الأن أن العقل الباطن يضم ذكريات السلالة التى انحدر منها وأن كل فرد يحمل فى أعماق نفسه الباطنة تراث المدنيات التى مر بها الجنس البشرى منذ العصور الأولى وهو ما سماه يونج بالاشعور الجمعى he collctwe unT . concious

وهو الذى يمتاز به الطفل عن صغار سائر الحيوانات الأقل مرتبة من الإنسان ويجعله على إستعداد لتشرب الثقافات الخاصة بالإنسان المتحضر . ويسمى هذا الاستعداد بالطاقة الثقافية The cultive cabacity .
ومن ظريف ما يروى عن يونج أنه استطاع عن طريق دراسته أحلام بعض الناس أن يكشف السلالة التى انحدروا منها .

إن من يتأمل الظواهر النفسية بشىء من التعمق ، لا يلبث أن يستشف من ورائها أن بين الجسم والنفس (توازن عجيب) فى النظام والتركيب والتغيرات والتطورات . وأن كلا منهما يتبع نظاما خاصا فى ميدانه . النفس فى عالمها المعنوى . والجسم فى عالمه المادى .

فالنفس تتغذى ولكن غذاءها روحى محض قوامه التربية والتعليم . والنفس تتشرب المعانى وتلتهم المثل العليا أو تزدردها وهو ما يسميه علماء التحليل . بالإزدراد أو الالتهام Inter jection وإذا تناولت النفس غذاء فاسدا . أعنى تربية فاسدة فإنها تصاب بعسر الهضم وتمرض . والنفس معرضة للصدمات والجروح ولكنها صدمات معنوية من جنسها وتسمى بالصدمات النفسية Bsychic Tro-ma وإصابتها قابلة للعلاج والشفاء كالاصابات الجسمية . ولكن علاجها معنوى

أو نفسى من طبيعتها . وقد تترك الصدمات أو الجروح بها عاهات أو آثارا خالدة وهى أشبه شىء بأثارات الالتهام التى تخلفها الجروح والاصابات الجسمية . فرب كلمة تضمنت معنى جارحا أو أوحت إليه ، تؤثر فى الجهاز النفسى لدرجة الخطر على الحياة . ولقد سجن عمر بن الخطاب الشاعر (الحطيئة) لبيت يوحى من بعيد إلى إهانة لمن قيل فيه . فشكى إلى عمر بن الخطاب فسجن الشاعر وهو .

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

شعر الرجل بأن عبارة (الطاعم الكاسى) إهانة وإن كانت لا تحمل الإهانة مباشرة ، صورته بأنه عالة على غيره .

والنفس تنمو وتتطور مثلها فى ذلك مثل الجسم وقد يعتريها فى مراحل نموها وتطورها ما يعيق النمو والتطور فتمرض بالمرض المعروف بالقزامة النفسية Psy-chic infantlism ويرجع سببها فى الغالب إلى اختلال فى وظيفة بعض العقد أو المركبات النفسية الغريزية (التى هى شبه شىء بالعقد العصبية أو الغدد الصماء فى الجسم) ولا يغرب عن البال أن هذه الغدد النفسية تفرز نشاطا نفسيا باطنيا فى صورة انفعالات (هرمونات نفسية كالهرمونات الجسمية) . وقد يؤدى زيادة نشاطها أو قلته إلى تضخم بعض الملكات العقلية أو ضمورها . فتبدو على النفس مظاهر التفوق والنبوغ أو تبدوا عليها مظاهر الضعف والمرض وفقد الإتزان العقلى والتناسق المعوى أو الجنون والبله . وقد تصاب النفس بالخراجات أو القروح المعنوية وهى المعبر عنها . بالعقد النفسية المرضية Psycho Patholeqic Complex فإن كانت العقدة غائرة فى جوف اللاشعور فلابد لشفائها من إجراء عملية (تحليل نفسى) عميق للوصول إلى مقرها واستئصالها من منطقة اللاشعور . وهو إجراء أشبه شىء بعملية فتح بطن فى (الجراحة) فالتحليل النفسى عبارة عن فن الجراحة النفسية ، يقوم به جراح النفس . أعنى المحلل النفسى أما إذا كانت الجروح أو الخراجات سطحية فى الطبقة الخارجية أو تحت القشرة النفسية المعروفة باسم ما قبل الشعور Precconcious فإنه لا حاجة إلى تحليل نفسى عميق بل يكفى للعلاج إجراءات تحليل سطحى أو عملية تطهير cathara this أو تفريغ . Abreaction

والنفس تتأثر بأسباب المرض وعناصر العلاج فى عالم المعانى دون حاجة إلى اتصالها بعالم المادة . والنفس تتحرك وتعمل وتكد . ولكن مظهر الحركة فيها يقوم على التفكير ، أو النشاط العقلى بالانفعال النفسانى أو الغريزى . هى تتمتع بنوعين من الحركة أحدهما إرادى ومصدره الجهاز الشعورى . أى العقل الظاهر وثانيهما غير إرادى ومصدره الجهاز اللاشعورى أى العقل الباطن . مثل النفس فى ذلك مثل الجسم . إذ يتمتع بهذين النوعين ولكنهما عضويان أحدهما . حركة إرادية مصدرها الجهاز العصبى والثانية غير إرادية مصدرها الجهاز العصبى غير الإرادى.

ولكل نفس أساوير . وأشكال تتميز بها عما سواها . وهى المعبر عنها . بالأخلاق والسجايا والطباع . التى تكسب الإنسان شخصية يتميز بها عن غيره وللنفس قبح وجمال يدركان ولا يريان يتمثل ذلك فى قولنا لشخص لم يسىء إلينا (هذا دمه ثقيل ، وقولنا لشخص آخر ربما أساء إلينا (هذا دمه خفيف) وبعضه يعبر بقوله (ثقيل الزلط والاخر خفيف الزلط . وكلاهما أبعد أثرا فى الحكم على الشخص ومعاشرته أو هجره . وكم من حسناء تخلب اللب تعست لشعور الجالس معها بثقل الدم كما يعبر به . والعكس .

وللنفس أعضاء ظاهرة وهى ملكات العقل الظاهر :

كملكة الحفظ والذكاء والرغبة والإرادة والانتباه والتخلى والإدراك والوجدانات الخاصة وسائر الملكات المعروفة لدى علماء النفس والتربية . وملكات باطنة وهى تتألف من الغرائز والنزعات والميول ، والاستعدادات الفطرية . والمكتسبة والذكريات، والتأثيرات والرغبات المكبوتة والعقد النفسية الكامنة فى جوف اللاشعور . وتسمى الملكات الشعورية ، بالعقل الظاهر أو الشعور . وتسمى الملكات الباطنية بالعقل الباطن أو اللاشعور .

والبراهين والأدلة على تفكير الباطن . موفورة فى حياتنا العملية . من أقرب الأمثلة إليها :

البرهان الأول : (الأحلام) فقد أثبت التحليل النفسى إن الأحلام ما هى إلا لغة ذات رموز خاصة تعبر عن معانى كامنة فى اللاشعور . ولها أيضا قوة الاستشفاف لمجاهيل المستقبل والأمانى الدفينة فى الذات وتحليلها . والحكم عليها

من ناحية الإمكان أو عدم الإمكان . ولغة الأحلام تستند فى تعبيراتها إلى رموز وصور خيالية . فهى كما يقول صاحب كتاب التحليل النفسى ص ٩٨ المستشار محمد فتحى (هى أشبه شىء بالهيروغلوفية القديمة فمن استطاع حل رموزها وطلاسمها أمكنه قراءاتها وفهمها) وأقول تعليقا على ذلك . إن من الخطأ الشائع أن نترك من يهب ويدب لتفسير الأحلام . كما نترك الجهلاء لعلاج الأمراض من الحلاقين وغيرهم من الدجاجلة ..

وقبل الهجوم على تفسير الحلم لابد أن يعرف المفسر كل شىء عن أحوال من طلب التفسير منه أو بالأحرى أن يكون عالما به علما تاما من الناحية التحليلية النفسية . وكثير من هذه الأحلام قد تكون مفيدة للحالم . إذ أنها تكون بمثابة إنذارات له يحترس بها من سيره فى طريق معوج ، وربما أتيحت للبعض منا فرصة حل مشكلاته بالأحلام ، أو بعض المسائل العويصة كما يقال أن الذى اكتشف البنسلين دواء مرض السكر . كان نتيجة رؤيا بعد أن استعصى عليه التفكير الشعورى أن يصل إلى نتيجة من تحليله بعض المواد التى ظن أن بها يمكن عمل دواء يتداوى به المرضى به الهالكون بهذا الداء فلما استعصى عليه الأمر رأى رؤيا . تقول له نفسه الباطنة . أفعل كذا وكذا سترى النتيجة المرجوة . ولا عجب . فالرؤيا جزء من النبوة ، يعطى لبعض الناس كنوع من الطاقات الموهوبة . وتعطى بدرجات متفاوتة فبعض الناس قد يخدعون بالرؤى والبعض الآخر قد تكون رؤياهم حقيقة صادقة . وبعض الرؤى تنبىء عن أمراض فى الجسم أو ستحل به . أو أن الجسم مهيأ لها . وهو علم غريب نأمل أن نكتب فيه بحثا إن شاء الله .

والبرهان الثانى : للدلالة على التفكير الباطن هو ظواهر التنويم المغنــاطيسى ، فقد دلت تجاربه بوضوح على تمتع الإنسان بملكة تفكير (لاشعورى) وربما كانت فى بعض الظروف أدق وأحكم من حيث التقدير والاستنتاج والاستقراء من التفكير الشعورى . ولعل هذا يفسر ما يبدو على بعض شواذ الأفراد من نبوغ فى العمليات الحسابية المعقدة ، على الرغم من صغر سنهم أو ضآلة معارفهم الشعورية .

والبرهان الثالث : ظواهر الأمراض النفسية إجمالا وبخاصة الأمراض الهستيرية والأفكار المتسلطة . وغيرها . حيث دلت الأبحاث النفسية الحديثة على

أن أعراض هذه الأمراض لم تخرج عن كونها رموزا لمعان (كامنه فى اللاشعور) اندفعت خارج اللاشعور فى صورة أمراض . وهى وسيلة العقل الباطن لدى المريض فى التعبير عن مكنونات نفسه فى الحياة الشعورية . مثلها فى ذلك مثل الأحلام . فالأحلام هستيريا فى النوم . والهستيريا أحلام فى اليقظة . وكلاهما يعبر عن رغبات مكبوتة فى جوف اللاشعور .

البرهان الربع : إجراءات التحليل النفسى وما يندفع به المريض تحت الإيحاء من إلقاء الفاظ تنم على مكنونات يمكن أن يصل بها المحلل النفسى إلى فهم أسرار فى أعماق اللاشعور .

والبرهان الخامس : ظواهر الإحساس عن بعد ، وقراءة الأفكار ، والنظر عن البعد [1] .

وهى ظواهر خاضعة للدراسة تحت عنوان (الطاقات الكبرى المجهولة فى النفس) وقد استرعت هذه الظواهر أفكار كثير من العلماء والباحثين . لا سيما أن بعض الناس الذين ظهرت عليهم (هذه الطاقات) ادعوا للناس أنهم مقدسون . أو أنهم قد حلت فيهم روح الله . إنهم متحدون اتحادا كليا بالله سبحانه وتعالى بما يسمونه فلسفة (وحدة الوجود) أو (فلسفة الحلول) [2] . وما هى إلا طاقات نفسية يهبها الله لبعض عباده .. كما وهب لبعض الناس قوى جسمية خارقة . أو قوى صوتية يطرب لها الناس قاطبة . ونعم الله كثيرة فى الجسم والنفس وكلها فتن للابتلاء فلا يغتر أى عاقل بأى نعمة فالله يقول ﴿ ولنبلونكم بالشر والخير فتنة ﴾ ولما رأى سليمان عليه السلام عرش بلقيس أمامه وقد نقل إليه قبل أن يرتد إليه بصره . أو بالمعنى المتعارف لدى العوام (فى غمضة عين) قال كما جاء فى سورة النمل ﴿ قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ﴾ فالخوارق التى نراها فى بعض الناس نعم ينعم بها على عباده قاطبة فالمؤمن يود أن يكون بها من الأخيار . ولا يتعالى بها على عباد الله والفاجر يظن أنه من الأبرار والأولياء

---

(١) سنتكلم عن هذه الظواهر فى كتابنا فى الفصول الثلجة .

(٢) بالرغم أن هذه الفلسفة وثنية قديمة ، فإن الصوفية الحديثة ، تقتنيتها - راجع كتاب البقاعى ، فى تفكير ابن عربى ، وكتاب مصرع التصوف للشيخ عبد الرحمن الوكيل ، وكتاب هذه هى الصوفية لــه ، وراجع أشعار كبار شيوخ الصوفية فى كتبهم تجدهم يصرحون بها تصريحا واضحا ..

الكبار ويدعو الناس إلى تقديسه والنذر إليه . والالتجاء إليه مدعيا الألوهية . أو القطبية ، راجع كتاب الولاية للحكيم الترمذى .

إن دراسة اللاشعور فى علم النفس الحديث فتحت طرقا كثيرة معماة . وكان يوصف أصحابها بأنهم من ذوى الأسرار الربانية . وفى العهود اليونانية القديمة كثرت الآلهة من الرجال والنساء لبعض خواص فيهم (خواص نفسية) اعتبرها الناس قداسة . وما هى إلا قوى (طاقات) فى اللاشعور وعلى ذلك فقد قامت مدارس كثيرة لدراسة هذه الظواهر . أشهرها مدرسة درست علم النفس الجوفى ، أو علم نفس الأعماق ، أو علم نفس اللاشعور .

بينما كانت المدارس القديمة تجعل أهميتها (حتى أواخر القرن الثامن عشر) دراسة الملكات الظاهرة . كما كان الطب قديما يعنى بدراسة الأعضاء الظاهرة من جسم الإنسان حينما كان تشريح الجسم الإنسانى عملا محرما طبقا للعادات أما الآن فمبادىء الدراسة النفسية الحديثة تقوم على أساس دراسة (اللاشعور) أو ما يسمونه العقل الباطن ، أعنى تشريح أعضاء النفس وأحشائها المعنوية ، . وأصبح لعلم النفس دراسات تشابه دراسات الطب الجثمانى ذاته من ذلك .

(١) علم تشريح النفس . وتتلخص فى كشف غور الجهاز النفسى والعناصر التى يتألف منها .

(٢) علم وظائف أعضاء النفس . وهى تقابل علم وظائف أعضاء الطب . وهى دراسة وظائف الغرائز والنزعات والميول والاستعدادات والمواهب والملكات بقسميها الفطرى منها والمكتسب .

(٣) علم أمراض النفس . يدرس التغيرات فى النفس وهو يقابل علم الأمراض فى الطب . الغرض من الدراسة فحص التعبيرات المرضية التى تطرأ على الجهاز النفسى أو أحد أجهزته الفرعية .

(٤) علم الجراحة النفسية (التحليل النفسى) قد يكون العلاج مما يستلزم جراحة أعنى تحليلا نفسيا . وهو يقابل فن الجراحة فى الطب .

(٥) علم تفريغ الانفعالات . هناك ما يسمى بعملية تفريغ ، وعملية تطهير (١) .

(٦) علم العلاج بالطرق الإيحائية . العلاج عن طريق الإيحاء بقسميه الشعورى واللاشعورى أو التنويمى فإنها أشبه شيء بالعلاجات الباطنية التى يمارسها الطبيب الباطنى .

الذكريات المدفونة فى النفس :

لقد عرفنا مما سبق إجمالا العناصر التى يتألف منها الجهاز النفسى وكذلك الذكريات والخواطر والأفكار بقسميها الشعورى منها واللا شعورى . وبالتأمل فى الذكريات المدفونة فى لاشعور الإنسان يمكن أن يتذكر بعضها ويسهل عليه ذلك كلما أراد كالمحفوظات والدراسات العلمية والعملية . أو المتصلة به وبحوادثه وبحياته إنها لا تزال عالقة بالذهن (صفحة الشعور) وذلك التذكر إما لأنها لأهميتها لا تزال عالقة بالذكر . وإما لحداثتها . وإما لغرابتها وإما مراعاة لأهميتها لدى الفرد أو لتكرار حصولها . أو أنها هزت الذهن هزة عنيفة حينما حدثت كموت الولد بالنسبة للوالدة والوالد . أو لحادث اغتصاب بالنسبة لعذراء بكر. فمثل هذه الأحداث تظل بدون هوادة فى صفحة الشعور . وإن أزيحت قليلا لظروف اجتماعية أو نفسية فإنها تظل كامنة فى منطقة ذهنية يطلق عليها علماء النفس منطقة ما قبل الشعور . ويمكن أن تفسر هذه المنطقة بمثل قريب . بأنها من (وراء الباب مباشرة) فبمجرد فتح الباب فى المنزل نراها . وهى تأتى فى هذه الدرجة فبمجرد إثارة بسيطة ، تثار هذه الذكرى فى النفس بالضجة التى حدثت أول مرة . أو تقل عنها قليلا . ورحم الله شوقى إذ يقول متذكرا ربوع الشام الجميل .

يا جارة الـوادى طربت وعـــادنى — ما يشبه الأحـــلام من ذكـــراك
مثلت فى الذكرى هواك وفى الكرى — والذكريات صدى السنين الحـــاكى

وقد أطلق أحد علماء النفس على (منطقة ما قبل الشعور) اسم الذاكرة الإيجابيـــة . أو الشعور الكامن ، تمييزا لها عن (الذكريات الـــراكـدة أو الذاكـرة

(1) Abreaction , catharthis .

السلبية) التى يتعذر على المرء تذكرها بالإرادة ولكنها تحتاج إلى منبه خارجى يتوقظها أو مناسبة خاصة تعين على ذكرها أو تبعث الذكرى من مرقدها عن طريق تداعى المعانى Associatiom ومعنى تداعى المعانى . مثلا . أن تمر بمدرسة أولية جاورتها وأنت طفل . فستجد فى ذهنك جولات سريعة خاطفة كأنه يعرض عليك (فيلما سينمائيا) بتاريخ حياتك فى هذه المدرسة . وزملائك الأطفال سابقا والمدرسين والناظر والخدم . والكتب المدرسية وطرق توزيعها على زملائك والمدرسين وطرق تدريسهم . وما كانوا يفعلونه مع تلاميذ من رحمة عطوف . أو قسوة شديدة هذا ما يعرف بتداعى المعانى . إذا أردنا إثارة ذكريات المريض أثناء العلاج . أو معرفة خبايا ذاته .

وهناك نوع من الذكريات :

يتعذر على المرء تذكره من تلقاء نفسه . ولا بالمنبهات والوسائل الخارجية . بل إنها رسبت فى جوف اللاشعورى وأصبحت هباء منثورا إلاّ من فتات يدل عليها كما يدل فتات العظم على جسم ما . هذه الذكريات تستيقظ أحيانا فى ظروف خاصة كبحران مرض . أو هذيان حمى أو خطرفة ملاريا . أو هلوسة عصبية (نتيجة صدمة نفسية) أو فى أثناء التنويم المغناطيسى أو فى الرؤيا . وقد أطلقت على هذا النوع من الذكريات اسم الذاكرة المكبوتة إذ أن هذا النوع خاضع للقوة الضاغطة المسماة علميا (بالكبت) ومن شأن هذه القوة (الضاغطة) أن تصد الذكريات وتكبتها فى جوف اللاشعور (لعوامل اجتماعية تقليدية) فمثلا . قد تحب الفتاة حبا جما سيطر على أعصابها وحياتها وتفكيرها وخيالها . فيزوجها أهلها من شخص لم ترفيه بديلا من حبيبها ، فتضغط على نفسها مخافة التقاليد أن تخرج عن طاعة والديها ، أن يشاع عنها قالة السوء ما يقال عادة فى الفتاة التى تخالف والدها فى موضوع الزواج . فيكون نتيجة هذا الضغط الشديد انبثاق بعض خطارفة فى الحلم . أو فى صورة هستيرية . تتصعد فى منطقة الشعور . فيسرع آلها إلى الدجالين . ليحموها من (العفاريت) التى ركبتها وجعلتها تهذى .

إن قوة (الكبت) هى أشبه بحصن منيع بفصل ما بين الشعور واللاشعور يصرح أستاذى الفاضل المستشار محمد فتحى صاحب كتاب علم النفس الجنائى إذ يوضح

هذه الحالة فى كتابه (مشكلة التحليل النفسى فى مصر) على هامش ص١٠٢ يقول إنى بهذه المناسبة أذكر أن عقلى الباطن يرمز لهذا الحاجز (يقصد حاجز الكبت) - فى أحلامى عادة بسور له أبواب ومنافذ . فإذا ما حاولت إحدى غرائزى الفطرية أو الحيوانية أن تهاجمنى فى حياتى العملية . مثل غريزة الغيرة الجنسية . أو الغيرة لتخطى فى الترقية فى الحركات القضائية وأجد من نفسى صعوبة فى كبح جماح الغيرة وطردها من نفسى ، فإنى أرانى غالبا فى الرؤيا تجاه حيوان مفترس كنمر أو أسد أخشى جانبه وبينى وبينه باب غير محكم الإغلاق وأنا أحاول ايصاده) ..

وهناك فى منطقة الشعور ما يعرف (بالكظم) وهو مشروع ولا يضر إلاّ بعض ذوى الحساسية المفرطة . وقد مدحه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ فى معرض الحديث عن أصحاب الجنة . ولكن إذا كان (هذا الكظم سيؤدى إلى ضرر لفرط الحساسية النفسية فقد أباح الله نوعا من التنفيس رحمة بعباده حتى لا تشحن النفس تيارات هوجاء تقضى عليها . قال تعالى يوضح هذه المبادىء الجليلة فى سورة الشورى الآية ٣٩ وما بعدها ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور .﴾ وفى هذه الآيات الكريمات يوضح الخالق جل جلاله مبادىء نفسية هامة . مبدأ مراعاة الكظم لمن يملكون أنفسهم فأمرهم بالصبر وغفران الإساءة . ولهم أجرهم عند ربهم . ومبدأ مراعاة الكبت عند الذين لا يملكون أنفسهم فصرح سبحانه وتعالى بالانتصار للنفس على ألا يظلموا الناس . وجزاء سيئة سيئة مثلها .

من أساس الذكريات المكبوتة يرى بعض علماء النفس النظرية المشهورة القائلة (بالعقل الباطن) والتى قامت على أساسها عملية العلاج النفسى بالتحليل . والبعض كذبها ، وفرض نظرية (الشعور واللاشعور) والمسمون بعلماء الأرواح كذبوا تكذيبا قاطعا الإجراءات النفسية ونسبوا كل شىء إلى الروح الكامنه

بالجسم . وإن علم النفس سفسطة لا تعنى ولا تثمر من جوع . والأطباء الجثمانيون عللوا كل شيء تعليلا ماديا . وفى هذه الحيرة بين هؤلاء وهؤلاء يضع القرآن الكريم شفاء لما فى الصدور . حيال (العقل والنفس) وكثيرا ما يعبر عنهما القرآن الكريم بالقلب . كما سبق أن شرحت ذلك . وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ سورة الاسراء آية : ٨٢ وعلى ضوء هذا البيان الشافى سنناقش أراءهم فى العقل والنفس كما سبق نقاش أراء علماء الأرواح وبيان بطلانها . بل وزندقتها الفظيعة . والله المستعان .

* * *

الفصـــل الثالث

مملكـــة العقـــل

- ماهية العقل ، القلب ، وجنوده .
- الذات العليا ، والعلوم التى تحتاج اليها

اختلف الباحثون فى تحديد ماهية العقل :

ولكنهم اتفقوا على أنه القبس النورانى التى أضاءته الروح ليحكم المملكة الجثمانية وما يتابعها من النفس . وإن كانت النفس (هى الوزير الأول) المسئول أمام العقل . وسأوضح ذلك فيما بعد بمشيئة الله .

أما المعانى التى دارت أبحاثهم حيالها . فهى أربعة معانى :-

الأول . الوصف الذى يفارق الإنسان فيه سائر المخلوقات الآخرى (غير المكلفة) وبه استعد لقبول العلوم النظرية . والعملية والفكرية . التى ترقى بالإنسان فى حياته الدنيوية وبه أيضا فرّ إلى الله وأطاعه ليحيا حياة الأبدية فى جنة الخلد .

إنه النور الذى يقذف فى القلب (المعنوى لا الصنوبرى) به يستعد الإنسان لإدراك الأشياء . ولم ينصف هذا الوصف (النورانى) من اعتبر العقل غريزة حيوانية . وأن العلوم عدة تجارب وعادات وتقاليد تسير الإنسان بحكم الغريزة . والقائلون بهذا لم يفرقوا بين عقل الإنسان . وعقل الحيوان . ولو سلمنا لما يقولون فيجيب أن نعرف أن الإنسان مسئول ومحاسب فلابد ، أن يخلق له فى عقله علوما ليست فى البهائم ولا الطيور ولا الحشرات فقد وجدنا فى القرآن الكريم مناقشة حادة بين نبى الله سليمان (الذى وصفه الله تعالى بالفهم) وبين (الطاووس) وانتصر الطاووس فى حجته ودفاعه عن نفسه ، فاقرأ قوله تعالى ﴿ وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن سبيل فهم لا يهتدون ألاّ يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ ســورة النمـــل ٢٤ وما بعدها . فالذى فعله الهدهد من إقامة الحجة على سبب غيابه . وإقامة الحجة على المنحرفين فى مملكة سبأ . واقتناع سليمان عليه السلام . لما يدل دلالة قوية على أن الهدهد . كان علاّمة ومحاميا عظيما عن نفسه ومدعيا عاما

عند اتهامه الملكة بلقيس وقومها . وواعظا عندما نعى عليهم عدم عبادتهم لله . لم يداهن أو ينافق أو يتفلسف مثل دعاة الوثنية ولم يتصوف فيبرر الخطأ .

إن الهدهد . قال ذلك بسليقة الخير المطبوع عليها . وعقله يقضى بها . أما العقل التكليفى فلم يعط لأحد غير آدم وذريته . وكما أن فى الحيوانات من يهديها عقلها الغريزى إلى الخير مطلقا . ففيها من يهديها عقلها إلى الشر دائما كالحيات والعقارب . التى جاء الأمر فى أحاديث نبوية بقتلها . ومن مناقشة النملة لسليمان عليه السلام نرى الحكمة والسداد فى الرأى ﴿ يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ ومن الخطأ التسوية فى (ماهية عقل الإنسان وعقل الحيوان . أو القول بأن الأول تتطور من الثانى بحكم التجارب والاجتماع . فكما أن هناك فروقا بين الجماد والحيوان فكذلك هناك فروقا بين الحيوان والإنسان . ولا يعجبنى هؤلاء المناطقة الذين يتشدقون قائلين (الإنسان حيوان ناطق) هل معنى ذلك . أن الأخرس الذى لا يتكلم حيوان سيفنى يوم القيامة مع الحيوانات التى يقول الله لها كونى ترابا ؟! .

الثانى . قد يعبر عن العقل (بسبيل المجاز اللغوى) باعتبار المحلية . إنه العلوم التى تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يوصف بالعقل ومن لم يتصف بهذه الصفة يقال عنه (غبى) غمر جاهل .

الثالث . البديهة التى تخلق فى الآدمى وتظهر حتى فى الطفل الصغير المميز بإدراك الليل من النهار . وتمييز الأب من الأم . ثم تنمو فيه فيعرف استحالة المستحيلات وجواز الجائزات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد . وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى آن واحد (١) .

الرابع . إنه الطاقة التى تتحكم فى المملكة البدنية (نفسا وجسما) ولا تترك بغيرها من غرائز النفس إدارة هذا الكون الذى قال فيه الشاعر .

تحسب أنك جرم صغير وفيك العالم الأكبر

---

(١) يقول الزنادقة إن الإنسان يكون له عدة أمكنه فى وقت واحد يظهر فيها جميعا راجع طبقات الشعرانى .

فهو يعرف عواقب الأمور ويقف للنفس بالمرصاد فيقمع شهوتها العاجلة الداعية إلى الفجور وهى تظن أن ذلك سعادة لها . وهو يقيس بمقياس الحق ولا يجامل . ويضع دستور حياة الإنسان ويحمله على احتمال هذا الدستور . فإذا حصلت هذه القوة فى الإنسان تعين أن يوصف بالعقل . لقد نفى الله (العلم) عن كثير من عباده لأنهم قصروا عقولهم على التفكير العاجل فى الدنيا العاجلة ولم يعلموا أن بعدها حياة أبدية فقال فى سورة الروم آية ٦ ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون ﴾ . إن فى هؤلاء القبس الإلهى النورانى لابد أنه أوعز إليهم باستمرار التفكير فى المصير . ولكن غلبة (الغريزة النفسية) . التى تريد اللذة العاجلة جعلتهم يهيمون فى أودية من التفكير ظنوا أنها الحق المبين وزين لهم الشيطان أعمالهم ورانت الدنيا على قلوبهم فقال شاعرهم :

إنما الدنيا نساء وطعام ومدام إن فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

ويمكن الاستفادة من هذا التعاريف السابقة جميعها . فالعقل النور الربانى الموهوب للبشرية فى حاجة إلى التزود بالمعارف . فمن جعل العقل هذه المعارف لم يخرج عن الموضوع ومن جعله خاضعا للتجارب فهو محق . فالكل يدور حول مهمة هذه اللطيفة الربانية التى خلقها الله وأمر الإنسان بالتعليم ليزيدها قوة . ﴿ إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ سورة النحل ٧٨ .

ومما يعزى إلى الإمام على كرم الله وجهه .

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والمراد بالعقل (النورانى الأول) . وهناك حديث رواه الترمذى الحكيم [١] فى النوادر بسند ضعيف . قوله ﷺ (ما خلق الله عز وجل أكرم عليه من العقل) أما

---

(١) يلاحظ ان الحكيم الترمذى غير الترمذى صاحب السنن فالأول صوفى خرافى كبير .

العقل المسموع أى (المكتسب) فهو المراد يقول الرسول ﷺ (إذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك) ضعيف رواه أبو نعيم فى الحلية والحديث ازدد عقلا تزدد من ربك قربا . رواه الحكيم الترمذى فى النوادر . وسأل أبو الدرداء الرسول ﷺ فقال بأبى أنت وأمى وكيف لى بذلك . فقال اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائضه سبحانه وتعالى تكن عاقلا واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل فى آجل العقبى من ربك عز وجل القرب والعز . ويروى عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه أن عمر رضى الله عنه وأبى ابن كعب . وأبا هريرة دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس قال العاقل ، فمن أعبد الناس العاقل ، قالوا فمن أفضل الناس قال العاقل ، قالوا أليس العاقل من تمت مروءته ، وظهرت فصاحته وجادت كفه ، وعظمت منزلته ، فقال عليه الصلاة والسلام إن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين . وفى حديث آخر إنما العاقل من آمن بالله وصدق وعمل بطاعته . وآمن برسله وعمل بطاعته . وأصل العقل . هو ما وضحته من حيث (القبس النورانى) وهذا لا يمنع من إطلاقه على العلوم من حيث أنها ثمرة كما يعرف الشىء بثمرته . والأقسام الأربعة لابد لها فى (العقلانيات) ويشبه (الغزالى صاحب إحياء علوم الدين هذه التقسيمات الأربعة فى ص٧٧ جـ١ ما موجزه . إن العقل فى الإنسان كالبئر فى الأرض فإنها تظهر بحفر الأرض ويجتمع ويتميز بالحس . ويقول الله سبحانه وتعالى فى الفطرة المركوزة فى الآدميين . وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم . ألست بربكم قالوا بلى) فالمراد إقرار الفطرة لا إقرار اللسان . ومن ذلك أيضا إقرار الربوبية فى نفوس العباد . وإن كانوا فى الألوهية يذهبون مذاهب شتى . والألوهية هنا المقصود بها تأليه غير الله بسؤاله واعتقاد الضرر والنفع أو مشاركته لله سبحانه وتعالى . ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ أى أن كل آدمى مفطور على حقائق عقلية مركوزة فى نفسه . تحت هيمنة العقل . ولكن لما ترك العقل مهمته وانقاد إلى النفس وجوامحها ضاعت منه الفرصة الغالية فرصة (الحكم والسيطرة) فمثل العقل فى هذه الحالة كمثل (الملك) فى مملكة أسرته غانية من الغوانى ليست مداركها مثل مداركه ولكنها غلبت عليه ، بما فيه من إنصياع للشهوة وحب الجنس . ولذا كانت الدعوى إلى الله

مبنية على إعادة التذكر بالفطرة التى فطر الله الناس عليها . ففى القرآن الكريم كثير من الآيات التى توحى إلى التذكر مثل قوله تعالى ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ وقوله ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾ وقوله تعالى ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به ﴾ هو الميثاق الذى أخذ على الإنسان بالفطرة . فعرف من جميع جوارحه أن له ربا خالقا . فأرسل الله الرسل للناس ، لاعتبار أنه هو وحده المهيمن على خلقه والأحق بالإتجاه إليه من غيره . وهذا هو مقام (الألوهية) الذى ضل فيه كثير من الأمم (١) .

والتذكر . من ناحية علم النفس الشعورى . تصور شىء كان حاضرا وغاب من مدة . والتذكر المقصود بالفطرة تصور شىء لابد منه يعتقده الإنسان اعتقادا جازما كعقيدة (الربوبية) فإن قيل بأن بعض الشيوعيين والوجوديين ينكرونها فنقول إنهم حين ينكرون هذه الفطرة فإنما يغالبون ما فى نفوسهم من إحساس بها كما يقال فى المثل (ما لجرح بميت إيلام) وهم فى الوقت ذاته يعترفون بربوبية الزمن أو بربوبية (حوادث الزمن) وأنها الخالقة والرازقة ، إنه خلل فى بصيرتهم لابد من علاجه وصدق الله سبحانه وتعالى إذ يقول ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وقوله ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة قوية فلن ينال من الدين إلا قشوره .

وعلم النفس الحديث يقسم العقل إلى قسمين (باطن وظاهر) وسبق تعريفهما بما فيه الكفاية ، ولكن رائد علم النفس الحديث (فرويد) يطلع علينا بتقسيم جديد كما يدعى . وقد سبقه القرآن الكريم بهذا التقسيم وما أظن (فرويد) إلاّ ناقلا ليس إلا . تقسيم فرويد للجهاز النفسى إلى أجهزة فرعية بالنسبة لإتصاله بالعقل .

قسم فرويد الجهاز النفسى إلى ثلاثة أجزاء كل منها يختلف عما عداه اختلافا جوهريا من حيث طبيعة العناصر التى يتكون منها .

(١) لذا من أكبر الكبائر ، أو الخروج عن مقتضى التوحيد ، التوسل بالأشخاص عند طلب الدعاء من الله ، ولزيادة الحقيقة هذه ، فإن أدعية القرآن الكريم كلها أثبتت أن الأنبياء اتجهوا إلى الله مباشـرة ، وأنه سبحانه وتعالى طلب منا ذلك فى قوله ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى ﴾ فلا وساطة للرسول ﷺ ولا غيره .

الأول . يمثل الجانب الشهوانى أو الحيوانى من الطبيعة البشرية . والثانى . يمثل الجانب العلمى أو الدينيوى . والثالث . يمثل الجانب الروحانى (أى العقلى) . وعلى هذا الأساس الثلاثى تقوم الدراسة العقلية والنفسية . وتبنى الأساليب الحديثة للعلاج النفسى وقد رمز فرويد للجهاز الشهوانى Id معناها هى أو ضمير الغائب المفرد لغير العاقل كما تقضى بذلك اللغة اللاتينية . وهذا القسم يضم الغرائز والنزعات الآلية التى كانت فى الإنسان غير المتحضر فى حياته الهمجية فهو يشمل الميل الفطرى إلى الاعتداء وحب المقاتلة وسفك الدماء والقسوة والتعذيب والأخذ بالثأر . والميول الجنسية المحرمة والميول الفطرية الشاذة ، التى ورثناها عن الإنسان الأول وكبتها الإنسان فى نفسه بحكم الدين أو كبتها فى نفسه الداخلة بحكم التقاليد والنظم العامة والقوانين . ولكنها مع ذلك لم تمت فى النفوس . بل تظهر مقنعة أو صريحة إذا تهيأت لها الظروف . فالإفراط فى استعمال القسوة والحروب المدمرة بالآلات الفتاكة التى تقوم بين أبناء البشر ، ويقتل فيها الملايين من بنى الإنسان بأيدى تصفق افتخارا بما تقدم ، إنها مظهر صريح من مظاهر التنفيس عن غريزة القتل المكنونة فى قرارة النفس البشرية .. وكذلك قسوة الأمم بعضها على بعض وحب تعذيب الغير . أو حرقه . أو سمل عينيه كلها نزعات اعتدائية ، مكبوتة فى النفس البشرية ويضم هذا القسم أيضا المشتهيات الجنسية على اختلاف مظاهرها وعلى الأخص منها ما كان محرما بحكم التقاليد والنظم الاجتماعية والتعاليم الدينية . مثل الميل إلى المحارم . وقد وجدت هذه النزعات مكبوتة ، فى النفوس البشرية . أو مكظومة فى النفوس المتدينه الواعية .

أما القسم الثانى . من الجهاز النفسى فقد أطلق عليه فرويد Ego وهى كلمة لا تبينية معناها (أنا) . وهذا القسم يمثل الجانب العملى من الحياة النفسية فهو يكاد يكون صورة منعكسة للحياة الخارجية المنبعثة من المجتمع ، عالم الحقيقة وما نسميه اصطلاحا بالعقل أو المنطق .

وكما أن النفس الشهوانية قوامها الغرائز والنزعات الخبيثة فإن ، (الأنا) قوامها الصور الحسية . فهى المظهر المجسد من حياتنا العقلية . ومن خصائص (الأنا) كبح جماح النفس الغريزية . وعنها يصدر الكبت نم. وعن طريقها يتم تصعيد ، النزعات والشهوات الغريزية ورفعها من حضيض الشهوة إلى مستوى

الفضيلة العقلية . ومن خصائص هذه النفس أيضا أنها تجاهد فى سبيل الآداب العامة وتفرض رقابتها على ال (هى . Ed) فهى محطة استقبال (للعقل) الآمر بالخير والناهى عن المنكر فهى تراقبها حتى أثناء النوم . وهذه النفس (الأنا) تواجه فى حياتها العملية ثلاث جبهات . النفس ذات الشهوة . والنفس العلوية (الضمير) والبيئة الخارجية . فهى واقعة تحت ضغوط شديدة ضغط الشهوة . ضغط الضمير . وضغط البيئة الخارجية . فهى فى جهاد مستمر بين هذه النزعات فتقوم بدور الوسيط بينهن وتصلح ما بينهن بقدر الإمكان وتقرب شقة الخلاف . فتعمل من جهة إلى إخضاع رغبات النفس لمقتضيات البيئة ، وإخضاع البيئة إلى حد ما لنزعات النفس فخليق بها أن تسمى النفس المجاهدة ويشبه فرويد هذه النفس بالفارس وبقية الأقسام الآخرى بالجواد الجموح الذى يخضع لصاحبه إذا كان متمكنا منه ويجمح به إذا ما اعتراه وهن . وفى هذه الحالة تصبح (الأنا) مسخرة لتحقيق أغراض النفس الدنيئة ونزواتها . ومثال هذه النفس كما جاء فى القرآن الكريم . النفس اللوامة (المجاهدة) والنفس الشهوانية (الأمارة بالسوء) ومن أمثلة العرب فى ذلك قولهم فلان (قوى الشكيمة) أعنى قادر على حكم نفسه . والشكيمة هى لجام الفرس . والقسم الثالث من الجهاز النفسى يطلق عليه Super Ego « أنا العلوية » وهو ينطبق على ما نسميه (بالضمير) وهو يتألف من قسمين من العناصر الروحية (المعنوية) .

(١) القسم الموروث عن المدنيات السابقة التى هى وليدة التقاليد الاجتماعية والآداب العامة والأخلاق والعادات القومية وللتعليم الدينى .

(٢) الروح المعنوية المكتسبة من الوالدين فى مراحل الحياة ، باعتبارها المثل الأعلى فى نظر الطفل أو ممن يمثل الوالدين فى مراحل الحياة كالمربين وغيرهم .

فالضمير يمثل أهم حوادث التطور العقلى الخاص بالجنس البشرى بصفة عامة كما يمثل التطور العقلى الخاص بالفرد بصفة خاصة .

والأنا العلوية . تحمل بين طياتها العناصر التى تكونت منها وكانت السبب فى نشوئها فهى (تمثل الجانب الأدبى الأسمى والمظهر الروحانى من الطبيعة البشرية . وتنطوى على المبادىء السامية .

ومن خصائص الأنا العليا . إنها لا شعورية . وإنها مستقلة عن الأنا أو النفس الحسية إنها النور المهدى إلى الإنسان ليعيش على قبسه ، ويجاهد بواسطته ظلام (النفس الغريزية . ويخرجها من ظلمات الحيوانية إلى درجة الملائكة النورانية ومنها تستمد (الأنا) القوة اللازمة للكبت وتلتمس المعونة لكبح جماح النفس وصد تيار نزعاتها المتدفق ومن أقوى مظاهر (الأنا العليا) إنها تلوم (الأنا) إذا انحرفت وخضعت (للنفس الغريزية) . ولبت رغباتها المهلكة . وهى دائمة متحركة فى هذا الإتجاه إلا إذا فسدت ومرضت وسيطرت عليها (النفس الغريزية) لدرجة محو فاعليتها وإهدار شخصيتها . والقرآن الكريم يشير إلى هذا فى قول الله تعالى فى سورة المطففين ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فقد تقوى النفس الغريزية ولا تستطيع (الأنا العليا) إقناع (الأنا) بفسادها . وتأتى النفس الغريزية بتبريرات تنافق بها (الأنا) فتقتنع . ولا تلوم . ويصبح التبرير أساسا للفساد . كما نبرر الفسق بأنه فن والوثنية بأنها تصوف . وكما أن فى أجزاء النفس هذا التبرير . فهو واضح جدا حذرنا الله من هذا الصنف الذى يبرر الخطيئة بالمصلحة يبرر الربا بأنه تعامل تجارى . والرقص بأنه رياضة . وتعانق الرجال بالنساء بأنه فن شعبى (فولكلور) ومثل هؤلاء المبررين يلبسون للناس لباس التقوى والفضيلة والفتوى . وقد أخبرنا الله عنهم وحذرنا منهم فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم - وعلى سبيل المثال الآيات الكريمة من سورة البقرة ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

مثل هؤلاء (فى الدرك الأسفل من النار) وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم من أن يستغفر لهم قال تعالى ﴿ استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ .

أنظر حولك . ستجد هذه الصفة تجتاح الناس على درجات . فهذا ينافق فى الدين وذلك فى السياسة . وكل منهما يأتى بتبرير قد يكون معقولا عند ذوى العقول الخفيفة سئل بعضهم لماذا لا تصلى . فأجاب .

لم يقل الله ويل للألى سكروا ‏ ‏ ‏ ‏ بـــل قـــال ويـــل للمصلـــين

إن النفاق تبرير من (النفس الغريزية) إلى النفس (الأنا) فى الإنسان . وفى ذلك يذهب صوت (الضمير . أو النفس العليا أدراج الرياح) وربما آمنت هى الأخرى بما فى النفاق (. التبرير) من الخداع . وذهب منها الشعاع التى ترسله لهداية النفس (الأنا) يقول علماء النفس المنصفون (من دأب (الأنا العليا) التحكم فى (الأنا) والسيطرة عنها إلى حد كبير . ولكن - وهذا رأيى الخاص- . قد تتسلط (النفس الغريزية) على . الأنا وعلى « العليا » . فتصبح هى السائـدة . وذلك هو ما استشفه من تفسير الآيات السابقة . فهؤلاء المبررون . قد اقتنعوا . وأصبح التبرير عقيدة . ومن الصعب خلع العقيدة من جذور النفس . كالعقائد الأرضية حول (الألوهية) آلاف العقائد كل متمسك بها (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) .

ويقول بعض علماء النفس : إنه من الواجب مراعاة سياسة النفس « العليا » منذ الصغر بالحلم والأناة وتدريبها برفق وحكمة دون مغالاة فى الاعتبارات الأدبية أو النواهى والروادع تفاديا لما قد ينشأ عن الأخذ بالشدة من الأخطار . وهذا قول أحد علماء النفس يسمى (أرنست جونس) ألا ترى إنه لم يخرج عن قول الرسول ﷺ (إن الدين قويم فأوغل فيه برفق . ولن يشاد الدين أحد الأ غلبه) . وكنا ونحن صغار فى "الكتاتيب" نفر فرارا من (الكتاب) ونخاف من " العريف " عندما يقسو علينا صفعا ولكما ، وفلقة يعلق أرجلنا بها . ويشتد فى الضرب . فيهرب منا من شاء له الهرب . ويفضل إن يشتغل فى الحقل من حفظه القرآن الكريم . إلاّ من صبره الله على هذا التعذيب وقليل ما هم .

إن أخذ (النفس العليا) بالشدة والعنف من أخطر النتائج .

ومن الحقائق النفسية : إن (الذات العليا) قوية المظهر فى دور الطفولة الأولى . لدرجة أنها ترى بعض الهنات الصغيرة جرما كبيرا . وفى الوقت ذاته فهى شديدة

التأثر بما ترى سريعة الاقتناع . اذكر فى طفولتى . وكان مدرس الدين من قريتى فى الريف . وكان يحذرنا أن نعصى أحدا من أبوينا ويقول احذر أن تقول لأبيك وأمك " أف " فتذهب إلى النار يوم القيامة . فكنا نخاف شديدا . ونتحمل ضرب الأمهات والأباء فينا وصفعهم ليلا ونهارا لأقل خطأ نفعله فى المنازل . ونتذكر أهوال جهنم وما سيصيبنا فيها لو أبدينا أى اعتراض على هذا الصفع واللكم والضرب . وفى يوم من الأيام . وجدنا هذا (المعلم) يتشاجر مع أبيه (الفلاح العجوز) ويهدد أباه . بأنه سيضربه . فذهبت كل المعلومات التى حطت فى أذهاننا من الخوف من جهنم . فهذا أستاذنا الأكبر . فى المدرسة سيضرب أباه وهو قدوتنا . لقد تغير سلوكنا فى المنازل بعد هذا الحادث " شهد الله " .

فلا تلوموا « الجيل الجديد » لوموا أنفسكم . إن الحياة الجديدة مبنية على سيادة النفس الغريزية . وتبرير هذه السيادة بعبارات جذابة . المدنية . الحضارة . التقدمية أمريكا . إنجلترا . فرنسا . ونسينا إننا أصحاب النور الذى يفرض علينا أن ننير به هذا العالم المظلم . إن كل صحيفة أو مجلة لا تنشر صور النساء العاريات ، أو الممثلات الفاتنات أو أى فيلم سينمائى أو رواية أو مسرحية . ليس فيها الأصوات الضعيفة النسائية . والقبلات المحمومة والأحضان . وغرف النوم . والعناق وما إليه مكتوب عليها الفشل . والجميع يبررون . ولا نجد من يقف موقف الصرامة لتأديب الدهماء والفساق فلا تلوموا الشباب . ولا تلوموا الجيل الجديد (الذى أصبح يعتبر تقبيل يد أمه وأبيه عارا فى الوقت الذى يرى أن تقبيل يد فتاة (لعوب) مدنية .

يجب أن نلاحظ فى تربية الأطفال (ذواتهم العليا) التى خلقت لتنير السبيل إلى حياة فاضلة فلا يستحوذ على عقله الناشىء هذه الظواهر (الغريزية الشهوانية) فيصبح رجلا عاجزا أشد الإرادة . تنتهكه الشهوات فلا يجد مفرا منها . كما أنهكت المكيفات الناس فأصبحت النصيحة عن الإقلاع عنها أسطورة . أنظر المكتوب على علب السجائر أنها ضارة بالصحة ، فلماذا تبيعونها إذن ؟ أليس ذلك فصلا من فصول الضحك على الذقون ؟! وما أكثرهم ما يضحك بعضنا على ذقون بعض ، أو على شواربهم أو على رءوسهم العارية من الشعر ، ضحك فى السياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد حتى فى علاج ومشكلات المساكن ، الذى أصبح خلو الرجل

فيها أكثر من خمسة آلاف جنيه ، إن لم يكن عشرة أو أكثر ، وترى وتسمع كل يوم تصريحات تلو تصريحات كلها داخلة فى قول الشاعر :

فلا يغرنك ما فنت وما وعدت   إن الأماني والأحلام تضلـــيل

حتى فى أتفه الأمور ينمو العجز الطبيعى عن مقاومة أى ضرر يصيب الإنسان ويقال لهذا من الناحية النفسية (إنه ضعيف الإرادة) ومن الإنصاف العلمى أن نقول إنه (ميت الإرادة) كافر بنفسه . وقد قال تعالى لمثل هؤلاء ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ .

إن من الخطر العظيم أن (تمرض الأنا العليا) فإذا مرضت أصبحت ألعوبة فى يد (النفس الغريزية) كما يصبح (المريض الواهى) ألعوبة فى أدى الممرضين والممرضات ممن لا خلق عندهم ولا ضمير . ولا يمكنه دفع شيء فعلوه له . وربما تألم بعض التألم . ولكنه يستسلم فهذا قدره ، فكذلك (الأنا العليا) قد تتألم بعض التألم . ولكنها تستسلم لحياتها الجديدة وهذا قدرها . أى أنه لا يمكن أن يسكت صوت الضمير فى الإنسان نهائيا . إنه قد يبدو كذبالة الضوء التى فى طريقها إلى الإطفاء النهائى . وربما استيقظت هذه الذبالة الضوئية استيقاظا هينا فنقول (لقد صحا الضمير) .

ويقوم العلماء والوعّاظ والمربون بعلاج هذا الشذوذ فى النفس . ويمكن أن يأتى العلاج بخير إن لم يتمكن المرض من الانحراف الذى جاوز الـ ٨٠٪ فهنا قد يصعب العلاج لا سيما إذا صاحب المرض النفسى تغيرات جسدية . وربما أصبح المريض شائكا فى المجتمع يضر غيره . فلابد من حجزه وراء أسوار المصحة وعلاجه كيمائيا وطبيعيا ونفسيا وليس التقسيم المتقدم بغريب عن أذهاننا فكثيرا ما نقول . فى التعبير عن مواقفنا من العمل . يقول الشخص (أمرتنى نفسى أن أفعل كذا والنفس أمارة بالسوء . والبعض يقول نهانى ضميرى عن فعل " كذا " .. فالإنسان يفرق بين ثلاثة مظاهر من النفس .

(١) قوله أمرتنى نفسى . يعرف أن هناك (ظاهرتين) أمر صادر من ناحية لها رغباتها ودوافعها ، ألا وهى النفس ذات (الشهوة) وناحية (مأمورة) النفس الشهوة الآمرة « الأنا » .

(٢) وقوله ولكن ضميرى نهائى . فصريح العبارة تدل على افتراض وجود ناحية ثالثة لها قوة الردع والزجر تقف لها (الأنا) موقف السامع الذى يقبل اللوم على فعل شائن يفكر فى العمل فيه ويسمع النصيحة فلربما ينتصح وينزجر . وهكذا تقوم (أنا العلوية) بمقام ، (القبس النورانى) المودع فى النفس . وهو المقصود بقول الرسول ما معناه إن فى النفس لمتين لمة للشيطان . وهى النفس الغريزية . فهى مهواه ومهبطه . ولمة الملك . وهى (الذات العليا) وشبه الشىء منجذب إليه ، والنفس (الأنا) بين هذا وذاك تسمع لهذا ولذاك . قد تنصاع للخير أو تنصاع للشر نهائيا أو تخلط بينهما .

وفى الصراع بين الأقسام الثلاثة . النفس الغريزية . النفس الاجتماعية الذات العليا . أو فى اصطلاح علماء النفس . (ال هى) (ال أنا) . (والأنا العليا) يقول البوصيرى فى تربية النفس .

فإن أمارتى بالسوء ما اتعظت من جهلها بنذير الشيب والهرم (١)
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ضيف ألم برأس غير محتشم (٢)
لو كنت أعلم أنى ما أوقره كتمت سرا بدا لى منه بالكتم
من لى برد جماح من غوايتها كما يرد جماح الخيل باللجم (٣)
فلا ترم بالمعاصى كسر شهواتها إن الطعام يقوى شهوة النهم (٤)
والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم (٥)
فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يصم أو يصم (٦)
وراعها وهى فى الأعمال ساعة وإن هى إستحلت المرعى فلا تسم (٧)
كم حسنت لذة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم فى الدسم (٨)
وأخش الدسائس من جوع ومن شبع فرب مخمصة شر من التخم (٩)
وإستفرغ الدمع من عين قد امتلأت من المحارم والزم حمية الندم (١٠)
وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم (١١)
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

بيان القلب وجنوده : –

هذا هو العنوان الذى ذكره الإمام الغزالى فى كتابه – احياء علوم الدين – . والمقصود بالقلب (الروح والعقل والنفس) فكلها الفاظ (تعطى) معنى هذا النور الربانى الذى وهبه الله للإنسان والذى سبق أن وضحته على ضوء علم النفس الحديث .

إن الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئا عبثا . ولكننا بتصرفنا الخطأ نعبث فتضيع الفائدة من الخير ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ونحن نقرر ﴿ أن القلب المعنوى ﴾ ملك النفس والجسم . كما أن (القلب الصنوبرى) ملك الجسم . والقلب المعنوى . يخضع له القلب الصنوبرى . أو كما يقول عالم النفس العربى القديم (الإمام الغزالى) إن للقلب جنودا لا يعرف حقيقتها إلا الله وإن له جندين جند يرى بالأبصار وجند لا يرى إلا بالبصائر . والقلب فى حكم الملك له الجنود والخدم والأعوان ، فأما جنده المشاهد بالعين . فهى الأعضاء الفسيولوجية الظاهرة والباطنة والتى يبحث عنها الطبيب فى أعضاء الجسم ، فإن جميعها خاضعة للقلب مسخرة له مجبولة على طاعته لا تستطيع عليه

= (١) تقصد أن النفس الغريزية ، لم تترك غرائزها ، ولم تتعظ بمرور الزمن حتى علاه الشيب والهرم .

(٢) يقصد أنه لم يعد للشيب ، واجب الضيافة الجميل .

(٣) يتمنى أن يوقف تيار غواية النفس الجامحة ، كما يوقف هياج الخيل باللجام .

(٤) أن المعاصى وإن حسبها بعض الناس تطفىء الشهوة تزيدها كالطعام كلما زاد كلما طغامهم المفاهم ، وإزدادت شهيته إليه .

(٥) هنا يقرر مبدأ تربويا هاما ، إذا أردت صلاح النفس فافطمها كما نفطم الطفل عن الرضاع ، ولا تبرر الرجوع إلى إجابة طلبها ، كالتى تجيب طلب الطفل الثدى ، بعد فطامه ، فينخل العظام ، ويعود الطفل إلى الوراء ، بدلا من التقدم إلى الرجولة .

(٦) إبعد هوى النفس ، ولا تصادقه ، فإنه يصمك عن سماع الخير أو يصفك بالخيبة .

(٧) عليك أن تكون حافظا لنفسك كراعى الغنم ، لا تتركها تستحل المرعى وامنعها من أن ترعى .

(٨) قد تدعوك إلى اللذة ، من حيث لاتدرى ، أن فيها هلكتك وصدق الشاعر ،

والطير يسوقه الموت   أصفاؤه لحنين الصوت .

(٩) كما فى الجوع كذا فى الشبع ضرر ، فأضرر ذلك .

(١٠) لابد من الندم ، والبكاء على الذنوب ، أو التباكى ، واصطحاب التوبة .

(١١) احذر ، هوى النفس ، والشيطان ، حتى وإن اقتنعت بشورتهما إنها صالحة لك ، إنهما عدواك ، اللدودان ، مكيدانك ، حتى قبل إذا انتابك أمر ، ووجدت نفسك متميل إليه ، وعقلك لا يميل إليه ، فاجتنبه ، وإذا كان عقلك يميل إليه ، ونفسك لا تميل إليه فخذ به ، فالعقل القبسى الإلهى ، الذى ينير لك منهج الحياة قد تجذبك نفسك إلى الهوى ، ويجذبك عقلك إلى المسجد ، فخذ بزمام النفس تحت قيادة العقل ، ...

تمرداً ولا خوفاً ، فهو الذى يأمر العين والأنف والأذن واللسان والجوارح وكذا سائر الأعضاء والحواس .

وإنما افتقر القلب لهذا لأجل أن يقوم بمهمته فى إدراك نمو السعادة فى الدنيا . ثم الاستعداد لسعادة الآخرة الأبدية (يقول الغزالى) إن تسخير الجسم والنفس للقلب يشبه تسخير الملائكة لله سبحانه وتعالى ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ وإنما يفترقان فى شىء إن الملائكة عالمة بما تفعل . والجسم والأعضاء على سبيل التسخير ، وافتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذى لأجله خلق ، وهو السفر إلى الله سبحانه وتعالى وقطع المنازل إلى لقائه فلأجله خلقت القلوب قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ . والأعضاء مركب القلب . والعلم زاده ، والعمل الصالح هو أسلوب يوصل إلى الزاد ، والوصول إلى الله يستلزم وجود هذه الدنيا والابتلاء فيها فهى مزرعة الآخرة . والمزرعة ستتفاوت درجاتها . حسب سلوك القلب فى هذه الدنيا ولابد للدنيا من مقومات حياتها وأول هذه المقومات حفظ البدن ، فافتقر القلب إلى حفظه بأن يجلب له ما يوافقه من الغذاء ، وإن يدفع عنه ما يهلكه ولذلك افتقر إلى (الشهية) للطعام . والشهوة لبقاء الجنس ، والأعضاء آلات لهذا كله . وافتقر أيضا إلى الغضب لدفع المهلكات والانتقام من الأعداء الذين يريدون القضاء عليه ، [illegible] فى كل عضو ظاهر أو باطن لابد له من حكمة إن خفيت على الرجل العادى [illegible] خفيت على الطبيب أحيانا طويلة من الزمان ، فلابد [illegible] عبثا والله يقول فى كتابه العزيز ﴿ [illegible] الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وجنود [illegible]

[illegible] إلى جلب النافع الموافقة للبدن كالشهوة ، وإما إلى دفع الضار المنافر كالغضب . وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة .

(٢) صنف خارج هذه الأعضاء . أو ما نسميه ، قدرتها أو طاقتها ، وهى الجنود المبثوثة فى الأعضاء لا سيما فى سائر العضلات .

(٣) الصنف الثالث وهو المدرك . والمتعرف للأشياء كأنه يقوم بمهمة (الجواسيس فى المملكة الإنسانية وهو قوة البصر ، والشم والذوق واللمس والسمع وهى مبثوثة فى أعضاء معينة ، ويعبر عن مهمة هذا الصنف (بالعلم والإدراك) ...

هذا هو موجز ما رآه الغزالى فى كتاب (جنود القلب) . وله فى ذلك فلسفة طويلة ضربت صفحا عنها فلن تزيد فى موضوعنا بشىء جديد ...

الذات العليا والعلوم التى تحتاج إليها : -

لقد قدمت الحديث على إن الذات العليا فى حاجة إلى علوم . وأنها وإن كانت عاقلة بالفطرة فلن يعفيها هذا عن التعليم . وقد طلب الله سبحانه وتعالى من رسول الله ﷺ أن يدعوه بقوله ﴿ وقل ربى زدنى علما ﴾ .

فما هى العلوم التى لابد لها لهذه الذات العليا ، لتقطع مراحل هذه الحياة إلى أوج السعادة . إلى النعمة الكبرى عندما تقابل النفس وبها فيقول لها سبحانه ﴿ يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ يوم ينطبق على النفوس الطيبة وأجسادها قول الله تعالى ﴿ إن الذى سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ (١٠٣ سورة الأنبياء) .

والقلب بغريزته مستعد لقبول العلوم ، سواء أكانت دنيوية أو أخروية . فطرية أو مكتسبة . هذا بجانب ما فطر عليه من غريزته بأن الواحد غير الإثنين . وأن الرجل لا يكون فى مكانين فى آن واحد . والشىء لا يكون حادثا وفى الوقت ذاته قديما . وأن الشخص لا يكون حيا وهو فى الوقت ذاته ميتا . هذه هى البدهيات التى يسلم بها العقل بدون تعلم (١) والعقل من دأبه أن يقتنص العلوم . ويتوق إليها ويلذ

---

(١) الصوفية والباطنية ، والقرامطة لهم رأى آخر ، إن الموتى أحياء فى قبورهم يستقبل بعضهم بعضا ويعرفون ما نحن عليه ، ويسلمون علينا ، لذلك أقاموا الأضرحة كالتى أقامها قدماء المصريين ، ولا فرق عندهم بين الموت والحياة ، أنا لا أنكر نعيم القبر ، ولا عذابه ، ولكنى أرى هذا من علم الغيب الذى لا نعرفه ، ونتركه إلى الخالق جل وعلا ولكنى أعرف معنى قول الله تعالى لرسوله ﴿ فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ وقول عيسى عليه السلام (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفينى كنت أنت الرقيب عليهم) فلا تعجب على تشييد هذه الأضرحة وكسوتها بالخزرج والديباج وإضاءتها ليلا والاحتفال بها ومناجاة من فيها عن قرب أو بعد ، أو بعد كما ينادى الناس السيد البدوى « فى أسوان » « وهو فى طنطا » .

بالاطلاع على المعارف وفيه فضيلة (حب الاستطلاع) وفى القلب إدراك يعــرف (بالبصيرة) وهى غير البصر ولعل المقصود بقوله تعالى ﴿ ما كذب الفؤاد مــا رأى ﴾ هو البصيرة وكذلك قول الله تعالى فى شأن إبراهيم عليه السلام ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ . ما أريد به الرؤية البصيرية إنما والله أعلم أريد به الرؤية البصيرية ، وبعض الناس عمى البصيرة ، كما أن بعضهم عمى البصر كما قال تعالى ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وقوله : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ هذا فى بيان (العلوم العقلية) التى تقذف فى القلب ، أما العلوم الدينيــة . ، فهى المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وذلك يحصل بتعلم الكتاب والسنة وفقه معانيها ، وتوظيف النفس على تأديتها .

والعلوم قاطبة منها المفيد ومنها المضر . والعقل فى حاجة إليهما . فالمفيد بأخذ بما فيه من فائدة ، والمضر يبعد عن ضرره كما يقول الشاعر : -

عرفت الشــر لا للشــر ولكن لتــــوقيه   ومن لم يعرف الشر من الناس يقع فيه

وقد ترى الأكياس فى طلب الدنيا ، جهالا فى أمور الآخرة . والأكياس فى علوم الآخرة جهالا فى أمور الدنيا . وما أحسن أن يجمع العقل بين هذا وذاك . فلابد من العلم . ومن لم يزد فى يومه علما ازداد بعدا عن الله ...

* * *

الفصـــل الــرابــع

الضعف العقلى

- علاماته وأسبابه . وهل يمكن علاجه ؟
- ضعاف العقول قديما ، وفى عصور التاريخ الوسطى .
- المميزات الخاصة بهم .
- أقسام الضعف العقلى .
- المعتوهون ، البلهاء ، المأفونون ، ذوو النزعات الإجرامية .
- العلامات الفسيولوجية لضعاف العقول .
  - حالات ضمور الجمجمة ، حالات كبر الجمجمة ، القزامة .
  - حالات (النوع المغولى) ، أنواع إكلينيكية أخرى .
- أسباب الضعف العقلى .
- واجباتنا نحو ضعاف العقول .

أولاً : التشخيص الاكلينيكى المبكر .

ثانياً : الوضع تحت الإشراف .

ثالثاً : العلاج الطبى .

معنى الضعف العقلى :

ناقشنا سابقا حاجة العقل إلى المعارف ولكنا نجد بعض العقول مقفولة لدرجة 'أننا نكرر عليها المعلومات فلا تعى شيئا . وكثيرا ما يعمد بعض المربين إلى القسوة الشديدة على مثل هؤلاء ويطلقون عليهم لقب الأغبياء ويوسعونهم لكما وضربا ظانين أنهم بذلك الأسلوب سينقحون عقولهم المقفولة . وهم مظلومون لا حيلة لهم فيما يلقى إليهم . فلا يقدرون على استيعاب الدرس والعلوم . فما مشكلة هؤلاء؟!

كثيرا ما نفاجأ بهذه الحالات . نفاجأ برؤية طفل فى العاشرة لا يكاد يندمج مع أطفال فرقته ، فى فهم الأعداد الحسابية أو القراءة العربية ، رغم الاهتمام الشديد به وربما يصعب فى هذه السن تعليمه الحروف الأبجدية التى يكون زملاؤه قد جاوزوها إلى تشبيك الحروف . ويعرض هذا الطفل على الأطباء فيفحصونه ويقررون أنه ليس لديه أى مرض جسمانى أو نقص فى أجهزة الإدراك . فما مشكلة هذا الطفل واضرابه من الأطفال مثله ؟!

إنه ضعيف العقل فطريا . ويعرف هذا الضعف من الناحية التكوينية (بأنه حالة عدم اكتمال النمو العقلى بدرجة تجعل الشخص غير قادر على ملائمة البيئة والذين من سنه الزمنى . ويختلف هذا الضعف فى درجات ربما تنحط الدرجة إلى أن تكون فى حاجة دائمة إلى من يكون ملازما له كظله من بدء حياته الأولى ..

إن هؤلاء نشأوا نشأة فطرية بهذا الضعف . لأسباب . ربما تكون وراثية أو غير ذلك . ولا حيلة فى هذه النشأة التى من شأنها اعتبار هذا المولود فى حاجة دائمة إلى الرعاية ربما تستمر طيلة حياته أو أكثرها أو أقلها على حسب درجة الضعف .

ومن الخطأ الكبير أن نطلق عليهم وصف الجنون (فالجنون شىء آخر) ولا تجد إنسانا يولد مجنونا . فإنما هى عوامل مرضية تؤثر فى إدراكه فيوصف بهذا الوصف .

أما (ضعف العقل) كضعف أى جهاز من أجهزة الجسم . ولد المولود هكذا لا حيلة فيه . كمن يولد أعمى أو أصم أو الثغ .. إلخ

ومن المستحيل شفاؤهم ولكن يمكن تقديم المساعدة لهم عن طرﷺيق وسائل التمرين والتربية المناسبة ، ويجب التفريق بين الحالات الآتية ..

(١) بين حالة الاضمحلال العقلى فهى الحالة التى تعترى العقل فى مرحلة من مراحل حياته بعد أن كان فى حالة عادية (وأعنى به المرض العقلى) أو المرض النفسى [١] .

(٢) حالة القصور العقلى أو الضعف العقلى وهو الحالات التى لا يتم فيها النمو العقلى . ويكون هذا البطء ملازما للطفل منذ ولادته ومن الصعب أن يتحسـن .

(٣) حالة ثالثة رأيتها كثيرا فى المترددين على طلب الاستشارة . مسألة التأخر فى الفهم أو الحفظ أو الإدراك مما يترتب عليه متاعب جمة للمصابين . ومما يسمى عادة لدى علماء التربية (بالتأخر الدراسى) .

ومن المعروف أن الناس لم يخلقوا متساويين جسميا ولا نفسيا ولا عقليا ، فكما أن هناك فروقا من حيث الشكل والطول والقوة ، والتكوين العضلى والأمزجة والميول . واللون وما إلى ذلك . فكذلك هناك اختلافات فردية فى الذكاء والقوى الحافظة . والبديهة والفهم والشعور ، فهناك العاديون وأغلب الناس على ذلك ، هناك من هم أقوى من العاديين . ممن نطلق عليهم عباقرة ، وهناك أقل ممن العاديين بدرجات متفاوتة متنازلة إلى درجة (العته الكلى) .

هناك فرق بين (الشخص العادى) والشخص الموهوب . الذى نطلق عليه أحيانا (الذكى) والشخص العبقرى . الذى نعترف بقدرته العقلية القوية والفروق هذه كلها فى الدرجة لا فى النوع .

وهناك أسس يمكن تحديد كل نوع من هذه الأنواع ومعرفته . للاستفادة من أصحاب المواهب . والعناية بأصحاب الاضمحلال . فالأول يفيدون المجتمع الإنسانى بما وهبهم الله من قدرة على الإبداع والخلق ، والثانيون على المجتمع أن يوفر لهم العناية الكاملة ، والبحوث العلمية الحديثة ساعدت على إيجاد إختبارات (عقلية) لقياس (القدرات العقلية) الذكاء يمكن بواسطتها تقدير طبقة الذكاء التى ينتمى إليها الفرد .

---

(١) المرض العقلى ، لا يعى فيه المريض نفسه ، والمرض النفسى يعى فيه نفسه والرأى الأخيرإنهما واحد ، والفرق فى درجة المرض ...

وليس معنى كراهية (التلميذ) لبعض العلوم رغم نجاحه فى المواد الأخرى يجعلنا نضعه فى درجة الغباء . فلقد رأينا كثيرا من كبار عباقرة الاكتشاف . مثل " اديسون " . وماركونى . وأمبير . وفولت ، ربما طردوا من المدارس لغبائهم فى التحصيل الدراسى . ولكنهم نجحوا نجاحا باهرا فى اكتشاف غالب ما ننعم به فى حياتنا الحالية من الإذاعة والكهرباء والمكتشفات الأخيرة التى نفاجأ بها كل يوم . كانوا هم روادها الأول .

ضعاف العقول قديما : -

قد كانت النظرة القديمة لدى الإغريق واليونان والرومان تعتبر إن ضعاف العقول لا يستحقون الحياة (حتى إن أهل إسبارطة) كانوا يلقونهم فى الماء ليغرقوا وفى الجهات الأخرى لا يعتنى بهم ويتركون حتى يموتوا جوعا . ولا تزال هذه الفكرة موجودة فإن بعض الدول تهتم بالأصلح . وتقول البقاء للأصلح . فتعدم الضعاف وكبار السن وترى إنهما عالة على المجتمع . وإن لم يكن الإعدام حقيقة من الناحية الملموسة فهو إعدام أشد نكاية . إعدام أدبى . ترى ذلك فى عدم العناية بهم . وعدم تقدير ما قدموه للمجتمع فى شبابهم أو حال صحتهم ، أو تتنكر لهم [١] .

وفى عصور التاريخ الوسطى . كان النظر إليهم مختلفا كل الاختلاف عن الماضى، فقد اعتبروا إنهم على صلة بالله سبحانه وتعالى . ولا زالت هذه النظرة موجودة للآن فيما يسمونهم البهاليل أو بالمجاذيب أو الدراويش . كأن الله لا يختار المتصلين به إلاّ من البلهاء والعبطاء . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ولم تكن هذه النظرة فى الشرق فحسب بل رأينا (شاكسبير) يقرر هذه الحقيقة فى رواياته الملك (لير) موالساحرات الثلاثة . وهاملت . ويشيد على لسان الملوك بهذه الطبقة المتألهة . ويجعل فى قصور الأمراء والسادة هؤلاء (الضعاف العقول) مستشارين . وكانت تترك أحاديثهم غير المفهومة لتأويلها كما يشاء السامع لها . يفسرها كأنها وحى إلهى على لسان هذا (العبيط الأبله) وكثير من الأضرحة فى البلاد العربية التى تزيد على الألاف لقوم مجهولين من هؤلاء الضعاف العقول . سماهم الناس بالأولياء والأقطاب (ورجال أهل الحقيقة) ولو قرأت تاريخ هؤلاء

(١) ولعل هذا واضح فيما ظهر فى الأيام الأخيرة مما يسمونه (بيوت كبار السن) إنهم أناس تنكر لهم أولادهم .

فى المراجع القديمة (كالجبرتى) والطبقات للشعرانى ، والسخاوى ، (وتاريخ المناوى) لهالك قذارة تاريخهم ، وما فيهم من بله ، لدرجة أنه يقال فى تاريخ واحد منهم أن كل الأعمال الصالحة التى عليها كانت تتلخص فى جلوسه فى الشمس محمرة عيناه يصيح صيحات منكرة ، ولم يصل مطلقا ، بل أنه كان إذا ذهب إلى المسجد بال فيه ، ومع الأسف [1] فإن المنتفعين بالنذور التى تعطى لهؤلاء الموتى وتبلغ الملايين يسمونهم أهل الحقيقة ، ولم تكن هذه الظاهرة الوثنية فى الشرق فحسب بل إنها منتشرة فى مقابر النصارى فى أوربا ، ولا زال الناس يعتقدون فى بركة هؤلاء الموتى ويقدسونها وكذا فى الهند والصين واليابان وجميع أنحاء الأرض يعطون للبلهاء مثل ما يعطون لله ، وربما أكثر ، وهكذا صدق عليهم قول الله تعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ﴾ .

تلك النظرة لا تزال موجودة ولا زال (العبطاء والبلهاء) الموتى يمارسون ما كانوا يفعلون وهم أحياء من علاج المرضى ، ومن تدبير الكون ، وتصريف أموره ، حتى أن الناس ينسبون أى عمل مفيد إلى رضائهم وأى عمل مفسد إلى غضبهم ، بل قد بلغ بعضهم ، أن يضيف أن الله سبحانه وتعالى لا يضع أمرا إلاّ بمشورتهم ، وقد بدأت أول دراسة أو محاوله دراسية على الأصح لهذا الصنف (الأبله) فى فرنسا إبان (الثورة الفرنسية) ، التى قامت لتحرير العقول من الخرافات التى يأباها العقل، وبالأحْرى يأباها الدين الحق ، فقد عثر أحد الصيادين فى غابة أفيرون على طفل (أبله) على الفطرة وجده هائما وسط هذه الغابة يقلد الحيوانات فى وثبها وجريها ونومها وصوتها ، ولعله طفل ضال ، خرج من إحدى القرى الفرنسية وهو يحبو أو بعد حبوه وفقده أهله فعاش فى الغابة وعطفت عليه أناث بعض الحيوانات ظانه أنه جرو من جرار الغابة ، كان هذا الحادث سنة ١٧٩٨ ، وقد اهتم الأطباء بدراسة هذه الحالة ولم يفكروا فى خرافات شكسبير وغيره القائلين بقدسية مثل هذا وابتدأت الدراسة " الأكلينيكية " تأخذ مجراها وتبعد فكرة القدسية التى كان يدين بها العالم شرقا وغربا فى هذه الأيام الغابرة ، واهتم الأطباء الفرنسيون الذين قاموا

(١) راجع كتاب هذه هى الصوفية لعبد الرحمن الوكيل ، وكتاب السيد البدوى شيخا وطريقة للدكتور سعيد عاشور ، وكتاب دولة الدراوش فى مصر للدكتور الطويل وكتاب "البدوى" بين الخرافة والحقيقة للدكتور أحمد صبحى .

بالعلاج الأكلينيكى لهذا الأبله " ايتارد وسيجوان " واستطاع الأخير ان يتجاوب مع الطفل ببعض الحروف الأبجدية وأشرق الأمل فى وجه البحاث الطبيون فى دراسة هؤلاء (الضعاف العقول) ، ولقد خرج سيجوان من هذه الدراسة العملية وكثرة التجارب المعملية خرج بلوحة مشهورة تسمى لوحة (سيجوان) تستعمل حتى الآن فى تقدير الذكاء .

ولم يقف تقدير (سيجوان) على ذلك فحسب بل أنشأ مدرسة خاصة فى باريس سنة ١٨٣٧ لتعليم هؤلاء الضعاف ، والأخذ بيدهم وانتشرت الفكرة فى العالم الذى كان يعانى من خرافات هؤلاء (البلهاء) لإنشاء مؤسسات لهذه الطائفة مستفيدين بدراسات (سيجوان) الأكلينيكية فأنشئت بإنجلترا مؤسسة مشابهة فى (هايجيت) وأنشأ تملر مؤسسة بمقاطعة ساكسونى بألمانيا عام ١٨٤٤ كما أنشئت مؤسسة بنيويورك ، ودعى إليها سيجوان نفسه للمساعدة فى إنشائها ، وبالتدريج اهتم العالم الغربى بالعناية بهذه الطائفة التى كانت موئلا (للفيوضات) الخرافية كما كان الناس يظنون ذلك وكان الشرق غارقا (فى ألوهية الضعاف عقليا) وبلغ من تقديسهم أن يضع بعض المارقين (الأحاديث النبوية أن أهل الجنة البله والغرض من ذلك زيارة أضرحتهم ودفع الأموال الطائلة باسم النذور إليهم والتقرب إليهم بالأموال والنوال ، وأنهم هم وحدهم بيدهم تصريف الكون ولا يقيمون بالتصريف إلاّ بالنذر (١) .

واهتمت الدول قاطبة بالعناية بهؤلاء واستيقظ الشرق على ضوء الغرب الذى أصدر القوانين ففى إنجلترا مثلا صدر قانون المعتوهين فى عام ١٩١٣ وتعدل فى سنة ١٩٣٧ كما أفردت لضعاف العقول مواد خاصة فى قوانين التعليم الإنجليزى عام ١٩٤٤ ..

المميزات الخاصة لضعاف العقول :

يختلف النمو العقلى ، فى ضعاف العقول عنه فى العاديين من حيث تأخر النمو العام ، وعدم توافق أو إنسجام القوى العقلية المختلفة ، ووقوف النمو ووصوله إلى نهايته فى سن مبكرة .

---

(١) راجع النفحات الأقدسية ، للكشمانخى ، وراجع تلبيس إبليس لابن الجوزى وراجع " طبقات الشعرانى " وعجائب البحار للسيوطى ، لترى العجب العجاب من القائلين بألوهية هؤلاء "العبطاء" تحت لقب أهل الحقيقة ، وأهل العلم الصوفى .. إلخ

وتبدو هذه المظاهر فى (الضعف العقلى) منذ بداية حياته ، كأن يكون قليل الحركة وهو جنين ، وأن تعوزه الدوافع التى ترمى إلى حفظ ذاته ، ومن المعروف أن ضعاف العقول يتأخرون عادة فى التسنين والنمو الحركى كالجلوس والمشى ، كما يتأخرون أيضا فى النطق والكلام ، وفى تكوين العادات الاجتماعية وفى الاعتماد على أنفسهم فى تناول الطعام أو ارتداء الملابس ، وغالبا ما يكون عندهم اضطراب فى الطاقة المزاجية والوجدانية كأن تكون انفعالاتهم بطيئة الاستثارة مشوبة بالـوهن ، متصفين بالخمول ، أو تكون انفعالاتهم متقلبة بحيث يصعب عليهم التحكم فى تنظيمها أو توجيهها فيكونون متصفين بعدم الثبات وهذا يسبب لهم مشكلات لا قبل لهم بها ، ولذا لا تنتظم حياتهم الخلقية ولا الاجتماعية وينساقون إلى الإجرام بسهولة .

ويبدو الضعف واضحا فى نواحى القدرات العقلية ، إذا ما أمكن إدخالهم فى دور العلم الذين فى درجات من العقل تسمح لهم بأن يعوا الدروس . ولكن المدرسة تجد صعوبات جمة ، كثيرا ما يعمد (المدرس غير التربوى وربما بوصية من الأباء بالضرب الشديد ، ظانين أن هذا الضرب علاجا لهذا الغباء ، وكان المعروف قديما فى (الكتاتيب) أن عصا العريف من الجنة ، وتلك فرية أخرى من مفتريات ، الدراويش .

ولذا يصعب تعليمهم فى المدارس العادية لبطء الفهم وعدم الإدراك وضآلة الفكر وعدم الترابط وغرابة الفهم ، سئل طفل من هؤلاء فى " الكتاب " هل حفظت شيئا من القرآن قال نعم ، قال حفظت أية سورة ؟ قال ، سورة البلد ، قال اقرأها ، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالدى بلاولد﴾ يقصد قوله تعالى ووالد وما ولد .. فقيل له أن والد مثلك ، حقيقة إنه بلا ولد (١) ..

فهم لا يميزون بين الخطأ والصواب ، وربما يعكسون ، فالصواب عندهم خطأ والخطأ عندهم صواب ، وعجزهم عن القيام بالأعمال التى تساعدهم على كسب عيشهم .

---

(١) جمع كتاب المستطرف فى كل فن مستطرف كثيرا من وصف هذه الحالات ولم يزعم أن صاحبها من الأولياء .

غالبا يكون لديهم قابلية للإيحاء ولذا يستغلهم الأشرار فى تنفيذ الشر والجرائم فى نظير أجور تافهة أو كلمة طيبة .

ومن هذده الفئة ، توجد فئة أخرى يسميها علماء النفس (ضعاف العقول العارفون) .

فقد وجدنا بالممارسة النفسية مع هؤلاء ، أنه قد يكون هناك (تعويض فائض) يخلقه الله سبحانه وتعالى فيهم فيكونون ذوى قدرة موسيقية فائقة ، أو يكون فيهم رسام ماهر يخلب الألباب برسوماته ولوحاته ، أو مثال ، أو ذو ذاكرة قوية ، ولا عجب فى ذلك غالبا نرى بعض الذين خرجو إلى الوجود وحرموا البصر رزقوا قوة حافظة وقدرة عقلية خارقة للعادة (تعويضا) من الله سبحانه وتعالى وجزاء على صبره على عاهته ، حتى إن بعض الأطباء (فى الأربعينات) عرض على العبقرى الممتاز (طه حسين) إن فى الإمكان الطبى أن يرى بترقيع عين له مبصرة ، فتسابق كثير من الناس يطلبون من الطبيب ، أن يقلع عيونهم يرقعها فى محاجر طه حسين ، فأبى رحمه الله هذا التبرع ، قائلا ، أنه يشعر بالراحة فى عاهته ...

أقسام الضعف العقلى :

يمكن تقسيم الضعاف ، حسب درجة الضعف التى تؤثر فى السلوك الاجتماعى ، ويمكن التقسيم أيضا من ناحية الصفات الجسمية والباثولوجية والإكلينيكية ، وفيما يلى التقسيم من ناحية درجات الضعف العقلى .

المعتوهون :

وهم أحط أنواع الضعف العقلى ، ويعرفهم القانون الإنجليزى (الأشخاص الذين يوجد عندهم الضعف العقلى بدرجة تجعلهم غير واعين وغير قادرين على حماية أنفسهم ضد الحوادث العادية) ويعرفهم بعض علماء النفس (بأنهم أولئك الذين لا يستطيعون التفاهم مع غيرهم بالكلام إذا لم يكن هذا راجعا إلى إصابتهم بالصمم أو البكم أو إلى اضطراب أجهزة الكلام بل يكون عجزهم راجعا إلى نقص القدرة العقلية العامه فيكون كلامهم من مقاطع بسيطة وأصوات غير مفهومة أو حروف متداخلة ، ويكون فهمهم لما يقال مبهما محدودا بحيث يصل إلى أكثر من تلبية الأوامر البسيطة ، وطبيعى أن مثل هؤلاء لا يمكنهم الاندماج فى المدارس العادية

وأن يقوموا بأى عمل مفيد ، بل إنهم يحتاجون لمن يرعاهم ويعنى بنظافتهم كالأطفال تماما ، وربما يصل الضعف العقلى عندهم إلى درجة تجعلهم لا يستطيعون أن يعرفوا الطريق إلى منازلهم لو تركوا وحدهم ، وفى بعض البلاد الأوربية يعتبر الطفل (ضعيفا عقليا) إذا لم يصل عمره العقلى لأكثر من ثلاث سنوات مهما بلغ عمره الزمنى ، وفى بعض البلاد الأخرى يحددون ذكاءه العقلى فى نسبة تقل عند ٢٥ ٪ .

تبلغ نسبة هؤلاء فى المجتمع عادة ٦ ٪ معظمهم فى أعمار صغيرة ، نظرا لأن أفراد هذه الطائفة يتسرع الموت إليهم بنسبة زائدة قبل البلوغ أو أكبر فى السن وتقسم هذه الطائفة إلى قسمين . العته الكلى والعته الجزئى . وذلك بحسب درجة العته الذى يبدو لديهم من دوافع المحافظة على الذات .

وقد لوحظ أن نسبة المعتوهين من الذكور تفوق نسبتهم من الإناث . ويغلب أن يكون الضعف العقلى فى المعتوهين مصحوبا بضعف ، فى التكوين الجسمى ، وفى الحواس وفى التوافق الحركى وفى الإدراك والقدرة على التمييز بين المدركات المختلفة ، ولا يستطيع المعتوهون توجيه طاقتهم (القليلة حتى إلى اللعب القليل ، ولا يمكنهم الاستغناء عن رعاية غيرهم لهم إطلاقا) .

وعلى سبيل المثال نذكر حالة من حالات المعتوهين (فى العيادة النفسية) فى إحدى المستشفيات (بنت لم تكن تستطيع إطعام نفسها أو إلباس نفسها أو فهم أى كلام يوجه إليها ولم يظهر عندها أى رغبة فى الاستطلاع أو التقليد أو أى قدرة على الانتباه ، وكانت قذرة فى تصرفاتها ، واللعاب يسيل دائما من فمها وتصدر أصواتا أشبه شىء بنهيق الحمير فى بعض الأحيان . ولا تستطيع النطق سوى هذه الأصوات المنكرة ، ويعتريها نوبات ترفع فيها أظافرها كأنها حيوان مفترس تغرسها فى المحيطين بها من زوار وممرضات بدون تمييز وكانت مصدر قلاقل كثيرة ، وظلت على هذه الحالة حتى بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها فانتابتها نوبات صرع دورية ، ولما توفيت تبين من تشريح مخها أن خلاياه تختلف فى تكوينها وتلافيفها عن أمخاخ الآخرين ، كما وجد أن حجم المخ عندها أصغر من الآخرين البلهاء هم أطفال عندهم الضعف العقلى ، بدرجة أقل من (المعتوهين) وتلازمهم

الصفة السابقة فى أنهم ، (لا يستطيعون التفاهم مع غيرهم بالتعبير اللغوى التحريرى رغم إعطائهم الفرصة والوقت الكافى لتعلم القراءة والكتابة ، وهم وإن كانوا يستطيعون عد الأرقام الحسابية الأولى ولكنهم لا يستطيعون القيام بالعمليات الحسابية الصغيرة ولكن عن طريق العناية (التعليمية) الخاصة بضعاف العقول ، يمكن تعليمهم قراءة وكتابة كلمات طفيفة ذات حرفين أو ثلاثة وجمع وطرح الأرقام البسيطة ، وهم يستطيعون تقليد أى رسم هندسى أو إدراك جزء ناقص من صورة تعرض عليهم ولهذا لا يمكن تعليمهم بالمدارس العادية إطلاقا .

ومن الممكن تدريبهم على القيام بالشئون المنزلية ، أو اليدوية ، التى لا تتطلب جهد تفكير أو أى تصرف أو تعبير كثير فى حركاتهم ولذا يمكن تعويدهم بعض العادات النافعة لهم ، ولكن لا يمكن الاعتماد على أنفسهم فى كسب عيشهم لعدم وجود فكرة واضحة فى أذهانهم عن الأعمال التى يتصرفون فيها ، وكثيرا ما نشجع هذا الصنف بالابتسامة ، فيقابلها بارتياح غريب ، ويواصل أعماله كأنه واثق من نفسه وذلك غير الصنف الأول ، الذى لا يعرف معنى الابتسامة غالبا .

البلهاء :

ويتميز (البلهاء) عن المعتوهين بأنهم فى إمكانهم أن يتعرفوا على مكان الخطر ويعرفوا حماية أنفسهم منه فيبتعدوا عن النار مثلا خوفا من الحريق ، وعن الترع والأنهار والأماكن العالية خوفا من الوقوع وكذا من أمام السيارات والقطارات ، كما أن إدراكهم وفهمهم يصل إلى درجة يستطيعون بها الوصول إلى منازلهم وحدهم ، وإن كانوا يضلون إذا ذهبوا إلى أماكن بعيدة .

وفى أمريكا ، يعرف البلهاء ، بأنهم ضعاف العقول الذين يقع عمرهم العقلى بين ٣ سنوات و٧ سنوات أو إنهم من تقع نسبة ذكائهم بين ٢٥و٥٠ تقريبا .

تبلغ نسبة هذه الطائفة فى المجتمع حوالى ٠.٩٠٪ ونسبة البلهاء فى الذكور أكثر كنسبة ٥ إلى ٤ تقريبا .

وبعض أفراد هذه الطائفة ، يبدو عليهم من النمو الجسمى ، والمظهر العادى بحيث يصفهم من يراهم بأنهم ليسوا من ضعاف العقول ، والبعض الآخر قد يتميز بعلامة فى جسمه (تشوهات خلقية فى رأسه أو جحوظ فى عينيه ، أو إمالة فى

فمه ، وفى التشريح يوجد إصابات فى المخ ، أو نقص فى خلايا أو تشوهات فى تعاريجه .

وفى معظم الأحوال يبدو على أفراد هذه الطائفة وجوم الوجه والبله ، ويدرك من يعاشرهم أن تصرفاتهم وسلوكهم لا يمكن أن تصل إلى أكثر من الأطفال الذين يكونون أقل من صف عمرهم ، ويمكن أن نأتى بمثال فى العيادة الإكلينيكية . شاب فى العشرين من عمره ، والده من نزلاء مستشفى الأمراض العقلية ، الوالدة عادية ولكنها ضعيفة تنتابها الأمراض كثيرا ، تأخر نموه فى الطفولة لم يستطع الوقوف بنفسه إلاّ فى سن سنتين ولم يستطع المشى إلاّ فى سن ٤ سنوات وكان عمره أكثر من خمس سنوات قبل أن يتكلم ، ولم يكن محصوله اللغوى يزيد عن ١٢ كلمة وهو فى سن العشرين ، ولم يدخل أى مدرسة لأن المدارس العادية رفضته (بقى فى المنزل حتى سن ١٥ عاما إلى أن أصبحت أمه لا تستطيع القدرة على حكمه ، فأدخلته العيادة النفسية ، فيه علامات مميزة ، قصير اليدين بارز التقاطع كبير الأذنين ، يبدو على وجهه البله أسنانه غير منتظمة ، حركاته ثقيلة وغير متوافقة لا يبدو فى حواسه أى ضعف ، ولكنه لا ينتبه أو يكترث لأى شيء لدرجة تجعل من يتحدث معه يخيل إليه أنه أصم ، وليس بأصم ، كثير الالتفات بدون داع والحركة ، ورغم كونه مسالما إلاّ انه ينتابه أحيانا نوبات نشاط حركة تجعله يصطدم بمن يصادفه .

المأفونون :

يمكن أن نضع فى درجة (الأفن العقلى) الأصناف الآتية :. –

(١) درجة البلهاء الذين لا يحتاجون إلى رعاية قائمة ورقابة شديدة متتابعة ودرجة (الأفن) تجعل من القائمين (على المأفونين) أقرب شيء بالملاحظة الهينة لحماية أنفسهم أو الغير منهم إذا اعترتهم نوبة (الأفن) .

(٢) الأطفال الذين يظهر أنهم غير قادرين بسبب الأفن على السير مع زملائهم فى أسنانهم من التلاميذ بالمدارس العادية وقد يبدو الأفن فى ناحية (والجودة) من ناحية آخرى ، أذكر فى بدء دراستي (فى المدرسة الأولية بالقرية ، كان معنا فى السنة الثانية الأولية زميل حسن الخط لدرجة مثيرة وفى الوقت ذاته كان لا

يعرف جمع ثلاثة وأربعة معا فكانت إجابته باستمرار (لأى جمعية) عشرة ، كثيرا ما كنا نتندر عليه نحن والمعلمون غير التربويين ، وزاد الأمر إعضالا ، أو كما يقول المثل القديم (الطين بله) أن مدرس الحساب كان يكتب على جبهته فى حصة الحساب بالطباشير (غبى) ..

يعرف (بينبه) العالم التربوى النفسى هؤلاء الأشخاص بأنهم ، لا يستطيعون التفاهم بالكلام أو الكتابة مع غيرهم ، ولكن يبدو عليهم تخلف ملحوظ فى التحصيل ، وكسب المعرفة ، عن زملائهم العاديين رغم وجودهم معهم فى نفس الظروف .

ولما كان هذا التخلف يرجع إلى أسباب كثيرة فإن من المفيد أن نعطى هؤلاء من الاختبارات العقلية ما يوضح ، أن تخلفهم يرجع إلى نقص فى الذكاء الذى يبدو فى العجز عن الفهم وعدم القدرة على تركيز الانتباه واستمراره وفى عدم الاهتمام بما يعود على الشخص بالفائدة وعدم القدرة على تصميم خطة للسير فى العمل .

وهذه الطائفة لا يمكن أن تصل فى تعليمها إلى قدرة أكثر من السنة الثانية إلى الخامسة الابتدائية (حديثا) وبرغم المحاولات التى يبذلها المعلمون فإنها تذهب هباء .

ولكن (الأمل التربوى) الحديث أعطى لهؤلاء أملا فى تعليمهم على أيدى أخصائيين فنيين فى هذا النوع من التعليم (الخاص بالمأفونين) ولكن لا يتجاوز التعليم العمليات الحسابية وكذلك بعض الدراسات القائمة على الأعمال اليدوية ، والصناعات البسيطة ، والمعلومات التى لا ترهق تفكيرهم ، ويمكن أن تهضمها تصوراتهم ، أى أن هذه الطائفة تتميز عن (البلهاء) بأنه يمكن أن يتعلموا بعض الحروف التى تنفعهم فى مستقبل حياتهم ، ويمكن أن يعتمدوا فى كسب عيشهم عليها إذا وجدنا الإشراف المصحوب بالعطف والصبر والرغبة فى مساعدتهم ، وهم ينتجون إذا كانوا يعملون فى جماعة أكثر مما لو عملوا فى عزلة خصوصا (إذا كانوا فى حالة اتزان) وهذا لا يمنع من كثرة أخطائهم (غير المتعمدة) فيضيق بهم أصحاب المصانع ، ورغم قدرتهم على الكسب بما يكفى لعيشهم فهم فى حاجة دائما إلى من يعطف عليهم ويرسم لهم خطة العمل والكسب ، وإلى من ينظم لهم

ميزانيتهم ومباشرة مصالحهم الخاصة ، ونسبة ذكاء هذا الصنف تتراوح بين ٥٠ إلى ٧٠٪ تقريبا ، وتبلغ نسبة وجود هذه الطائفة بين أفراد المجتمع حوالى ٧٥و..٪ ونسبة الذكور إلى الآناث ٨ إلى ٧ ، وتظهر عند أفراد هذه الطائفة الصفات التى ذكرناها عند المعتوهين والبلهاء ولكن بدرجة أقل وضوحا ، ولذا يصعب أحيانا تمييزهم بقبول الالتحاق بالمدرسة ووضوح تأخرهم العقلى ، ويمكن تصور أفراد هذه الطائفة من الحالة الآتية : -

شاب سن ٢٤ عاما يبدو عليه من الناحية العقلية لا يزيد عن ثمانى سنوات ، قضى سنوات ست فى المدرسة الابتدائية ، وكان ينقل من سنة إلى أخرى بكبر السن ، ومستواه لم يزد عن السنة الثانية (الابتدائية) القديمة . ولم يلبث أن ترك المدرسة واشتغل عاملا فى إحدى المطابع تحت إشراف عامل آخر ، فلم يزد عن حمل الأوراق إليه ليطبع ، فكان يعطى أجره لأمه التى كانت بدورها تقوم برعايته وتدبر أمره كأنه طفل صغير ، كان قانعا سعيدا ليس له أى مطمع ، يعرف القراءة والكتابة البدائية معلوماته العامة سطحية سخيفة ...

ضعاف العقول ذوو النزعات الإجرامية :

هم فئة (ضعف عقلى) مصحوب بنزعة إجرامية ، ميول ملتوية ، يحتاجون إلى رعاية وإشراف وضبط لحماية غيرهم منهم ، إنهم لا يستطيعون التحكم فى أهوائهم وشهواتهم ونزعاتهم .

ويلاحظ علماء النفس أن السلوك الشاذ لهؤلاء يتصف باهتزاز رغم النصيحة بالعقوبة ، لأن من الصعب على هؤلاء ضبط (النفس الغريزية) فيهم لذلك لا يهتمون بالمعايير أو لديهم فكرة تبرير الجرائم ...

وينزع بعض أفراد هذه الطائفة إلى عدم الانتظام فى أى عمل من الأعمال أو فى الذهاب إلى المدرسة ، ولذا يميلون إلى التشرد والانحراف الخلقى والجنسى ، وتغلب عليهم صفات التسرع ، والدخول فى مجادلات سخيفة كمشجعى فرق كرة القدم الذين يضرب بعضهم بعضا لمناصرة فريق ضد فريق أو لغلبة فريق لفريق ، ويمكن أن تراها جليا بعد انتهاء أى مباراة ، ويتعبون الدولة ويكلفونها إرهاقا فى الضبط والربط ، تجد أغلب هؤلاء من تلامذة المدارس الفاشلين ومن الذين ينطبق عليهم

الضعف العقلى ، فإن العقل السليم لا يبحث عن التفاهات ، وإن يعجب بشيء فلا يتعصب التعصب الأعمى ، وقضاء الأوقات جميعها فى الحديث عن تفاهة انتصار فلان ضد فلان ولا يفيد فى هذا الصنف التأنيب أو العقاب لأنهم لا يخجلون من أى عمل فاضح يأتونه ولا يعبأون بالنظام أو السلطة العامة ، وتكثر أكاذيبهم ومخالفاتهم حتى مع أقاربهم ، وغالبا يتعرضون للإجرام والوقوع فى أيدى العدالة ، وشذوذهم الخلقى يلازمهم منذ ولادتهم ، ولا يكون راجعا إلى البيئة وأخطائها أو المعاملة التى يعامل بها . مثل هؤلاء فى المدارس يتعبون مدرسيهم إلى أقصى حد .

العلامات الفسيولوجية لضعاف العقول : -

إن الضعف العقلى عادة أمر يتعلق بنقص الذكاء أو القدرة (العقلية العامة) المعروفة ، وليس من اللازم وجود التلازم بين ضعف الصحة أو نقص النمو الجسمى أو اضطراب الوظائف الفسيولوجية وبين (الغباء) غير أن هناك بعض حالات شوهدت فى العيادات النفسية تكون متصفة بمجموعة من الأغراض المتصلة بالنواحى الجسمية التشريحية ، والفسيولوجية بجانب نقص الذكاء ، وهذه الأغراض تكون واضحة جدا بحيث يستعان بها على الوصول إلى بعض أسباب الضعف العقلى أحيانا - كما يمكن بواسطتها تشخيص الحالة ومعرفة درجة الضعف العقلى وتمييز نوعه ، ومن أمثلة الأنواع الشهيرة لضعاف العقول المرتبط ضعفهم العقلى بوصمات وعيوب جسمية مميزة بما يأتى : -

حالات ضمور الجمجمة : -

نرى جمجمة هؤلاء صغيرة لدرجة ملفتة للنظر ، وتكون نسبة عرض الجمجمة لطولها أقل من المعتاد بكثير ولا يزيد محيط الجمجمة عند هؤلاء عن ١٧ بوصة بينما تكون فى العاديين حوالى ٢٢ بوصة ومن ناحية التشريح فإن مخ هؤلاء يكون صغيرا جدا بحيث لا يزن أكثر من نصف جرام رغم نمو الشخص الجسمى أحيانا ، وقد يكون المخ سليما خاليا من العاهات والإصابات مع صغر حجمه ولكن التعرجات الموجودة بالقشرة المخية تكون بسيطة وأقل من المعتاد ، أما جلد الرأس فيكون فى الغالب غليظا ، وبه تجاعيد نتيجة صغر عظام الجمجمة بالنسبة للجلد

الذى يغطيها ، وقد يكون بين أفراد هذه الطائفة من يكونون فى صحة جيدة ويكون نموهم العضلى عاديا إلاّ أن غالبيتهم يكونون فى نمو أقل ، وحركاتهم فى المشى بدائية وذات طابع خاص ، ومعظمهم يموتون فى سن مبكرة ، أما مستواهم العقلى فيختلف بحيث تجد بينهم المراتب المختلفة ، للضعف العقلى ، فمنهم المعتوهون والبلهاء والمورون ، وهم عادة محبون للتقليد الحركى ولكنهم قليلوا الضرر عادة وبعضهم يميل للسرور والفكاهة ، وهم مسالمون . وتفسير صغر الجمجمة ، بين العلماء يتلخص فيما يأتى : -

(١) يقول بعضهم أن هذا نوع من الارتداد إلى الحيوانية الأولى (يقصدون) أن الإنسان كان حيوانا وارتقى إلى إنسان ، ونحن نجابه هذا القول ونرفضه رفضا باتا ، فالإنسان إنسان يوم أن خلق الله آدم ولا نعترف بهذه الشطحات المهلكة من علماء لا يعرفون الله مطلقا .

(٢) قول بعضهم بأن ذلك ناشىء من إصابة الجنين قبل الولادة نتيجة علاج الأم بالأشعة أو الصدمات الكهربية التى قد تؤثر على تكوين الجنين ، وهو رأى مقبول علميا ودينيا .

(٣) هناك قول ثالث ، يقول بعض الباحثين ، إن معظم هذه التفسيرات ليس لها أسس علمية تجعل لها صفة الحقيقة ، والثبات .

حالات كبر الجمجمة :

وقد يكون حجم الجمجمة أكثر من المعتاد ، بسبب إمتلائها بالسائل المخى ، وقد يكثر تجمع هذا السائل فى الفجوات الداخلية للمخ ، أو يكثر وجوده حول المخ من الخارج تحت عظام الجمجمة . ويكون كبر الرأس ملحوظا حيث تبرز الجبهة وتتكون الجمجمة فوق الوجه بشكل يجعل حجمها زائدا وحملها ثقيلا ، وقد يزيد محيطها عن ٣ بوصة والمعتاد ٣ بوصه فقط وعادة يتأخر التآم اليافوخين الأمامى والخلفى كثيرا ، مما يعرض المخ للأخطار ، كما أن جلد الرأس يبدو مشدودا بحدة على سطح الجمجمة نظرا لكبر مساحتها الخارجية بالنسبة للجلد ، وترجع هذه الأسباب عادة إلى إصابات أو عاهات تشريحية بالمخ ، أو أمراض تصيب خلاياه ، وتعوق نمو أنسجته فيبقى ضامرا صغيرا ، ويمتلىء فراغ الجمجمة بالسائل المخى ، وإذا كان

السائل المخى يتزايد تجمعه بالتدريج فإن الحالة تزداد سوءا ويموت الشخص بسرعة فى هذه الحالات ، أما إذا وقف السائل المخى عند حد معين ، فمن الممكن أن تكون الحالة أحسن حالا وأطول عمرا ، والمهم فى جميع الحالات أن يكون المخ نفسه صغيرا عن المعتاد ، وغالبا ما تتأثر بعض المناطق المخية من ضغط السائل المخى فتؤدى إلى اضطرابات حسية وحركية ، ولهذا تكثر فى أفراد هذه الطائفة عاهات الحس والحركة كضعف السمع أو البصر وحالات الشلل الحركى فى الأطراف والتعرض لنوبات الصرع ، وغالبا ما يكون أفراد هذه الطائفة أميل إلى الطاعة والهدوء ، ولكنهم يعجزون عن القيام بأى عمل يتطلب (الحركات المتوافقة) رغم رغبتهم فى القيام به .

حالات القزامة :

القزامة ، معناها أن يكون الشخص قصير القامة بدرجة ملحوظه ، وقد لا يصل طوله أكثر من ثلاثة أقدام مهما كان عمره الزمنى ويصحب ذلك ضعف عقلى عام ، ويرجع ذلك إلى انعدام أو قلة إفراز الغدة الدرقية ، ويتأخر نمو الأطفال من هذه الطائفة فى النواحى المختلفة كالتسنين والجلوس والمشى والكلام ، فقد يتأخر المشى إلى سن خمس سنوات بحيث يبقى مفتوحا حتى البلوغ أحيانا ، كما يتأخر النمو والنضوج الجنسى أيضا ، ويتميز هؤلاء بجانب قصر القامة بأن يكون جلدهم جافا غليظا مصفرا ، وقد يكون مجعدا فى بعض المواضع ، وشعرهم خفيفا لا يظهر منه إلاَ القليل فى الحواجب وفروة الرأس ، وتكون درجة حرارة الجسم أقل من المعتاد كما يكون التنفس مضطربا ويكون مسموعا أحيانا وغالبا وتكون الشفتان غليظتين والفم مفتوحا والأنف أفطس والعينان متباعدتين ، وهذه الصفات والظواهر فيهم تجعل من السهل الخلط بينهم وبين طائفة ضعاف العقول (من النوع المغولى) ولكن حالات القزامة تتميز بالبطء فى الإستجابات الحركية وبوجوم الوجه وعدم وضوح تعبيراته الانفعالية .

وهذه الحالات قابلة للتحسن إذا أمكن تشخيصها مبكرا والمبادرة بإعطاء العلاج المكون من خلاصة إفراز الغدة الدرقية ، خصوصا ، إذا أثبت الفحص الطبى أن الضعف العقلى نتيجة لقلة هذه الغدة وكان ذلك راجعا لأسباب مكتسبة أما إذا كان

الضعف العقلى (تكوينيا ولاديا) فلا يفيد فيه العلاج رغم تحسن الأعراض الجسمية نتيجة نشاط الغدة الدرقية .

حالات (النوع المغولى) :

وهى من أشهر أنواع الضعف العقلى التى اهتم بها الباحثون ومع أنها من أكثر الأنواع وضوحا فى التشخيص إلاّ من أكثرها غموضا فى معرفة الأسباب التى تؤدى إلى حدوثها ، ويوجد حوالى ٥٪ من نزلاء مؤسسات ضعاف العقول لهذا . هذا النوع الذى يعتبر بالشبه الكبير بين أفراده وبين (الجنس المغولى) [١] فى الكثير من الصفات الجسمية الظاهرية ، ومن هنا كانت التسمية ترجع إلى الدكتور (لا جدون داون) . وبعض أوصاف هذه الطائفة يمكن ملاحظته عند بعض الأفراد العاديين غير أن وجود مجموعة أعراض منتظمة بعضها مع بعض بحيث تحدث طابعا خاصا ، هو الذى يجعل تمييز ضعاف العقول أمرا ممكنا (من النوع المغولى) ، وأهم هذه الصفات هى الضعف العقلى المصحوب بالتأخر فى النمو العام ، وقصر القامة ، وصغر حجم الرأس واستدارتها ، بحيث يقل بروز الجزء الخلفى منها ، ويتأخر موعد إقفال اليافوخ الأمامى إلى ما يقرب من سن الثامنة أحيانا ، وغالبا ما يكون المخ نفسه قليل الحجم وتكون ، شقوقه واسعة ، وخلاياه العصبية غير تامة النمو .

أما الوجه فيشبه (المغوليين) من حيث شكل العينين وانحدار جفونها ، والثنيات التى توجد بها ، ومن حيث الأنف الأفطس وصغر الأذنين ، وغلظ الشفتين ، ويبدو اللسان أكبر من الحجم الطبيعى بحيث لا يقفل عليه الفم بسهولة ، ويكون عادة غليظا وبه تشقق واضح ويكون الشعر جافا خاليا من التجاعيد ، أما الأيدى فيكون شكلها غير متناسق حيث تكون عريضة وطرية [٢] ، وتتجه الأصابع فيها فى شكل دائرى ، وتختلف الثنيات التى توجد عادة فى راحة اليد حيث تكون معظمها خطوطا مستعرضة كما يكون الأصبع البنصر قصيرا جدا ومنحنيا إلى الداخل ، وقد يكون مكونا من عقلتين بدلا من ثلاثة ، أما الأرجل فتكون مفرطحة

---

(١) اليد الطرية : يقصد عدم جفافها فتبدو كأنها باردة .
(٢) الجنس المغولى هو المعروف فى القرآن الكريم باسم « مأجوج » .

القدمين وأحيانا يوجد شق واسع بين أبهام القدم والأصبع المجاور له ، وغالبا ما يكون كلامهم قليل الوضوح غير مفهوم العبارات إلاّ من يخالطهم .

وهم يولدون عادة بالحجم العادى ، ولكن نموهم يكون بطيئا جدا ، بحيث لا يصل نموهم لأكثر من نمو شخص عادى فى سن عشر سنوات مهما كان عمرهم الزمنى ، ولهذا يصعب الخلط بينهم وبين (الإنسان العادى) بينما يقرب الشبه بينهم وبين الأقزام ، غير أن المفاصل فى النوع المغولى تكون حركتها غير مضبوطة ، ومن السهل تمييزهم بالصفات السالفة الذكر التى تجعلهم متشابهين تشابها عجيبا لدرجة أنهم يكونون أشبه شىء بأفراد أسرة واحدة مهما اختلفت بيئاتهم وجنسياتهم .

وهذا التشابه الذى جعل لهم طابعا مميزا ، يوحى بقوة أن السبب واحد فى جميع الحالات ولكن للآن لم يكن الاهتداء إلى السبب الحقيقى .

هناك تكهنات تقول أن ذلك راجع إلى ضعف صحة الأم واضطرابها العقلى والمزاجى الشديد أثناء الحمل ، وبعضهم يرجع الأسباب إلى عوامل أصلية فى تكوين البويضة قبل الإخصاب .

وبعض الأطباء يطلقون على " الأطفال الناقصى التكوين " أنهم ضحية نقص (الفيتامينات) ومواد التغذية أثناء نمو الجنين أو نقص هرمونات الغدد الصماء واضطراب الإفراز الغددى أو الشذوذ النفسى والجسمى والعقلى فى أحد الأبوين ، أو إصابتهما بأمراض خطيرة ، أو إدمانهم للمخدرات والمواد الكحولية ، إلى غير ذلك ، ومع هذا فأن هذه الأسباب افتراضية لا تصل إلى حقيقة (تشابه الصنف المغولى فى جميع البيئات قاطبة) .

هذا وقد وجد أن متوسط عمر الأمهات عند إنجاب الأطفال (المغوليين) حوالى ٣٧ سنة ، بينما متوسط عمر الأمهات فى إنجاب الأطفال العاديين ٢٩ سنة وهذا أيضا لا يفيدنا فى معرفة الأسباب (المغولية الحقيقية) إنها افتراضات واحتمالات وظنون . لعل . وعسى ... والعلم عند الله .

وأفراد هذه الطائفة من ضعاف العقول يتصفون بكثرة الحركة والمرح وحب التقليد والطرب من سماع الموسيقى كما أنهم عادة ظرفاء محبون للسرور ، متواكلون .

أنواع (إكلينيكية أخرى) :

(١) هناك الضعف العقلى (زيادة على ما سبق) المصحوب بقلة إفراز الغدة النخامية فى القشرة السنجابية منها ، والذى يؤدى إلى وضوح صفات الطفولة فى الشخص ، فيكون رخوا سمينا وجسمه مغطى بالدهن ، وقد لا يحدث عنده النضوج الجنسى .

(٢) هناك حالات تلازم الضعف العقلى فيها حدوث نوبات من الصرع ، ويكون عندهم ، صفات (الخلق الصرعى) كالأنانية وعدم الاكتراث بالغير .

(٣) وهناك أيضا حالة (الضعف العقلى) نتيجة الإصابة بمرض الزهرى الولادى ، الذى يؤثر فى المخ والجهاز العصبى فى بعض الأطفال الذين يولدون أحياء إنَّ معظم هذه الحالات تولد ميتة ولاتعيش طويلا .

(٤) هناك حالات أخرى أساسها اضطراب فى نمو الخلايا المخية ، وتضخم بعض أجزائه بدرجة تؤثر فى تنظيم الخلايا مما يؤدى إلى وجود الضعف العقلى . ويتبع ذلك ظهور أعراض جسمية كوجود علامات فى الجلد .

(٥) وهناك أيضا حالات الضعف العقلى المصحوب بالشلل أو المصحوب بعاهات الحواس كالسمع والبصر .

(٦) وهناك حالات أخرى تنتج من الإصابة بالحمى المخية الشوكية ، وحالات تكون مصحوبة بالإصابة بالأمراض العقلية ، وغير ذلك من الحالات المتصلة بالإصابة التشريحية أو الاضطرابات الوظيفية للجهاز العصبى .

أسباب الضعف العقلى :

وضحنا سابقا : إن الضعف العقلى يبدو فى صور مختلفة بين العته والغباء ، وذلك ناشىء من وقوف أو عدم اكتمال النمو العقلى ، كما رأينا أنه يظهر فى صور دراسات مختلفة حول علة كل (ظاهرة) على حدة فى ضوء ظروفها الخاصة وهذا لا يمنعنا من أن نرجع الظواهر عامة إلى أسباب عامة أيضا نوجزها فيما يأتى : -

أولا العوامل الوراثية :

وهى الأسباب التكوينية الأصلية الداخلية التى ترجع إلى عوامل طبيعية تؤثر فى تكوين الجنين ، فى الخلايا ذاتها ، وقد يحدث هذا نتيجة التغيرات التلقائية

التى تطرأ على الجينات التى تحملها الكروموزمات تلك التغيرات التى تعرف فى علم الوراثة باسم الطفرة العلمية ، والتى ينشأ عنها وجود صفات جديدة بالنوع تنتقل من جيل إلى جيل ويصح اختفاؤها فى بعض الأجيال ، وعودة ظهورها فى أجيال أخرى . ويمكن أن تحدث هذه التغيرات فى أجيال قديمة من الجدود ، أو فى الآباء القريبين ، ويكون تأثيرها فعالا قبل حدوث عملية الإخصاب وتكوين الزيجوت إذ أن ما يحدث بعد ذلك يرجع إلى عوامل مكتسبة أو دخيلة من البيئة .

وقد اتفق على تسمية الضعف العقلى الذى يرجع إلى عوامل أصلية (بالضعف العقلى الأولى) وهو الذى يكون حوالى ٨٠٪ من حالات الضعف العقلى .

لقد قدر القائلون بذلك حول الضعف العقلى ، معللين أن الذكاء فى أساسه فطرى. لا مكتسب بالخبرة ولا يمكن للبيئة أن تزيد فى كمية ما يرثه الفرد منه وإن كان فى الإمكان « لمن لم يوهبوا ذكاء » الاستفادة من عوامل البيئة ، فهذه العوامل ربما أثرت فى الانتفاع بها للأذكياء وغير الأذكياء بقدر معلوم .

ويمكن التحقق من فعل العوامل الوراثية بدراسة التاريخ العائلى لحالات ضعاف العقول ، حيث نجد أن آباءهم وأجدادهم من قريب أو بعيد فيهم أو فى بعضهم ما يدل على الاستعداد للضعف العقلى . أى يظهر عند فحص تاريخ حياتهم وجود ما يدل على إصابتهم ببعض الأمراض الذهانية (كالبارانويا) مثلا والأمراض العصبية والنفسية كالهستريا ومثل الصرع ، والسلوك السيكوباتى (المعتل الشخصية) وكذلك الغباء والضعف العقلى .

والذى يورث ليس الضعف العقلى ذاته . ولكنه الاستعداد له كما أنه ليس من الضرورى أن يورث هذا الضعف بالنسبة ذاتها ، وقد تتبع بعض علماء النفس أبناء حوالى ٥٠٠ من ضعاف العقول فوجد أن ١٤٪ منهم فقط ضعاف العقول وأن ٣٢٪ منهم أغبياء كما وجد أن ٨٧٪ منهم جميعا تقل نسبة ذكائهم عن ١٠٠ ، ومعنى ذلك أن أبناء ضعاف العقول قد يرثون درجات من الضعف العقلى والغباء مختلفة عن درجة الضعف العقلى فى آبائهم .

وموجز هذا الموضوع يمكن القول بأن ضعاف العقول يأتون عادة فى العائلات التى يكثر فيها عدد حالات الشذوذ العقلى بأنواعه المختلفة ، وأن الضعف العقلى يوجد

فى آباء ضعاف العقول بنسبة تقدر بحوالى ١٠٪ بينما يوجد فى أبنائهم بنسبة أعلى قد تصل إلى ٥٠٪ تقريبا .

ثانيا العوامل البيئية :

وهى العوامل التى تحدث تأثيرها بعد عملية الإخصاب وتكوين الجنين ، سواء أكانت فى بداية تكوينه ، أو فى أثناء مدة الحمل ، أو عند الوضع ، أو عقب الولادة ، وهذه الظواهر لا تؤثر عادة إلى تغيير أصلى فى جوهر الخلايا ، فإن الضعف العقلى الناشىء بسببها يكون عرضيا ، ولا ينتقل للأجيال القادمة ، ولأجل هذا تعتبر هذه العوامل خارجية ويعتبر الضعف العقلى الناشىء عنها من النوع الثانوى .

وقد تكون هذه العوامل ذات أثر كيمائى أو بكتريولوجى ، كما أن تكون عوامل جسمية أو نفسية أو اجتماعية ، ومن الجائز أن تحدث بعض هذه العوامل فى حالات الضعف العقلى الأصلى فقط ، أما فى حالات الضعف العقلى الثانوى فلا يكون هناك أى أثر وراثى فى العائلة .

بل يكون من المحقق إرجاع هذه الظواهر وأسبابها إلى عوامل وظروف طارئة حديثة ، يتم حدوثها بعد تكوين الجنين ورغم ما يبدو لهذه العوامل من أهمية ، وما يميل إليه من آباء ضعاف العقول من تبرئة آبائهم وأجدادهم من وصمة الضعف العقلى أو ما شابهه من الأمراض العقلية ، ومن إرجاعهم الضعف العقلى إلى أبنائهم فقط حتى لا توصم العائلة بوصمة (الأمراض الوراثية) ، هذا لا يمنعنا من القول بأن نسبة الأمراض العقلية والضعف العقلى المكتسب من البيئة لا تتجاوز ٢٠٪ ، ولن نخشى من قول الحق فالمعروف أن العرق دساس ، وعلى ذلك فلابد من ذكر العوامل (التى تؤدى إلى الضعف العقلى المكتسب) .

(أ) العوامل التى تحدث قبل الولادة إذا كانت المرأة فى المرحلة الأولى من الحمل كما يحدث بسبب إعطاء الأم بعض العقاقير بغرض الإجهاض ، والتخلص من الجنين ، فقد لا تنجح المحاولة ولكن تحدث إثارة ضارة بالجنين داخل الرحم منها قد تؤدى إلى وجود الضعف العقلى عنده ، وبعض العوامل مما يتعرض له الجنين من الإصابة بالعدوى من أثر مرض خطير أصيبت به الأم ورحم الله أبا العلاء المعرى

القائل :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد [١] .

أو التأثر من وجود السموم التى تؤثر فى جهازه العصبى ، وكذلك عدم اتزان افرازات الغدد الصماء ونقص هرموناتها ، كما يصح أن يتعرض الجنين أثناء الحمل لصدمة سببتها أمه فى بطنها أو حادث وقع لها أثناء الحمل بحيث يمتد أثر ذلك إلى الجهاز العصبى وخصوصا المخ ، ومن هذه العوامل أيضا ما قد يحدث للخلايا العصبية فى مخ الجنين من إتلاف أو ضمور ، بسبب تأثير أشعة أكس التى قد تضطر الأم إلى العلاج بها أثناء الحمل ويقال أيضا أن بعض الحالات التى يتم فيها التلقيح سفاحا أو اغتصابا أو يكون الآباء فى حالة سكر بتأثير المواد المخدرة أو الكحول ، وما يحيط ذلك من إضطرابات عقلية قديؤدى إلى الإضرار بالجنين تعرضه للضعف العقلى ، على أن بعض الأسباب التى قدمناها تعتبر نادرة تقريبا .

(ب) العوامل التى تحدث أثناء عملية الولادة غير الطبيعية كما فى الحالات التى تطول فيها مدة الوضع لصعوبته وما يحدث من جراء ذلك إلتهابات أو تشوهات فى المخ نفسه ، والحالات التى يحدث فيها اختناق الجنين عقب الولادة لمدة طويلة بسبب تأخر عمل الإسعافات اللازمة لحدوث التنفس ، مما يؤدى إلى اضمحلال بعض الخلايا العصبية نتيجة لعدم وصول الأوكسجين اللازم لحياتها ، وقد تحدث إصابة المخ أو جرحه نتيجة استعمال الآلات فى الولادة العسرة ، على أن الحالات السابقة لا تحدث الضعف العقلى إلاّ فى أحوال نادرة جدا .

(جـ) العوامل التى تحدث بعد الولادة وهى التى تتسبب عن الظروف الصحية والنفسية والاجتماعية غير الملائمة التى تؤثر فى حياة المولود وتعرضه للإصابة بضعف العقل .

وفى هذه الحالة يفترض أن ذكاء المولود كان عاديا ، ولكنه تأثر بمفعول خارجى لدرجة تؤثر فى إيقاف النمو العقلى ، أو إبطائه بما يجعل الطفل فى مصاف ضعاف العقول ويعنى (القانون الإنكليزى) الضعف العقلى بأنه حالات وقوف أو عدم

---

(١) ما المانع أن تنتشر عيادات الكشف على طالبى الزواج ، وعلاجهم من الأمراض التى قد تنتاب الأطفال البرآء ، وأن يعتبر العريس مقبولا ، والعروسة مقبولة ، من هذه الناحية ، بدلا من الاهتمام بالنواحى المالية والاجتماعية فقط ؟!

اكتمال النمو العقلى الذى يوجد قبل سن ثمانية سنوات سواء أكان ناشئا من أسباب أصلية ذاتية أم من أسباب دخيلة بالمرض أو الإصابة .

ومن المعروف أن سن الثامنة عشر هو الموعد الطبيعى الذى ينتهى عنده الذكاء الفطرى فأى وقوف لنمو الذكاء قبل ذلك يعتبر أمرا غير طبيعى .

ومن أمثلة الحالات التى يحدث فيها الضعف العقلى " غير الفطرى " حالات الحوادث ، والإصابات المباشرة للمخ ، والتى قد يؤدى بعضها للشلل وبعضها الآخر لحدوث أمراض عصبية أخرى كما يؤدى بعضها أحيانا لحالات الضعف العقلى .

وهناك أيضا حالات اضطراب الغدد الصماء (كما سبق ذكرنا ذلك) ونقص إفرازاتها واضطراب الغدة الدرقية والغدة النخامية ، كما أن هناك من الأمراض العقلية ما يكون تأثيرا مباشرا على الذكاء والقدرة العقلية العامة بحيث تؤدى إلى الاضمحلال العقلى المعروف ووقوف نمو الذكاء .

وما يقال بأن حالات الفقر وضعف الصحة العامة ، قد تصل إلى إضعاف العقول، قول يعوزه البرهان العلمى فإن هذه العوامل المناهضة للمجتمع السليم لا يبلغ بها درجة مفعولها إلى سلب الناس عقولهم بالضعف ، أما المرض فقد يحدث للأغنياء كما يحدث للفقراء .

واجباتنا نحو ضعاف العقول :

سبق القول بأن هذه الظاهرة (موجودة فى العالم أجمع وأن أصحابها أخذوا صفة القداسة وأنهم " أقطاب الله ووكلاؤه فى الأرض " واغتر الناس قاطبة بذلك ، ونسبوا إليهم كثيرا من أحداث الكون ، فأى حادث حدث فيه ضرر للناس قيل : إنهم غاضبون على الناس ، وأى حدث ينفع الناس يقال أنهم راضون على الناس ، وعلى هذا المنوال أصبح لهم شأن فى حياتهم فرزقوا الآلاف من الذهب والفضة ، ونذر الناس لهم معتقدين أن الخالق جلّ شأنه لا يبت أمرا إلاّ بموافقتهم ، وهذه العقيدة التى توحى بالشرك ذاته انتشرت شرقا وغربا ولازالت للآن ، وهؤلاء يعيشون عالة على المجتمع ، ويسببون كثيرا من الضيق والقلق والانشغال لذويهم (الذين لم يستغلوا هذه الظاهرة ليقولوا أن أولادنا مقدسون يوحى إليهم) ، كما أنهم مصدر خطر على غيرهم من أفراد المجتمع وأكثر عرضة للانحراف وارتكاب

الجرائم فكثيرا ما يستغلهم بعض الأشرار فى تنفيذ جرائمهم ، وفوق ذلك يكونون نسبة كبيرة من المتشردين والمتسولين ونزلاء السجون والإصلاحيات ويعتبرون عنصرا هداما فى حياة المجتمع .

وإذا صح تقدير نسبتهم فى المجتمع بنسبة ١٪ ولهم حق الحياة وحق التزاوج ، وهم لعجزهم عن التحكم فى نزعاتهم ودوافعهم الغريزية ، ولعدم تقديرهم للمسئولية أو فهم للتقاليد والأعباء التى تلقى على أكتافهم ، فغالبهم متواكلون (وأقصد المصابين بالضعف العقلى بنسبة صغيرة) أى لا يكونون فى درجة (الأفن والعته) ، أنها فى درجة عقلية قليلة قريبة من الإدراك كما سبق أن وضحت ذلك وهذه الطائفة تتزايد بكثرة ، فأفرادها لا يألون جهدا فى التزاوج غير مراعين ظروفهم الصحية والاجتماعية ، وربما عددوا فى زوجاتهم ويتكاثرون بسرعة وبدون ضابط بحيث نجد أن نسلهم أكثر نسبيا من العاديين ، بل أن غالبيتهم يلجأون إلى التناسل غير الشرعى ، ولهذا ينتشر بينهم الغباء ويعتبرون مصدرا خطيرا للأطفال اللقطاء غير الشرعيين ومرتعا خصبا للأمراض الجنسية التى يكثر انتشارها عن طريقهم ومن الممكن تنظيم حياة هؤلاء وأن نساعدهم كثيرا على التوفيق والملاءمة بينهم وبين المجتمع بحيث نقلل من أخطارهم ، وأن ندرك أهمية واجبنا وواجب الدولة ازاء هذه الطوائف . ويمكن تلخيص ما يجب عمله إزاء ضعاف العقول فيما يأتى : -

أولا التشخيص الأكلينيكى المبكر :

إذا ظهرت بوادر الضعف العقلى فى طفل ما قبل سنى الدراسة فيجب على الآباء والأمهات أن يسرعوا بتحويله إلى العيادة النفسية للتأكد من وجود الضعف العقلى إن كان فيه أو عدمه .

والمدرسة ذاتها يمكن للتربويين (فى التعليم الابتدائى) كشف هذا المرض بين الأطفال ، وقد أصبح التعليم مباحا ، وإجباريا للجميع فإن عددا كبيرا من ضعاف العقول يمكن معرفتهم وتمييزهم ، عن طريق المدارس الابتدائية أو رياض الأطفال على أن الواجب على المعلمين ألا يخلطوا بين التأخر الدراسى والضعف العقلى ، فقد يكون التلميذ متأخرا دراسيا لأسباب أخرى غير الذكاء وضعفه .

ومما يساعد على تمييز الضعف العقلى إنه يكون موجودا على الطفل من يوم أن يولد فى جميع الحالات تقريبا ، وأنه يبدو فى عجز الطفل عن التصرف بصفة عامة بحيث يكون تأخره عاما فى جميع الدروس بجانب الإدراكات الأخرى ، وكما يكون شذوذ الطفل باديا للعيان فى النواحى المعرفية عامة ويلاحظ أن الاضطراب الوجدانى أو المزاجى ليس دليلا كافيا على الضعف العقلى ، ويستعين المختصون النفسانيون على تشخيص الضعف العقلى بما سبق تفصيله عن الصفات العامة لضعاف العقول ومميزات كل نوع منه ودرجته بما يأتى : -

(١) التقرير الاجتماعى عن تاريخ العائلة وأمراضها القديمة والحديثة .

(٢) تاريخ حياة الطفل نفسه مع التشخيص الطبى والعقلى (السيكياترى) Psy chi atry .

(٣) مقارنة تصرفات الطفل موضع البحث بتصرفات الأطفال العاديين ، خصوصا فى الحالات التى يكون العمر العقلى فيها أقل من ٣ سنوات بحيث يتعذر إجراء الاختبارات العقلية على الطفل ويستعان على هذا بالجداول المعيارية لتطور نمو الطفل العادى التى وضعها لفيف من علماء النفس .

(٤) هناك جداول اختبارات كثيرة يمكن الرجوع إليها فى حالة تشخيص الضعف العقلى وبذلك يمكن تقدير الحالة ونوعها إذا أمكن بحيث يعتمد على تقديرها فى التصرف إزاء الحالة .

ثانيا الوضع تحت الإشراف :

فإذا ثبت وجود الضعف العقلى وأمكن تقدير درجته ، وجب تحويل الحالات إلى جهات يضمن لهم فيها التربية والتمرين المناسب لاستغلال ما لديهم من مواهب عقلية ، إلى أقصى حد ممكن بما يساعدهم على تكوين عادات صالحة ، وتعلم بعض الأعمال والمهن الميسورة التى تساعدهم على كسب العيش وأهم هذه الجبهات هى : -

(١) المدارس الخاصة ولا يوجد فى هذه المدارس عادة من يكونون فى درجة البله والعته .

(٢) المؤسسات المعترف بها كمراكز لرعاية ضعاف العقول ويرسل إليها الحالات التى لا تترافر فى منازلهم مقتضيات الرعاية والحماية والإشراف اللازم لمثل هؤلاء الأطفال .

(٣) المؤسسات العامة للمساعدة المؤقتة وتحول إليها الحالات التى ينبغى الإسراع فيها بضرورة تغيير بيئة الطفل لضمان حمايته ، أو حماية غيره منه ، إنها كإسعاف مؤقت لتدبير مؤسسة أخرى من نوع آخر ليعيش فيها الطفل حياة استقرار .

(٤) ابقاء ضعاف العقول فى منازلهم تحت الإشراف المستمر من الهيئة المسئولة ، ويوفر على الأهل كثيرا من المتاعب التى تتسبب فى القلق الدائم عندما ينتزع الطفل منهم وإرساله لمؤسسة مختصة .

(٥) نقل الطفل من منزل أهله إلى منزل آخر من المنازل المرخص له بها ، وفى هذه الحالة يدفع الطفل أو أهله أو الحكومة تكاليف إقامة الطفل لمعيشته لمن يدير هذا المنزل ، ويصح أن تضم هذه المنازل عددا قليلا من ضعاف العقول بحيث يعيشون فى شبه عائلة على أن تختار هذه المنازل من الأطفال من يسهل قيادتهم ولا يخضى خطرهم .

هذه المنازل والمدارس الخاصة والمؤسسات ، تضم عادة البعيدين عن ضعف العقل المعروف (بالعته أو البله) ، أو الحالات التى يشتد خطرها ويتحتم إبعادها عن المجتمع ، أما درجة (العته والبله) فإنهم يعزلون إلى مستعمرات خاصة يبقون فيها بصفة دائمة ، بحيث لا يسمح لهم بتركها مطلقا بل يبقوا فيها ليعيشوا فى مجتمع خاص بهم له نظمه وتدابيره ، وينظم لهم من الأشغال ما يغنيهم عن التفكير فى عاهاتهم ، وعن التفكير فى الاختلاط بالجماعة ويعهد إلى مختصين فى تربية ضعاف العقول ليشرفوا على هذه المستعمرات ، وإن رأوا تنظيم أشغال على سبيل الألعاب والتسلية يأخذ بها الضعاف تضييعا للوقت وتسلية لهم فلا مانع من ، ذلك وتعتبر هذه المستعمرات مراكز علمية للبحوث الطبية والنفسية والاجتماعية ولهذا يزورها العلماء ويقضون أوقاتا كثيرة فى أبحاثهم . ويختار لهذه المستعمرات أماكن مملوءة بالبهجة ، مورقة الأغصان فى حدائق غناء ، حتى لا يشعر الضعيف بأنه مهان منبوذ وعادة تكون فى أماكن ريفية بحيث يسهل وسائل الإعداد والمران

على الاشتغال بالأعمال الزراعية ، كما تنشأ أيضا بالقرب من هذه المستعمرات مراكز للتدريب المهنى يحول إليها من يمكن أن يقوم بالأعمال المهنية بحيث يمكن أن يتعلم بعض الحرف والصناعات .

ربما أن تكاليف هذه المستعمرات كثيرة من أجل هذه الفئة التى ابتلاها الله لينظر ماذا نعمل حيالها ؟ فكما أن فى الحياة الأكفاء الذين يهبون المجتمع فوائد عظيمة فلابد من وجود غيرهم ممن يعيشون فى سلبيات المجتمع ، فمساعدة هؤلاء زكاة لفضل الأولين ، ومهما يكن من أمر فأن النفقات التى تتكلفها الدولة أقل بكثير من النفقات التى يتكلفها ضعاف العقول لو تركوا بين أفراد المجتمع العادى .
وقد يرى بعض علماء النفس والاجتماع علاجا لمشكلة هؤلاء ، تعقيمهم ، حتى نوقف تيار غزوهم أو تنظيم زواجهم ، والتحكم فى التناسل ، وقد يعترض على ذلك بأنهم مخلوقون لهم شيء من الحقوق وفى ذلك إهدار لفئة من المجتمع ، فلو عقمنا كل فئة فيها خطر على الجماعة الإنسانية لا نتهت البشرية ، إذ سيذهب كل ذى رأى إلى حد جنس مخالفيه ، فمن قبل ذهب هتلر والمانيا النازية إلى وقف تزايد اليهود بالتعقيم مرة ، وبالإبادة والحرق ، والتجهير ومع ذلك ظل اليهود هم اليهود ، ولو أخذ التشريع القانونى الوضعى بهذا ، لأوقف كل طاغية تزايد وتناسل المخالفين له ، وعمدت الطوائف إلى تعقيم الطوائف الأخرى التى تخالفها فى الرأى والمذهب حتى لاعبوا الكرة ، المؤيدون لفريق ضد فريق ، ومن قبل أحد الفراعنة ، حدَّ بنى إسرائيل بقتل الأطفال إن ذلك إجراء معارض لحقوق المخلوقين ، وحريتهم فى اجتلاب نسيم الحياة وتدخل فى عمل الطبيعة التى يجب أن نترك لها العمل لتعمل حسب الفطرة والانتخاب الطبيعى ، وما علينا إلاّ علاج النقص فيها ، وإن لم يمكن العلاج اليوم فسيمكن أن يكون غدا .

ويعجبنى قول بعض علماء النفس موجها النقد إلى القائلين بالقضاء على ضعاف العقول بالتعقيم أو بالمنع من الزواج ، قال : إن ذلك لا يؤدى إلى القضاء على ضعاف العقول قضاء تاما كما يتبادر إلى الذهن إذ المعروف كما سبق أن قلنا أن ١٠٪ فقط من ضعاف العقول يأتون من آباء ضعاف العقول ، أما الباقون فيأتون من آباء عاديين أو ممتازين بالذكاء وصدق الله فى قوله ﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ وأعجبنى ما جاء بصفحة ٩٨ من كتاب عيادات العلاج

النفسى للدكتور الأستاذ الكبير محمد خليفة بركات (يعلق على قول القائلين بالتعقيم بأسلوب أدبى يقول ، ولكى يكون هذا العلاج مؤديا للغرض منه ينبغى ألاّ يتناول ضعاف العقول فحسب بل أيضا جميع الأفراد الذين يظهر عندهم أمراض عقلية أو صرع أو غباء أو إدمان أو سلوك إجرامى طبيعى فيهم ، كما أن هناك صعوبات آخرى إدارية وفنية من حيث طريقة التنفيذ سواء فى طريقة قياس الذكاء وتحديد الحالات التى ينطبق عليها قانون (الضعاف) أو فى الأساليب التى تتبع فى التعقيم ومدى نجاحها أو غير ذلك ...

بالرغم من الاعتراضات التى وجهت إلى تطعيم (ضعاف العقول) ضد الإنجاب فقد قامت بعض الدول بتطبيق نظام التعقيم الأجبارى وأخذت به الولايات المتحدة منذ عام ١٩٠٧ وكذا المانيا النازية بينما انجلترا تركت الأمر اختياريا منذ عام ١٩٣٣ .

ثالثاً العلاج الطبى :

الضعف العقلى ليس مرضايخضع للفحص والعلاج الطبى ، إنما المقصود بالعلاج هنا ما يتناول ما أسميناه (بالضعف العقلى الثانوى) كذا الحالات التى يكون فيها ، مصحوبا بأمراض جسمية تحتاج العلاج ، وأهم النواحى التى يكون فيها العلاج الطبى فيها بعض القيمة ما يأتى : -

(١) حالات الضعف العقلى الذى ترجع أسبابه إلى اضطرابات فى إفرازات الغدد الصماء والتى يمكن فيها إعطاء خلاصة الغدد منذ الطفولة وقد ثبت نجاح هذا العلاج خاصة فى القزامة .

(٢) حالات الضعف المصحوب بالزهرى فلابد من علاج الأم والطفل منه ولا يؤدى العلاج لأكثر من إيقاف المرض فى تقدمه وبالتالى يوقف استمرار تناقص الذكاء ، ولكن من النادر أن يؤدى العلاج إلى زيادة الذكاء .

(٣) إجراء العمليات الجراحية فى بعض الحالات التى يكون السبب فيها راجعا إلى اصابات فى المخ أو حالات كبر الجمجمة وغيرها من الحالات بشرط الاّ يكون سبب الضعف العقلى فيها وراثيا وأيضا من النادر جدا نجاح هذه العمليات فى

تحسين الذكاء أو زيادته ، ومثل هذا ينطبق على المحاولات التى بذلت فى تجريب العلاج بالصدمات الكهربية وغيرها من الوسائل العنيفة .

(٤) إعطاء بعض العقاقير التى تساعد على تنشيط القدر المحدد من الذكاء فقد ثبت فى حالات الأفراد العاديين فى الذكاء أن أخذ كمية مناسبة من الكافين أو البنزردين يساعد على ايقاظ النشاط الذهنى بصفة مؤقتة ، ولكنه لا يساعد على تحسين الذكاء الفطرى وقد أجرى بعض علماء الطب النفسى سنة ١٩٤٦ وسنة ١٩٤٨ تجارب على استعمال الحمض الجلوتيمى qloma tic acid كعلاج لضعاف العقول فوجد أنه يفيد فى حالات الضعف العقلى المصحوب بالصرع حيث يوقف نوبات الصرع وينظم النشاط العقلى بما يساعد على تحسين الذكاء على أن هذا التحسين لا يمكن أن يزيد على بضع درجات .

من يريد الاستزاده يراجع : -

(١) عيادات العلاج النفسى للدكتور خليفة بركات .

(1) The sub nozndl mind by Bur.c .

(٢) مشكلة التحليل فى مصر المستشار محمد فتحى .

(2) Natienal associa lion for mental heqlth...

(3) Tredgold a . f mental deficiecy

* * *

الفصـــل الخـــامـــس

الملكـــات النفسيـــة

- العباقرة ، الشعور عن بعد ، الرؤية عن بعد ، الاستيحاء الباطنى .
- استطلاع المستقبل ، استطلاع الماضى ، الكشف الإشراقى .
- ما هو الزمن
- الوعى الكونى ..
- أمثلة حية على ذلك ...

الملكات النفسية :

بعد أن تناولنا فى الفصول المتقدمة ، حالات الشواذ فى الضعف العقلى ، وقلنا أن العلاج فيها لا يجدى إذا كانت فطرية ، ويجدى إذا كانت (ثانوية) ليست أصلية كان تكون حدثت نتيجة مؤثرات ، يمكن دفعها ولو بعض الشىء ، وفصلنا هذا الموضوع تفصيلا ، نعود بعد ذلك إلى عجائب (الملكات النفسية) لنرى قوى فوق المعتاد ، قد نصف أصحابها بالجنون أو بالكذب ، ولكنها فيهم حقيقة ، وكما أن اقتضاء وجود الخليقة استلزم وجود النقص فى بعضها ، فلابد أن يستلزم وجود القوى فى البعض الآخر ، إذا وضعنا خطا حياديا (وسطا) بين السلب والإيجاب ، وإن كان (الوسط) خير الأمور ، ولكن بارىء هذا الكون يعطى لنا الأدلة الكافية ، أنه يخلق ما يشاء ويختار ، وقد تنتفى لديه الأسباب المعروفة لنا إذا أراد ، فخواص المواد بالنسبة إلينا أسباب نتعلل بها ولكن بالنسبة للخالق جل شأنه يعطل السبب إذا شاء (لا معقب لحكمه) وقد رأينا بعض الناس فيهم ملكات غريبة ، وبالتجربة وجدنا صدق ما يقولون ، فدارت بحوث العلماء حول دراسة هذه الملكات وتعليلها ، وكل له وجهة نظر ، وبعض الناس عدها نوعا من القداسة أو الولاية ، والولاية كما جاء فى القرآن الكريم فى سورة يونس وصف الأولياء كما يقول الله تعالى ﴿ إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ فمقتضى الولاية الإلهية الإيمان والتقوى ، بينما الذين تظهر عليهم هذه الملكات النفسية قد يكونون من أفجر الناس ، ومن أبعدهم عن الله ، فما السر فى هذا ؟ ، فهى إذن ليست علامة ولاية ولا دليل قداسة ، إنها حواس زائدة يهبها الله لبعض عباده كما جاء فى القرآن الكريم ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ . وهذه الملكات النفسية من أشهرها : قراءة الأشياء من ملامسة بعض متعلقاتها كمنديل أو قلم . وهنا سنتكلم عن العباقرة :

الشعور على البعد Telepathy والتوجيه على البعد Telagraphy التنويم المغناطيسى Magnetism تفسير الأحلام الاستيحاء الباطن Automotism

استطلاع المستقبل Precognation استطلاع الماضى Retrocoimoyion الكشف Cluirnoyance الاتصال بالعوالم الأخرى كتحضير الجن أو العفاريت (الأرواح الهائمة) .

وكل هذه الملكات قديمة ومعهودة فى جميع العصور وفى القبائل البدائية ، وفى بعض الحيوانات كما أنها تمارس فى أرقى الجامعات ، وبين الأبيض والأسود والأصفر والأخضر من الناس ، وفى جميع الديانات الوثنية ، والحيوانية والسماوية ، والذين يعبدون الآباء والأجداد والبراكين والنيران ، والقبور ، ومن الغريب أن يدعى (كهان هذه الوثنية) أنهم مؤيدون من قبل (الوثن) بهذه العلامات التى تبدو ظواهرها عليهم ويستغلون ذلك ليأخذوا مراكز الوساطة بينهم وبين الخالق إذا كانوا يؤمنون به سبحانه وتعالى ، ومركز الألوهية إذا كانوا لا يؤمنون بوجود الخالق جل وعلا ، وهذا أحد الفراعنة يقول لقوله ﴿ يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ وكانت بعض الدول الشرقية إلى وقت قريب قبل إلقاء قنبلة هيروشيما ، تعتبر مجرد رؤية الإمبراطورية أو رفع النظر إليه جريمة كبرى ربما يعدم صاحبها .

هذه الملكات النفسية منتشرة ربما كان أكثرها تشيعا وثابتا ومعروفا هو مسألــة (الشعور عن بعد أو ما يسمون ظاهرة (التلبانى) وقد قابلت كثيرا من هؤلاء فوجدت هذه الملكات فيهم ، ولكنى أقنعتهم بأنهم ليسوا من الأولياء [١] ، وأن هذه النعم ظواهر يعطيها الله لمن يشاء من عباده والله سبحانه وتعالى يكرم عباده جميعا بكرامات دنيوية ودينية ، فالكرامات الدنيوية مثل سعة الرزق والقبول عند الخلق ، وتيسير الأسباب تعطى للمؤ من وغير المؤمن ، والكرامات الأخروية ، لا تعطى لغير المؤمن ، ولا يستجاب طلب الآخرة إلاّ للمؤمن فقط ، وفى دعاء الملائكة إلى الله سبحانه وتعالى للمؤمنين كما جاء فى سورة المؤمن ﴿ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ﴾ فكرامة المؤمن التى تدل على ولايته تركه السيئات وحمايته منها ، لا الغنى والمجد فى الدنيا ، قال عليه الصلاة والسلام ما معناه ﴿ إذا أحب الله عبدا حماه الدنيا كما يحمى أحدكم مريضه ﴾ ولقد دعا إبراهيم عليه السلام الله فقال كما جاء فى سورة البقرة الأية ١٧٥ ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلد آمنا وارزق اهله من الثمرات من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ طلب أن يرزق المؤمن فقط ، فأجاب سبحانه وتعالى عليه

(١) للولى علامات ظاهرة وهى اتباع ما جاء فى الشريعة ، وعلامات باطنية (الإيمان الصادق) لا يعلمه إلا الخالق ، فنحن نحكم بالظاهر ، ولا نعرف الباطن ، فنكله إلى الله تعالى فهو العليم بعباده .

بقوله ومن كفر فأمتعه قليلا ، إذ أراد إبراهيم عليه السلام أن يرزق الله المؤمن فقط أجابه الله بأنه سيمتع المؤمن ، والكافر فى الدنيا ، أما الأخرة فهى خاصة للمؤمنين فقط ، أقول هذا بالنسبة لهذه الكتب الكثيرة التى يؤلفها سدنة القبور ، ويفترون على الله كذبا بافتعال معجزات لم تعط للأنبياء ، وأن هؤلاء المقبورين ، يقولون للشىء كن ، فيكون وأنهم وكلاء على عباد الله فى الأرض ، وأنهم أهل التصريف فى الكون ، وهكذا تنتشر هذه الكتب ويؤلفها علماء يقال عنهم بأنهم أجلاء ، ولو رجعت إلى (طبقات الشعرانى) وطبقات (المناوى) والجواهر لعبد الصمد ، والولاية للحكيم الترمذى ، وعجائب البحار للسيوطى ، والأقطاب الأربعة لبعض المؤلفين ، وغيرهم لهالك ما فى هذه الكتب ، ولاعتقدت اعتقادا جازما بأن هؤلاء وضعوا أنفسهم موضع الألوهية الخاصة بالله سبحانه وتعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ .

لقد استرعت ظاهرة (التلبيبثى) قراءة الأفكار ، أنظار الباحثين النفسانيين فى أوائل القرن التاسع عشر ، وكان كثير من الناس تظهر عليهم هذه الملكة النفسية ، فحظوا من بعض الملوك بأكثر من الاعتبارات المعروفة حتى جعلوا منهم مستشارين سياسيين وحربيين ، وأن من أسباب سقوط دولة (الخلافة الإسلامية) فى تركيا بالرغم من أن الخلفاء الأول من آل عثمان نشروا ألوية الإسلام خفاقة فى ربوع أوربا وهضابها وسهولها ، من حوض الدانوب إلى نهر الدون والدنيبر شمالا إلى جزر البلقان جنوبا ، فما ابتدأت الدولة تضعف أولاً إلاَّ من كثرة الإقبال على الرقص والطرب والملاذ الدنيوية الرخيصة ، والجوارى الراقصات الفاتنات ، وما يسمـــونه (بالفن الجميل ، الذى يعتمد كل الاعتماد على المرأة والجنس) والذى مع الأسف انتشر انتشارا بعيد المدى فى (البلاد المفروض فيها بحكم دينها الإسلامى أن تجابه هذا الفسق ، حتى بلغ من بعض العلماء الذين يشغلون مراكز دينية حساسة أن يفتى (بأن رقص الباليه حلال) ويقول ، لم أر فيه أى عيب ؟! ...

وثانيا امتلأ قصر الخليفة التركى ، بالدراويش ، وكان فى بعضهم بعض هذه الملكات النفسية فاغتر بهم واستسلم لهم ، وصدق أكاذيبهم بأن رسول الله ﷺ

يزورهم ليلا ونهارا وأن الخضر وليهم وملهمهم العلم الباطنى اللدنى [1] ، وانتشرت هذه الخرافات ولا زالت دولتها قائمة وكهانها أحياء فمشت دولة الخلافة على نهج هؤلاء ، فأصبحت دولة مريضة قضى عليها اللاَّ دينى مصطفى كمال ، وتفرنج علنا ، وسب الدين وترك العروبة تنعى من بناها ، واضطهد أصحاب العمائم ، وأمر بترك الحروف العربية .. إلخ وسارت تركيا على منوال هذا الخارج على دينه ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ سورة هود ١١٧ .

قد تواترت أحاديث فى الشعور على بعد ، فرويت روايات كثيرة فى جميع الأمم يتفق رواتها فى أقوال متقاربة ، وفحواها أنهم يستحضرون فى عقولهم صورة شخص من مدة طويلة لم يروه فإذا بهم يفاجأون بمثوله بينهم ، أو يقلقون ويفيض بهم القلق ، ولا يدرون لذلك سببا معقولا ثم يعلمون بعد ذلك أن إنسانا عزيزا عليهم كان فى ضيق أو مصيبة شائكة ، أثناء ما كان للقلق قدر كبير استبد بنفوسهم ، وقد يسمع فريق من الناس هاتفا يهتف باسمه ثم يلقى لهم ببعض كلمات فيعلمون بعد ذلك أن هناك مريضا غائبا من وعيه كان يناديهم مستغيثا أو متضجرا إليهم ، وإنه لمن الندرة بين الناس ألاَّ تسمع مثل هذه الروايات والتى يحيلها بعضنا إلى الخرافة أو الوشوشة .

وقد قام بتجربة الشعور عن بعد جمهرة من الباحثين ، منهم المؤمن بعلم النفس ومنهم الملحد الذى لا يؤمن إلا بالمادة ، ومنهم المتدين الذى يلتمس لهذا الشعور علة من العلل [2] .

والنفسانى الكبير (وليام مكدوجل) قال فى خطاب له فى رياسة جامعة البحوث النفسية بأمريكا (إنى اعتقد أن (التلباثى) وشيك جدا أن يتقرر بصفة نهائية فى

---

(١) وهكذا اجترأت كل دولة ادعت الإسلام وسارت فى طريق الدروشة وما يسمونه الفن ، لن ينصرها الله ، وانظر حولك ... والله إنى سمعت صوفيا يعظه فى الجامع الأزهر فى الستينيات ، ويقول إن شيخه كان يحارب الأعداء بالسبحة التى فى يده ، هو الآن مدفون فى القاهرة يقصده عابدوه ومريدوه ..

(٢) يعمد الوثنيون إلى ادعاء كل من ظهر عليه مثل هذه المواهب ، أنه ولى ، مهما كانت سيرته سيئة وينسبون إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه حديث صدق - يا سارية الجبل - وعلى فرض صحته فهى قوجة نفسية أو نوع من أحلام اليقظة تحدث لكثير من الناس ، وعمر رضى الله عنه من أشد الناس محاربة للخزعبلات ...

عداد الحقائق المعترف بها علميا ، وفى سنة ١٩٢٧ قال الدكتور ت . و . متشل فى خطابه فى المعهد البريطانى " لابد من الاعتراف بالتلباثى أو بوسيلة من الوسائل التى قد نسميها الآن خارقة للعادة " لأننا إذا انكرنا وقفنا حائرين بين يدى الظواهر المعززة بأدلة الثبوت مما لا نستطيع له نفيا ولا تعليلا ، والكاتب الأمريكى إبتون سنكلر يؤمن بالفلسفة المادية دون غيرها يجرب الشعور عن بعد بينه وبين زوجته على ملأ من الشهود والمتعقبين ، ويقرر أنه أجرى مائتين وتسعين تجربة منها ثلاثة وعشرون ناجحة والباقى نجحت بعض النجاح ويقول الدكتور ولتر صاحب كتاب ما وراء المعرفة المألوفة Boyend mormal coqnition أن بعد سنوات من التجارب فى تفسير مئات من الألغاز الإنسانية التى تشتمل على الغش المقصود وغير المقصود وعلى الوهم والضلال أسجل هنا اعتقادى بأن سنكلر وزوجته قد أقاما الشواهد إقامة وافية على الظاهرة المعروفة (بالتلباثى) .

وقد كانت تجارب سنكلر يدور معظمها على الرسوم والأشكال ، فيطلب من بعض الحاضرين أن يختار له شكلا هندسيا أو حيوانيا ثم يحصر ذهنه فيه وزوجته فى بلد آخر تتلقى عنه شعور فى هذه اللحظة فإذا هى ترسم الشكل بعينه ، وقلما يكون هناك اختلاف ملحوظ وقد سمى سنكلر هذه الظاهرة بظاهرة الإشعاع الإنسانى .

ومن أصحاب التجارب فى هذه المسائل جوزيف سيتل صاحب كتاب الحاسة السادسة فقد نسب لهذه الحاسة المفترضة القدرة على الكشف والتلقى والإحياء وما شابهها من الصلات النفسية ، من طريق الحواس الخمس ، وهو يقرر إن الأجسام المادية يمكن ان تحس من بعيد لأنها تبعث حولها ذبذبات متلاحقة تسرى إلى مسافات بعيدة ، وقد تخترق الحواجز كما تفعل الأشعة السينية ، وأن هناك حواس تلتقط هذه الموجات كما يلتقط الراديو التموجات الصوتية (الموجة الكهربية المغناطيسية) ويعلل أيضا ذلك بقوله (أما الإنسان وسائر الحيوانات الفقارية فهى تعتمد على الجسم الصنوبرى فى الدماغ) للشعور بالأشياء التى لا تنتقل إلينا بحاسة النظر أو الشم أو السمع أو الملامسة ، ويستبعد الأستاذ ستيل ، أن يخلق هذا (الجسم الصنوبرى) فى الدماغ ويترك دون عمل فى جميع الأحياء الفقارية .

ماهية الجسم الصنوبرى فى الدماغ :

إن الملاحظة الدقيقة أثبتت موضع هذا الجسم فى الدماغ واختلاف حجمه قد دلت على تفسير عمله حسب اختلاف موضعه وحجمه فهو فى الأنثى أكبر منه فى الذكر وفى الهمجى أكبر منه فى المتحضر ، وفى الطفل أكبر منه فى الرجل ، وفى الحيوان أكبر منه فى الإنسان وهو قريب إلى فتحات الرأس فى بعض الأحياء التى تعول على التحسس البعيد ولا تستغنى عنه بالقياس العقلى أو بالوسائل الصناعية كما يفعل الإنسان ، وكلما انصرف الكائن الحى عن استخدام هذا الجسم الصنوبرى ضمر واقترن ضمره بضعف الشعور بالذبذبات والرسائل المتنقلة من المسافات القصيرة .

قال الأستاذ سيل ، وأما الكشف فهو إدراك الأشعة المغنطيسية المنبعثة من الأجسام المحيطة بنا والتى من شأنها أن تخترق كل جسم يعترضها بدون حاجة إلى الاستعانة بأى عنصر من أعضاء المعرفة (من الحس) (١) والكاشف ، هو كل من يستطيع أن يضبط جانبا من مخه ويعده لاستقبال الإشعاع الصادر عن الحاجز شأنه فى ذلك شأن الجهاز اللاسلكى الذى يضبط لكى يستقبل موجة منبعثة من محطة ما مع استبعاد كل موجة أخرى سواها .

وقد قال العالم الطبيعى الفرنسى (جان هنرى) أنه وجد (يرقة) - نوع من الحشرات - فحملها إلى منزله ووضعها داخل صندوق فى غرفة مكتبه وبينما هو جالس ذات يوم إذ دخل عليه خادمه فزعا وأخبره أن غرفة مكتبه امتلأت بفوج كبير من الذباب الضخم ، فلما ذهب ليرى ذلك وجد أن يرقته وكانت أنثى يحوم حولها عدد كبير من ذكورها ، وأنها جاءت من مكان سحيق ، لعدم وجود هذا النوع فى هذا المكان ، فأغلق النافذة وأمسك بها جميعا وكن خمسة عشر ذكرا وأراد أن يعرف هل استعانت بحاسة الشم أم لا ، فنزع عنها هذه الحاسة ووضعها فى كيس ونقلها إلى غابة بعيدة وأطلق سراح الذكران جميعا ولكنها لم تلبث بعد الغسق أن شوهدت كلها متجمدة فى حجرة مكتبه لم يتخلف واحد منها عندئذ أيقن أن حاسة الشم لم تكن النبراس الذى اهتدت به الذكور إلى الأنثى ، والأستاذ (سيسل) لا

---

(١) كتاب الموجات العقلية لسرجيوس .

يتأثر فى إثباته القدرة على الكشف والشعور عن بعد بما يقوله علماء الأرواح [١] أو علماء العقل المجرد إنه لا يعتمد فى تجاربه إلاّ على التعليل الجسدى والأبحاث الطبيعية .

ولقد سبقه إلى التنويه (بالجسم الصنوبرى) فيلسوف كبير معروف هو (ديكارت) الذى يلقب بأبى الفلسفة الحديثة فإنه اعتقد بأن الجسم الصنوبرى (فى الدماغ هو الموصل بين الروح والجسد أو هو موضع التلاقى بين حركة الفكر وحركة الأعضاء). أما الذين يعتقدون أن الجسم الصنوبرى غدة منظمة للوظائف الجنسية أو اطوار النمو الآخرى ، فالأستاذ (سيسل) يرد عليهم قائلا : إذا كان هذا الجسم غدة وظيفتها تنظيم التطور الحيوى أو الأمور الجنسية كما يقولون فكيف صح أن يكون مقره وسط المخ بين المراكز التى تستقبل المرئيات ، ولماذا هو محمول على ساق ، لماذا يوجد فى الفقاريات الدنيا [٢] فتحة تشبه النافذة فى الجمجمة ، إن هذا يدل على امكان الإتصال بالتحسس بما حولها بقدر المستطاع هذه التجارب التى أجراها (النفسانيون) لإثبات حاسة الاتصال عن بعد .

يقول الأستاذ عباس العقاد فى كتابة (الله) ص ٤٥ ، إننا إذا رجعنا إلى أنواع التجارب التى سجلها النفسانيون لم نستعن بفكرة الإشعاع ، ولا بفكرة الجسم الصنوبرى عن تعليل آخر يتصل بالعقل أو الروح ، ويبدو أن المغفور له عباس العقاد ممن يؤمنون بتحضير الأرواح ، وإن كانت صداقتى له فى المجمع اللغوى فى الستينات ونقاشى معه جعلنى أؤمن بأن هذا الرجل كثيرا ما يتنازل عن رأيه إن قرأ أو سمع ما يجعله يرحب بهذا التنازل ، وأرى أنه اقتنع فى هذا الباب بفعل الروح لا باستحضارها ، أو مغادرتها الجسد بالانفصال المؤقت بالحبل السرى الذى يدعيه علماء الأرواح ، أنه يقصد رحمه الله أن الروح تشرق مع العقل لترجمة هذه الرسالة المذاعة بنقل المجسمات والمحسوسات ولكننا لا نفهم كيف ينقل الفكرة أو الصورة المتخيلة ، فإذا تذبذب الشعاع بحركة الكلمات الملفوظة وصلت هذه الكلمات بحروفها وأصدائها إلى جهاز التلقى فنسمعها كلمات كما فاه بها المتكلم

---

(١) أنهم يقولون بالانفصال الروحى المؤقت ؟

(٢) الدنيا : البدائية التى تستعمل حواسها فى الصيد والهروب من الموت الذى يترصد لها فى الغابة .

من محطة الإرسال ، ولكن الفكرة التى تنقل إلى الدماغ لا تتحول إلى كلمات بحروفها وأصدائها ، ولا يحدث حين انتقالها هزات أثيرية كالكلمات فكيف تنتقل الفكرة بالأشعة ؟! وإذا فكر فى أخذ صورة هندسية أو حيوانية فكيف تصبح هذه الصورة حركة إشعاع كحركة المذياع ، فإذا أثبت الكشف والشعور على البعد بالتجربة التى لا شك فيها فلابد من " الأشعة العقلية أو الروحية لتعليل ذلك " وهذا القول المبين شاركه فيه ، وقد قلت مرارا إن الجسم والنفس لا تستغنيان ابدا عن إشراق الروح ، فالحركة والتفكير والتصورات كلها أحداث روحية تقوم بها أجهزة الشعور واللاشعور ، والعقل أيضا خاضع للأشعة الروحية ، كل ذلك نؤمن به ، ولكن لا نؤمن مطلقا بفلسفة الذين يقولون إن فى الإمكان استحضار الروح من جثة أخرى ، أو من عالم الخلود إلى عوالم الدنيا الفانية ، وإلا فنحن بهذا الرأى نبعد بعدا سحيقا عن مهمة جهة الرسالات السماوية التى أثبتت الثواب والعقاب والخلود فى الجنة أو فى النار ، وأن الأمم كانت تطلب من الرسل عليهم السلام إحياء موتاهم ليسألوهم عن الحياة الآخرة ﴿ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ وإن مهمة الإحياء وبعث الموتى فى أرواحهم لم تؤت إلا لعيسى عليه السلام ولم تكن بصفة استمرار بل أحياء بعض الموتى الذين شهدوا له بالرسالة وأماتهم الله فورا قال تعالى فى كتابه العزيز – سورة آل عمران آية ٤٨ – ﴿ إنى قد جئتكم بآية من ربكم إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمة والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ﴾ .

أما الإشراق الروحى (فى العقل والنفس) فذلك أمر مسلم به ، فإذا ثبت الكشف والشعور عن بعد بالتجارب السالفة فلابد من إثبات الأشعة العقلية ، ويلاحظ ما يأتى : –

إن أصحاب القدرة على التلقى ، إنهم يشذون عن المعهود فى غيرهم وأن هذه الملكة لا تحيا فيهم كما تحيا الأعضاء بل تحيا كالعبقريات الخالدة الخلاقة للفنون والخيال والشعر ، وإن الذى يمتاز بها لا يكون أقرب إلى الحيوان بل أقرب إلى المثل الإنسانية التى تتجافى كثيرا عن الغرائز الحيوانية والنوازع الجسدية ، ولا يمكن أن أقبل هذا الرأى على عواهنه ، فإننا وجدنا كثيرا من ذوى هذه الحواس يغرقون فى لذات إلى أذقانهم ، وفيهم ألف المؤلفون يخبروننا عن مدى قدرتهم على الشعور

عن بعد وقراءة الأفكار ، وليسوا جميعا أصحاب مبادىء سليمة ، وفى كتاب (بدائع الزهور) جرى بين الرشيد وإحدى محظياته حوار ليلا ، وواعدته الصباح ميعادا فأخلفته فدخل عليه أبو نواس ، فحدثه شعرا عما حدث له ليـــلا معها [1] ...

حتى تظرف بعض المتظرفين فقال :

قلوب العــاشقين لهـا عيـــون تــرى مـا لا يــراه الناظـــرون

والقائلون بخرافة هذه الظواهر ، وخرافة الجسم الصنوبرى لهم أراء فى ذلك فلا بأس من إيرادها يقولون ، إذا كان الجسم الصنوبرى متلقيا للحس على أسلوب العين والأذن والأنف ، وجب أن تتساوى عنده جميع المرسلات فلا يميز ذبذبة عن ذبذبة ولا مكانا عن مكان ، ووجب عند جلوس عشرة فى بقعة واحدة أن يتلقوا جميعا صوت الاستغاثة المنبعث من الأماكن القصية ، ولا يقال إن الذى يعنيه الخبر هو الذى يسمعه فقد يكون حين ذاك بعيدا فى تفكيره وتصوره عن مثل هذه الأخبار غافلا عن رسالة صوتية تأتى إلى ذهنه من أى جهة ، فهو يفاجأ بها فى ذهنه ، ومن الغريب أن يكون فى كل جسم (هذا الشكل الصنوبرى فى الدماغ وإلأ يحس بهذا الإحساس إلا بعض الناس وأن المعروف أن الذبذبات دائمة الانبعاث ولا تنقطع من الكائنات ثم تنحصر ظواهر الكشف أو الشعور من بعد فى آحاد معدودين ، ولا يصح أن يقاس هذا على محطة الإذاعة حيث يوجد (المرسل ، والمستقبل) وأخيرا ، أتفق أصحاب هذه المدرسة الفكرية على أن تجارب الشعور من بعد وما جرى مجراه وهم من أوهام العقيدة ، وأنها خرافة متفق عليها فلا تستحق الجد فى دراستها من طلاب الحقائق ، وللرد على ذلك نقرر .

إن التنويم المغناطيسى أثبت من الشعور على البعد وأشيع منه وأقرب إلى التصديق والتعليل ، وهو فيما نرى يعرض لنا أمثلة كثيرة لا نصادفها فى ظاهرة الشعور على البعد لإثبات الاتصال العقلى بوسيلة غير وسيلة الذبذبات ، واستخدام الأجسام الصنوبرية ، لأن النائم فى التنويم المغناطيسى يتلقى عن منومه صورا لا يتأتى تعليلها بالأشعاع أو ما شابهه من التيارات المادية ، وكثيرا ما تكون

---

(١) وأبو نواس معروف بمجونه ، لكن كانت له حواس زائدة .

الوسائل فى التنويم المغناطيسى قائمة على تخيل لا وجود له فى عالم الحس ، ولكنه ينتقل إلى ذهن النائم لأن المنوم ، لقنه وأمره بتلقيه وتصديقه ، وهو يرى ما فى خيال غيره ، ولو كان معه فى حجرة واحدة ، وقد تعددت تعليلات الاتصال بين فكر وفكر بالوسائل المغناطيسية ، ويكفى فى التجارب المتواترة أن يلقى المنوم نظرة على كلمة مكتوبة أو صورة مرسومة أو يستحضر الكلمة أو الصورة فى خلده ليراها النائم كما يراها المنوم ، أى أن ظاهرة التنويم المغناطيسى أثبت رجحان الحقيقة العلمية بالتجربة المشاهدة عن الخيال الجامع الجانح الخرافى ، فإذا كنا قد آمنا بالتنويم المغناطيسى حقيقة بعيدة عن الخرافة ، فما المانع أن نؤمن بالظواهر الأخرى ، حتى ولو لم نصل إلى قرار نهائى فى تعليلها علميا ؟! .

ومما لا نزاع فيه أن من حق الفكر الإنسانى أن يقبل هذه الظواهر أرجح من إنكارها ، والقول باستحالتها .

أذكر ثلاث حوادث حدثت لى تنبىء عن قيام هذه الظواهر فى المجتمع لأناس مخصوصين .

(١) حوالى سنة ١٩٥٧ كنت أعمل مدرسا بالمدارس الإعدادية فى إحدى القرى القريبة من منيا القمح شرقية فاعترتنى مشكلة ذات بال ، شعرت بضيق شديد وكراهية للحياة وأمنية ملحة للموت ، وكنت أسير فى أحد شوارع منيا القمح هذا البلد المكتظ ، بالمارة ، والازدحام على أشده فإذا برجل يخالطه بعض الشيب يلبس جلبابا وعمامة بيضاء ، وجاكت فى نفس اللون ، يمد الخطى ويسرع فى مشيته ، وعندما أتى نحوى زعق بصوته عاليا قائلا (ولا تبيتن إلاّ خالى البال) فاهتززت لهذا القول وشعرت بالراحة النفسية ، ولم أجد الرجل فقد اختفى عن الأنظار مسرعا ، وسألت عنه بصفته التى رأيته فيها فلم يدلنى عليه أحد ...

(٢) حوالى سنة ١٩٦٣ ، تعقدت مسألة غاية التعقيد ، وأصبحت فى حيرة وقلق شديدين ، وزهقت نفسا وصدرا ، فإذا بى أفاجأ فى ميدان السيدة زينب فى القاهرة ، بأفندى نحيف ، مكتمل زى البدلة لابسا الطربوش الذى خلعناه أخيرا قبل العام المذكور ، يأتى إلى أذنى وأنا سائر فى الطريق ويهمس، قائلا الموضوع انتهى كما ترجو فى المكان الفلانى ... وكان قوله حقا .

(٣) كنت أسير فى أحد شوارع العاصمة ودار الهجس فى نفسى حيال موضوع معين أخذت فيه قرارا ، فإذا بى أرى رجلا يظن من يراه أنه عامل من عمال البلدية ينظر إلىّ ، وهو جالس على الأرض ويقول تمام . تمام .. يا عبد الكريم ..

هذه الظواهر كثيرا ما ألتقى بأصحابها ، وقد رأيت كثيرا منهم لا يعتنى بأوامر الشريعة وبعضهم كان يصرح لى بأنه من أهل الحقيقة ، أى أنهم يفعلون كيفما يشاءون وهو عذر يعتذرون به أو تبرير فاسد لما هم فيه ، ويصفهم الناس ، ويقولون عنهم سكارى فى حب الله وأن التكليف رفع عنهم لسكرهم ، وكثيرا ما قرأنا فى تواريخ هؤلاء المجاذيب الذين يحج الناس إلى أضرحتهم فى مواسم العام كله هذه الخرافات (اللدنية) التى يدعونها ، عاتب بعض الفقهاء فى القرن الثالث عشر ، طاغوتا من هؤلاء الطواغيت افتتن الناس به على عدم صلاته فأنشأ قصيدة قال فيها :

يقولون لى تركت صــــلاتك ولم يعلموا أنى بمكة سجـدتى

أصلى صلاة الخمس فيها دائمـا مع السادة الأقطاب أهل الطريقـة

والاطلاع على المستقبل ، وإن كان لم تثبته تجربة علمية ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم باستحالة ذلك ، إذا فهمنا حقيقة الزمن وحقيقة المستقبل ثم جزمنا بأن هذه الحقيقة تناقض العلم إنها محاولات لا تصل إلى غيب الله المطلق .

ما هو الزمن :

نحن نتخيل الزمن كأنه شىء مفقود ، يأتى منه شىء بعد شىء ، أو كأنه بحر يزداد قطرة ، بعد قطرة أخرى ، ويمتلىء شيئا فشيئا ، أى نتخيله معدوما بالنسبة لنا ، يقول عباس العقاد فى كتابه (الله) ص٥٠ وتارة نتخيل الزمن كأنه محيط شامل لما كان وما هو كائن وما سيكون ونحن نتقدم فيه كما يتقدم المسافر فى أرض يراها بعد أن تقع عليها عيناه ، فالمستقبل فى هذه الحالة موجود ولكننا نحن لا نراه إلاّ حين نصل إليه ، وتارة نتخيل الزمن ، كأنه خط ، ممتد والأوقات المتتابعة كالنقط فيه ... وتارة ، وتارة ، وأخيرا يذهب العقاد إلى أن الزمن الجائز أن

المستقبل ينكشف لعقل الإنسان من إحياء العقل الأبدى [١] المطلع عليه كما يطلع على ما حصل وما هو حاصل بلا اختلاف ، فالذى يجزم باستحالة الاطلاع على المستقبل ، عليه أن يجزم بالصورة الصحيحة للزمن ويجزم بأنها لا توافق الاعتراف بوجود المستقبل ، ويقول اينشتين : إن الزمن ماضيه وحاضره ومستقبله كائن موجــود ، إنما الإنسان ينتقل بين نقطة ونقطة ، فهى حاضره إليه فى ممارسته لها وهى ماضية بعد أن يتركها ، ومستقبله إذا لم يأت إليها لممارستها - أنظر الفصل الخامس ، عن فلسفة الزمن .

ويقول أبو حامد الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين الجزء ٣ ص ١٨ : -

ولنرجع إلى العرض المقصود فنقول القلب ، قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس ، وتارة من اللوح المحفوظ ، كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها ، وتارة من النظر إلى الماء ، الذى يقابل الشمس ويحكى صورتها فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه ، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض ، ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ ، ويقول الغزالى أيضا ما موجزه - أما انفتاح القلب إلى الحواس فهذا شىء معلوم ، وأما انفتاحه إلى عالم الملكوت (مطالعة اللوح المحفوظ) فنعلمه علما يقينا من غرائب الرؤى واطلاع القلب على ما سيكون فى المستقبل ، أو كان فى الماضى من غير اقتباس ، من جهة الحواس ، وإنما ينفتح ذلك لمن انفرد بذكر الله لقوله عليه الصلاة والسلام ، سبق المفردون قيل ومن هم المفردون يا رسول الله ، فقال المتنزهون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم ، فوردوا القيامة خفافا ، ثم قال الرسول ﷺ وصفا عن الله سبحانه ، ثم أقبل بوجهى عليهم أترى من واجهته بوجهى يعلم أحد من شىء أعطيه ثم قال تعالى أول ما أعطيهم أن اقذف النور فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبــر عنهم [٢] .

---

(١) هذا القول مأخوذ من فلسفة اليو ان ، بأن هناك «العقل العام» وهذه نظرية لم يقرها الإسلام ، إلا إذا كان القصد به هو الله سبحانه وتعالى - وأقول ، أنه تشبيه سخيف ، ومجاز مرذول ..

(٢) الحديث ، رواية الحاكم ، والبيهقى فى الشعب ، والطبرانى ، وهو ضعيف .

وهكذا يرى فيلسوف الصوفية ، أن صحة طريق التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعليم بل من القلب ، ولست بصدد مناقشة الغزالى فى هذا الموضوع الذى يجابه قوله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وإن جميع الأمم والديانات ترى الرؤيا الصادقة ، وأن الفرق الأسلامية التى جاوزت سبعين فرقة أونيف ، وبعضها يكفر البعض الآخر ، يرون الرؤى أيضا ، وليست الرؤى خاصة بطائفة دون طائفة ، إنها كما قلت كرامات دنيوية ، وأن الموضوع ليس اطلاعا على اللوح المحفوظ ، فإن بعض الطيور والحيوانات والهوام والحشرات الأرضية تتنبأ بالزلازل والبراكين ، فتهجر من بقعة إلى آخرى ، وأن الله سبحانه وتعالى زين الدنيا لمن فيها ، ودعا الكل إليه فاستجاب له المخلصون ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون [1] لهم البشرى فى الحياة الدنيا ﴾ .

الوعى الكونى :

يطلق الوعى الكونى على كل « وعى يتجاوز آماد الحواس المعهودة » . وهو على ضروب كثيرة يبحثها العلماء فى العصر الحاضر ، ولا يقطع أحد باستحالتها وقلة جدواها ، ولكنهم يتفاوتون فى تقرير نتائجها وتعليل هذه النتائج ، ويتركون الأبواب مفتوحة للباحثين ، وبعد ، فليس لأحد أن ينكر شيئا لأنه لا يدركه بحاسته التى تعود أن يدرك بها الأشياء فالموجودات ، أعم من المحسوسات ، والكون مملوء بالعجائب ، ومن الواجب أن نسلم بقيام موجودات لا تحيط بها الحواس والعقول لأن إنكارها جهل لا يقوم على دليل ، ولأن وجودها ممكن وليس بمستحيل ، فمما لا شك فيه أن الكون أكبر مما تتصوره عقولنا ، وأن وعينا له لازال بدائيا ، وفى كل يوم يزداد هذا الوعى ، ونراه الآن خرافة ، أو نقف منه موقف الشك ، وغدا يكون حقيقة بالأدلة القوية ، وقد كانت الأرض فى غابر الزمن تعتبر مركزا للكون ، وبنيت النظريات الكثيرة على ذلك ، فلما تقدم الوعى الإنسانى إذا بها بعد الاكتشافات الحديثة ، وتقدم علم الفلك والرياضيات ، هباءة حقيرة فى الكون إذا قسناها بأى كوكب آخر قد تزيد مساحته عنها ملايين المرات ، وصدق قول الرسول عليه الصلاة

---

(١) البشرى ، النصر فى الحياة ، أو البشرى عند الموت بأن الله راض عنهم ، أو الحياة الطبيعية التى ييسرها الله له أو حسن الخاتمة .

والسلام (لو كانت الدنيا تزن جناح بعوضة عند الله ما سقى الكافر منها جرعة ماء) أو كما قيل عنه ...

وكذلك فبجانب الوعى (العقلى) هناك الوعى الباطنى ، تزود منه الإنسان ، وجعله دليلا من أدلة البحث حتى أن فلاسفة الصوفية جعلوه دليلا من أدلة المعرفة وهو ما يسمونه طريق الإلهام ، والوقوع فى القلب ، من حيث لا يدرى الشخص من أين أتى ، وكيف أتى ، ويقولون أن شواهد الشرع والتجارب والحكايات تؤزره أما الشواهد فقوله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهديهم سلبنا ﴾ فكل حكمة تظهر فى القلب من العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف ، والإلهام ، ويقولون من علم وعمل ، أورثه الله علم مالا يعلم ومن لم يعلم وعمل ، جهل الطريق الصحيح (١) ومن علم ولم يعمل ضل فى سيره ، وتقوى الله تجعل للإنسان مخرجا من مآزقه سواء أكانت جسمية أو فكرية أو معيشية ، أو التلبس عليه الفهم ، فى معضلة دينية وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ . أى نورا تفرقون به بين الحق والباطل ، وتحرجون به من الشبهات ، ولذلك كان ﷺ يكثر من دعائه (اللهم اعطنى نورا وزدنى نورا واجعل لى من قلبى نورا ، وفى قلبى نورا وفى سمعى نورا ، وفى بصرى نورا حتى قال وفى شعرى وفى لحمى ودمى وعظامى ، وسئل ﷺ عن قول الله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ ما هذا الشرح فقال ، هو التوسعة إن النور إذا قذف به القلب اتسع له الصدر وانشرح ، ودعا عليه الصلاة والسلام لابن عباس قائلا (اللهم فقهه فى الدين ، وفى رواية آخرى وعلمه التأويل . وقال على رضى الله عنه ، ما عندنا شىء أسَرّه النبى ﷺ إلينا إلاّ أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه ، وفى تفسير قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء . إنه الفهم فى كتاب الله .

نقول : إن الإدراك الإنسانى كما أنه فى حاجة ملحة إلى العلم والتجربة الدائمة والزيادة فيهما لا يعنى ذلك إغلاق الخواطر ، والخواطر الجائلة فى الإنسان نوع من

---

(١) هذه حقيقة ، لابد من العلم لأ عمل ، على أن يكون العالم متبعا نهج الرسول عليه الصلاة سلام ، وتكون أدلته على هذا النهج من الكتاب والسنة الصحيحة أما ما يتخذه بعض المريدين من مشايخ " يسمونهم أهل الحقيقة فالإسلام لا يعرف هذا .

المعرفة بجانب العلم والتعلم قال تعالى فى سورة النساء ٨٣ ، يقص من علامات المؤمنين وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعو به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلاّ قليلا ، فالاستنباط من نتيجة الوعى العقلى كقياس الأشباه والأمثال للوصول إلى ما يريده الله ورسوله ، أما الإعراض عن العلم والتعلم والجلوس إلى الاستنباط بدون العلم ، فهذا مدرجة من مدارج عبادة العقل الذى كثيرا ما يرين عليه الهوى ، العقل يجب أن يؤيد بالعلم ، وهذا هو السبب فى إن كثيرا من الفلاسفة العقلانيين اعتمدوا على عقولهم فقط كدليل من أدلة المعرفة ضلوا وغووا ، فالعقل يجب أن يؤيد أيضا بالنقل ، لذا لزم اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما يختص (بالميتافيزيقيات) الغيب لابد له من الإرشاد السماوى ، فلا نترك للإلهام والكشف حجة فكثيرا ما تتدخل الشياطين بالوحى كما قال الله تعالى ﴿ إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ وجنّب الله عباده الآخذين بطرق الاستنباط من الكتاب والسنة ، فقال فى ذات الآية « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلاّ قليلا » .

وفى الوعى العقلى ، يقول الله تعالى فى حق سليمان عليه السلام ، ففهمناها سليمان ، وفى الحكم ﴿ المؤمن ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق ﴾ ، وفى الحديث الشريف (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) القصد ، والله أعلم ، أن المؤمن حكمه على الأشياء بما أوضحه الله سبحانه وتعالى أمر به ، فالمقصود من النور ، كتاب الله ، والمؤمن يتفرس الناس ويحكم عليهم بما حكم الله ، فهذا يصفه بالفسق لأن الله وصفه بالفسق ، وهذا وصفه بالتقوى لأنه تقى ولا يعكس هذا الوصف ، ويدعى أنه ينظر بنور الله (المقذوف فى القلب كما يتخيل) وما هو إلاّ هوى نفسه التى يبين جنبيه التى تضله ، فمثلا الحلاج ذلك الحلولى الزنديق (١) ، الذى حوكم على زندقته ، وأعطيت له الفرصة مرارا وتكرارا لعله يتوب ، وقامت الأدلة العينية على ادعائه الألوهية ، وأن المحاكمة استمرت كثيرا ، لعلها تصل

(١) لقد ألفت كتب كثيرة تحكى زندقة هذا الرجل وشيعته من الصوفية من أشهرها هذه هى الصوفية لعبد الرحمن الوكيل ، والحياة الروحية فى الإسلام لمصطفى حلمى ، وتلبيس إبليس لابن القيم .

إلى شبهة تنجيه من عقوبة الإعدام ، ثم سيق إلى تنفيذ الحكم ، فقال بيته الشعرى المعروف :

كفرت بدين الله والكفر واجب عـــلىّ وعند المسلمين قـــبيح

وأعدم ، إلى جهنم وبئس القرار ، قال دعاة زندقيته من المتصوفة ، أنه ولى من أولياء الله العظام ، وأنه باح بالسر الذى بينه وبين الله فأعدم ، ولا أدرى أى سر بينه وبين الله بعد أن يكفر بالله علنا ، ويسب دين الله ؟! [(١)] .

ألا نفهم من ذلك ؟ أن هناك فرقا إسلامية تجعل من (الوعى العقلى) زندقة وكفرا وإن كانت تتراءى الناس ، قولا لا فعلا ، بأنهم الأصفياء الأطهار ؟

ومن الأيات الكونية (التوسم) على أن يكون المتوسم ، سائرا على الكتاب والسنة حتى لا تخدعه النفس الغريزية وموحيها إلذى لا يفارقها ، الشيطان اللعين ، فبين (الغريزة والشيطان حب دونه حب قيس العامرى إلى ليلى ، أو حب السراة من ولاة الأمور فى الدول التى يسمونها الدول النامية وغير النامية للرقص والراقصات الفاتنات باسم الفن والفنانات وما أدراك ما الفنانات ، فباسم الفن ، يملكن الألاف من المجوهرات الكريمة والقيلات الفــاخرة ، والأموال الطائلة ، ولو حدث أن (لصا) قليل الأدب ، تلصص وسرق شيئا من هذه الأموال الطائلة فإن (البوليس النشط جدا) يحضره ليأخذ عقابه الصارم فى مدة قد لا تتجاوز الساعتين بعد السرقة ، إنها كرامات من كرامات الوعى الكونى ، وتوسمات من توسم الوعى العقلى ؟! ...

وقد وصف الرسول الكريم أمته فقال (إن منهم محدثين ومعلمين وملهمين وإن عمر منهم) نعم صدقت يا رسول الله ، ففى أمته الوعاة ، وفى أمته ذوو المواهب ، والقدرات العقلية ، كلها مكتسبة من لمة الملاك القابع فى النفس العليا ، لأنهم اتبعوا الرسول وعرفوا قول الله تعالى على لسان رسوله فى

(١) قام أحد الشيوعيين بعمل مسرحية له أذيعت من فترة .

سورة آل عمران «٣» ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ هذا هو معنى فى الأمة محدثون وملهمون ..إلخ

أما ذلك الملهم (الذى اتخذه الناس قطبا من الأقطاب) والذى يقول كما جاء فى الطبقات للشعرانى ص٦٦ جـ١ وتلبيس أبليس لابن الجوزى ص١٥٦ قال هذا المتوسم الصوفى أراد موسى أن يرى الله وأنا ما أردت أن أراه هو أراد أن يرانى ، ويعقب على قول الله تعالى ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ وحياتى إن بطشى أشد من بطشه ، وهكذا لو قلبت فى كتب (هؤلاء المتوسمين) أو الملهمين ، لوجدت العجب العجاب ، ولو جدت أن استشهادهم بالحديث السالف الذكر كاستشهاد المنافقين بأنهم (قالوا لا إله إلا الله) والله يرد عليهم بقوله ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ .

لقد وضحت سابقا ، إن لله نعما فى عباده ، يأخذها منهم من يشاء الله من خلقه جميعا ولكن نعمة الأيمان لا تعطى إلاً لأحبابه وأوليائه ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ والاستقامة تقتضى اتباع الرسول ، والقرآن مصرح بأن التقوى ، مفتاح الهداية والكشف [١] ، فما يقذف فى القلب ما هو إلا تَفَهُّم لما نتعلمه ويدور الخيال والفكر فى تفسيرة ، أما ترك التعلم مطلقا كما يقول أحد هؤلاء (وينسب هذا القول للبسطامى الصوفى) - ليس العالم الذى يحفظ من كتاب الله فإذا نسى ما حفظه صار جاهلا ، إنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه فى أى وقت شاء بلا حفظ ولا درس ، وهذا رأى عجيب ، فيه قطع للعلم والتعلم ، والجلوس لسماع نداء الشيطان فى خلوات النفس ، لقد كان الرسول ﷺ يستعجل نزول القرآن الكريم ليتعلم ، فعاتبه الله بقوله ﴿ ولا تجعل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربى زدنى علما ﴾ أرأيت إلى خرافات البسطامى ، ومن سار على شاكلته من الزنادقة قديما وحديثا ؟!

---

(١) المقصود بالكشف البصيرة ، لا كما يقولون رؤية الغيبيات بالبصر كما يدعون .

وقالوا إنَّ هناك علما لدنيا [1] يخالف العلم غير اللدنى ، وهذه مصيبة أخرى وموئل من موائل الكفر ، فكل علم نسب إلى الله فهو من لدنه ، فقد علَّم الله موسى من لدنه ، وعلم الخضر من لدنه ، فكل علم نافع للدنيا من لدنه ، وكل علم نافع للدين من لدنه أما الشر فلا ينسب إليه تعالى ، والقرآن الكريم كتاب الله من لدنه أيضا قال تعالي فى سورة النمل ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ إنما أريد من هذا كله دحض فرية (العلم اللدنى) الخاص ببعض هؤلاء الزنادقة الذين يستحلون به الفواحش ، والكفر والشرك علنا بلا استحياء ، ويأتون بآيات من القرآن يؤولونها ما شاء لهم الهوى ، إن العلوم كافة تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ أما الخواطر والإدراكات والتصورات فإن هدت الإنسان إلى معرفة صحيحة ودليل واضح فهى نعمة من الله ، وإن غوت الإنسان ومهدت له طريق الشر والضلالة فهى من الشيطان ، وليس هناك علم يلقى فى الخواطر بدون واسطة كما يقول الغزالى ص٢١ الجزء الثالث من إحياء علوم الدين ، وإلاَّ فسنعتبر العلماء الذين أفنوا الدهر فى السفر هنا وهناك فى سبيل تصحيح حديث أو فقه ، أو تفسير آية ولاقوا فى ذلك المشاق الكبيرة ، تراه مثلا فى حياة البخارى، والسخاوى ، والترمذى ومسلم ، والأئمة مثل الطبرى والشافعى وابن حنبل ، والأخير كان يعمل شيالا فى القافلة المسافرة فى نظير لقيمات يتبلغ بها فى سفره فى طلب العلم ، سنعتبر هؤلاء كما يريد الغزالى ليسوا بأولياء ، وإنه غفر الله له قسم أصحاب المعرفة إلى قسمين علماء ، أخذوا العلم بواسطة التعلم ، وأولياء أخذوا العلم بالتلقى اللدنى كما يقول ، والقرآن الكريم يخالف هذا ويأمرنا بالسير فى الأرض فى سبيل العلم قال تعالى فى سورة العنكبوت ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ ولم يقل سبحانه اقعدوا وأفرغوا عقولكم ودعوا الإلهام ينزل عليكم بالعلوم اللدنية ، وقد فسرنا سابقا معنى العلم اللدنى .

ولا تزال غرائز الحيوان تدلنا على ضروب من الإحساس الخفى ليس لها تعليل علمى سوى أن نقول غريزة ، كأن كل شىء لا يستطاع تعليله ننسبه إلى الغريزة ، والغريزة كلمة مبهمة والأولى ، والأجدر بكرامة العلم أن نرجع الأمر إلى قدرة الله

---

(١) كما يقول الشيخ الصاوى على هامش تفسير الجلالين ، مشيرا إلى الاتحاد والحلول بالذات الإلهية ..

فإذا وصلت إلى مقام الفنا ... فلا ذنب هناك ولا جـــرم

سبحانه وتعالى ، وأن خفيت علينا الأسباب ، ربما وضحت يوما من الأيام ، وبعد ، فان النوع البشرى ليس على أبواب محكمة ، يتخاصم بعضهم مع بعض ، وكل يتمسك بحجته حقيقة كانت أو باطلة ، بل الأحرى ، أن نقول إننا أمام (معمل تجارب الزمن نبدأ البحث فيه ونعيده ، ثم نبدأه ثانية ونعيده أمام ضوء جديد ، ولا نفتأ نفعل ذلك حتى نصل إلى حل مريح حاسم .

والواقع إنَّ الحقائق العلمية تقوم على أساس الأيجاب والسلب ، ثم الترقب للنتائج ولا تقوم على أساس التكذيب والنفى والإصرار ، وإلاَّ فإننا سنعود القهقرى إلى طفولة الزمن (البدائى) الذى كان الناس فيه يعتقدون أن الأرض محمولة على قرن " ثور " وأن الذى يعتقد أنها واقفة فى الجو كافر .

إن الكون منذ خلق ، ووجد الإنسان ، وتعقل هذا الكون بدأ يبحث ما حوله وسيظل يبحث ما شاء له البحث ، بل إن الدين الحنيف يدعونا إلى ذلك ولا يدعو الدين مطلقا إلى غلق الذهن ، والقبوع فى غرفة لتلقى الخواطر المنبعثة من الذات وهو يظن إنها أوامر الهية ، أو علوم لدنية وما هى إلا خطرفات ذهنية .

مرض الإنسان فى الأزمنة الغابرة ، فبحث عن العلاج وعن العقاقير وعن الطب ودراسة الجسم ، وجاع فبحث عن الثمرات والغلات بروح ترتقب ، إيجابا ، وقبولا ، وثبوتا ، ولا تنتقل من نفى إلى نفى ، ولو نفينا البحوث من يوم أن وعى الإنسان هذا الكون، لوقف الكون وتجمد ولما ارتقينا إلى هذه الحضارة ، التى وصلنا إليها ، وانتفعنا بفوائدها ..

إن الحواس الإنسانية لا تستوعب معنى (الوجود العميم كله) فلا زالت تحوم حول المعرفة وإن هذا الوجود المادى يقترب من عالم المعقولات والمقدرات .

والوعى الباطنى لدى الإنسان جعله يأخذ من نور الشموس والكواكب نور الكهرباء ، ولم تأت هذه النتيجة فجأة بل تدرجت من قدح الحجر إلى حك الحطب إلى فتيلة الدهن إلى غاز الاستصباح إلى نور الكهرباء .

والوعى الباطنى ، هو الذى جعله ينتقل من سماع صوت زميله بجانبه إلى أن يسمعه وبينه وبينه آلاف الأميال ، بواسطة تليفون أو راديو أو تليفزيون ، إلى آخر ما وصل إليه الإنسان ، ولم يقف عندما وصل ، فلازال ينقب فى أثار الكون ...

وسيرى الله سبحانه وتعالى خلقه ، ما به يطمئنون إلى أنه سبحانه وتعالى هو الحق ، ولا حق غيره ، ولا إله معبود بحق غيره ، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك إنه على كل شيء شهيد ﴾ .

إن الله كرم عباده بظهور الخوارق أو الطاقات العليا ، التى يحتار الناس فى أسبابها ، وتعقل عللها لعلهم يئوبون إلى الله ؟! ﴿ فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ﴾ وستظل تظهر آيات وآيات حتى يحق على الكون قول الله تعالى ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا ، أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالأمس ﴾..

* * *

الفصل السادس

قوى مجهولة ، عجائب محيرة ، ماذا قال فيها العلماء

- ظواهر حيرت الأطباء والعلماء .
- عجائب الرؤيا ، الرؤيا المجسدة .
- هل هناك حلم إيرادى ؟ .
- ظواهر الغيبوبة .
- ماذا يقول القرآن الكريم عن الموتى ؟
- أرواح المجاهدين فى سبيل الله .
- الثيوصوفية وتجسيد الأرواح بعد طرحها أو فناء أجسادها .

قوى وظواهر حيرت الأطباء :

هل من الممكن أن يكون هناك تفكير بدون وجود مخ ؟ فالمعروف أن المخ مقر العقل فى الإنسان ، وهل من الممكن هناك أن يكون إحساس بدون وجود أعضاء الحس ؟!

يتهم بعض الباحثين (الروحيين) بأن عالم النفس يهمل النفس أو الروح ويتقيد بدراسة العقل وعمله من الناحية الميكانيكية ، وهو اتهام ظالم ، فالنفسانى والطبيب العام ، كلاهما يعترفان بوجود النفس والروح ، ولا ينكرانهما مطلقا ، وسبق أن قدمت ما فيه الكفاية فى هذا الموضوع ويعرف (السيكلوجى) بأن العقل هو المحرك للنفس ، وأن الصراع قائم بينهما نحو الخير والشر دائما أبدا .

وقد قام بعض العلماء ودرسوا العقل ، واقترحوا أن يكون للعقل علم يختص به أسموه علم العقل Menta logy .

إن المعروف لدى علماء النفس أننا إذا وجدنا فى أحد المتاحف " مخا " كمخ سقراط مثلا ، فإن هذا المخ لا يفكر إذا لم يكن فى جسده الحى ، بواسطة النفس والعقل والنور الإلهى " الروح " واهبة الحياة .

إن الشخصية المكونة من هذا كله ، من الجسم الآلى ، ومن النفس المحرك المعنوى ومن العقل " القبس الإلهى الهادى إلى سواء السبيل " ومن الروح واهبة الحياة ، هى التى تفكر ، ومن الخطأ أن ننزع واحدا من مقومات الشخصية .

قديما كان المظنون إن العقل مركزه فى الكبد ، وقيل إنه فى الكلى ، ثم قيل إنه فى الأحشاء الأخرى ، واستقر الرأى إنه فى المخ ، وتوسعوا فى هذا وقالوا (إن المخ مقر العقل الواعى واللاواعى ، وكلها نظرات تقريبية ، لعل وعسى ، نفرض أن موسيقيا وضع ألحانه الرائعة على أوتار العود ، وكان فى العود عيب كأن تكون أوتاره رديئة أو غير مشدودة أو بالعود شرخ فهل ندرك جمال التلحين والإيقاع ؟!

ولكن هل يمكن أن نتهم الموسيقى النابغة بالغلط ؟ ، إنَّ الخطأ هنا ليس خطأ الموسيقى إنه خطأ الآلة كذلك ما يصيب المخ من نقص أو تلف فى الشخصية الموحية للنفس والعقل ، والمخ ليس العقل ولا النفس ، وقد قام حوار قديم بين (الماديين والمعنويين) هل العقل وظيفة من وظائف المخ أو هو المنشىء للمخ ؟! .

كتب أحد الأطباء ويدعى الدكتور أنيمورز يقول ، أثبت المشاهدة الدقيقة أن هناك حالات إصابات شديدة بالدماغ باد المخ فيها تماما ، ومنع ذلك لا ينعدم الحجا ، ولا تضيع قوة الإرادة بل إنهما لا يتغيران .

وقد ذكر بعض أطباء التشريح ويدعى هوفلاند " حالة رجل مشلول ظل حتى آخر رمق من حياته دون أن تبدو عليه أدنى علامة من علامات الانحطاط العقلى برغم أن التشريح أثبت فيما بعد أن جمجمته كانت خالية تماما إلاّ من قليل من الماء وأنه لم يكن فيها البتة أثر لمادة المخ " .

ويرى (هرفمان) إنه لا يمكن أن يتحول أى جزء فى المخ عظما أو يتضخم أو يشل إلاّ ويصحب ذلك اضطراب عقلى ، ومع ذلك فالمهندس المعمارى الشهير « شينيكل » مات وكان متيقظا تماما لآخر لحظه وقد وجدت جمجمته فيما بعد خالية تماما ، يقول الطبيب (شليخ) أنه صادف خلال الحرب ، حالات كثيرة لجرحى مصابين فى رؤوسهم ، وأن هذه الأصابات لم تؤثر البتة فى القوى العقلية .

وفى المؤتمر الدولى للسرطان الذى انعقد فى أمريكا فى سبتمبر ١٩٣٩ قرر الدكتور بيرون ستوكى الأخصائى فى جراحة المخ فى معهد نيويورك للأمراض العصبية أن البحوث التى أجريت على أشخاص أزيل من مقدم المخ عندهم أحد الفصين الأمامين ، وهما مقر الذكاء والفهم عند الإنسان دلت على تحسن محسوس فى الشخصية وكانوا فى حياتهم بعد ذلك أكثر حزما فى البت فى الأمور ، ويقول هذا الطبيب نفسه أنه حينما أستؤصل جزء من أحد الفصين الأمامين حدث نتيجة لهذه العملية الجراحية ، تقلقل عاطفى وتهامل وعدم مبالاة ، وعجز فى تهيئة العقل لتفاهات الأمور .

وهنا نرى الطبيب يناقض نفسه ، فهو يذكر أولا أن إزالة أحد الفصين الأمامين لم تمنع من أن يكون المزال منه من أحزم الناس ، أما إزالة جزء من أحد الفصين ث التقلقل والتهامل وعدم المبالاة .؟!

والمعروف أن الفصين الأمامين يملآن النصف الأمامى للتجويف المخى كله ويعتبران مركزا لجميع وظائف الذكاء العليا عند الإنسان ، ومما جاء فى تقرير الجمعية الأمريكية لطب العقول الصادر فى مايو سنة ١٩٣٩ أن فقدان الفصين

الأمامين للمخ لا يؤثر البتة فى الذكاء العام ، ولكنه ينقص القدرة على أن يتناول الفرد المسائل والتخطيط السليم ..

والمريض الذى يفقد الفصين الأماميين يفقد القدرة على إدراك المجموعات والحجوم والأشكال والألوان ، وجاء فى هذا التقرير " يوجد فى مستشفياتنا للأمراض العقلية سجلات لعدة مرضى ظلوا بلهاء طوال حياتهم ولكنهم قبل وفاتهم بقليل إستعادوا قواهم العقلية العادية ، وذاكرتهم الجيدة ، وقد دلّ تشريح جماجمهم فيما بعد ، على أنها لم تكن تحتوى على مادة فاسدة متعفنة وكتب الدكتور (ايفروبومنت) من لندن سنة ١٩٤٠ " دعيت مرة لعلاج رجل به جميع أمراض سرطان المخ فبعثت به جراح شهير فى جراحة المخ فأجرى له عملية وإن كنت لم أطمع ولم أتفاءل خيرا بما ستؤول إليه حالته فيما بعد ، وبعد ذلك بثلاثة شهور جاءنى المريض يزورنى وهو فى منتهى الصحة لا شلل فيه البتة قوى الذاكرة حاد البصر لا يعيبه شيء أبدا وحمل إلىّ من الجراح خطابا يقول فيه أن أحد فصيه فى المخ قد أزيل تماما ، وبالاختصار بدأ على الرجل مع انعدام هذا الفص كل مظاهر الصحة والعافية وروى الجراح الإنجليزى ، سيرفردريك ، حالة شاب ضابط أصيب بجرح خطير فى الرأس وقد كان فى الجمجمة كسر غائر فاضطر لازالة بعض العظام وعدة ملاعق صغيرة من المخ ومضى على ذلك عامان وإذا برجل يخاطبه فى اجتماع عام ويقول له ، أنسيتنى ؟! فقال الطبيب بل أتذكرك ، فأنت الرجل الذى أجريت له عملية جراحية بعد حادث وقع له فى الصيد من زمن ، ولا أكتم السر إن المقدار الذى أزيل من المخ كان كافيا للاصابة بالجنون الخطر ، فقال الرجل ، هون على نفسك ، أنا ذاك الشخص الذى عملت له العملية ، أنا الآن رئيس المخابرات .

ومما يروى أن سيدة ولدت عمياء كانت ترى فى أحلامها الأشياء بوضوح فتصفها بدقة ولما شرحت جثتها بعد وفاتها ظهر أن أعصاب البصر عندها ميتة ، وعمياء آخرى عجوز إذا رأت حلما وصفت ألوان ما رأته فى الحلم .

والسؤال المحير ، كيف استطاعت هاتان العمياوتان أن تصفا أشياء لهما فى الحلم على حين أن عينيهما لم تكن قد تلقت أى شعاع من الضوء ؟!

وذكرت مجلة أخبار علم النفس أن عمياء رسمت بريشة صورا شتى أمام شهود عدول ، وما جاء فى قصة الرجل المعروف باسم على حلاوة الذى جاب الأقطار

الشرقية عام ٩٢٥ وهو رجل غريب الأطوار يقود السيارة وهو أعمى ، وقابل كمال أتاتورك وأعجب به ...

وما قصة " هيلين كليز " (١) علينا ببعيد ، بعد هذا نسأل ، كيف يفكر هؤلاء الذين نقصت عندهم المادة المخية ، أم كيف يؤدى المخ وظيفته وقد انعدم هذا المخ من الوجود أو كيف تصف عمياء مناظر رأتها فى الحلم أو كيف ترسم بيدها صورا ، أو كيف يقود أعمى سيارة ، ويجوب الأرض بدون مرشد ؟!

بل وأغرب من ذلك ما جاء فى كتاب (الثيوصوفية) عن أحد الأطباء استنشق مادة الكلوروفورم مرة تخفيفا لألمه الشديد من حصوة الكلية ، فأذهله أن يرى نفسه متدثرا مالكا قواه العقلية العادية واقفا على بعد ياردتين من سرير العملية التى كانت تعمل له يرقب جسده الملقى فى الفراش ، ويقول إن كثيرا اعتراهم مثل هذا .
ويقول الدكتوران النفسيان كارنجتون وملدون فى كتابهما طرح الجسم الروحى ، إن بعض صحبهما قد أركدوا لهما أنهم راقبوا العملية الجراحية وهى تعمل لهم فكانوا أشبه شىء بساكن البيت حين يتركه وقت إصلاحه ، وأنهم كانوا يطلقون أبصارهم صوب أجسادهم المادية من فوقها وأنهم سمعوا ووعوا كل شىء حدث .

إننا لا نستطيع أن نتهم هؤلاء الرواة من مشاهير الأطباء بأنهم يروون أقاصيص مكذوبة أو أنهم يعتقدون فى (قداسة) هؤلاء الذين عليهم هذه المظاهر غير المألوفة التى ربما يدعى أصحابها أنهم " أقطاب " وأولياء ، أو أنهم متحدون بالذات العلية أو أنه سبحانه وتعالى تجلى فيهم ، كما يقول أحدهم فى أوراده مخاطبا الله تعالى :

وما شهدت عينى سوى عين ذاتها   وإن سواها لا يلم بفكــــرتى
نعم نشأتى فى الحب من قبل آدم   وسرى فى الوجود من قبل نشأتى

يقول مخاطبا الله :

أنت منايا ، لا بل أنا أنت دائما   كــذا كــنا فى عــلم الحقيقـــة

---

(١) هيلين كليز عمياء صماء بكماء حصلت على أرقى الدكتوراهات ولم تدع أنها قديسة .

ربما أظهر هذا الطاغوت شيئا من الخوارق ، التى لم تخرج عن ظواهر فى حاجة إلى دراسة كما وضحت ، ولكن الناس اتخذوا من هذه الظواهر آيات ولاية وقطبانية أو بالأحرى (ألوهية) ولا زال كثير من المتفقهين يقولون على المنبر فى المساجد فى جميع الدول العربية (إن هناك أناسا يقولون كن فيكون ، ويقولون للشىء بأن هناك محكمة أهل الباطن) . تعطب من تشاء ، وتحكم بالإعدام على من تشاء ...

والأن ماذا يقول العلماء فى هذه الظواهر ، يقولون ، أن الفيزيقا ، أى المادة التى نراها ومنها خلق الجسم الإنسانى ، ووراءها الميتافيزيقا واهبة الحياة ، وما الجسد إلاّ وسيلة إظهار الروح فى عالم المادة والروح تؤلف الجسم الأثيرى (النفس) وتضىء العقل ، وكما يقول سقراط (أنت نفس حية حملت جسما لا حياة فيه) يقصد أن النفس هى التى وهبت الحياة للجسد .

والقرآن الكريم يقرر فى سورة النحل آية ٧٨ ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ هذه هى الفطرة فى الخلق ، فالمعروف ، أن الروح تنتشر فى جسم الجنين بعد أربعة أشهر من حمل أمه له ، ولكنها لا تعى حتى تدرك الأعضاء والحواس ، ولكن خالق هذه الأسباب له القدرة على تجاوزها إن شاء ، فقد جعل المسيح يتكلم وهو لفيف فى لفتة بعد ولادته بساعات ، أراد الله ذلك ليبرأ أمه البتول من تهمة الزنا . ويتكلم شاهد براءة يوسف وهو رضيع ليبرأ يوسف تهمة مراودة امرأة العزيز عن نفسها ، هكذا أراد الله .

ولست مع القائلين ، وهم علماء الأرواح ، أن الروح فى مكنتها تقوم بكل شىء بعيدا عن الحواس المعهودة ، فهذا تناقض للفكرة القائلة (بالفطرة) إنها ظواهر حدثت وليست قاعدة عامة ، ففى الكون أعاجيب ، وسأعرض على القارىء أشياء رأيتها من أصحابها لا زال بعضهم أحياء ، والبعض قد طواه الموت إلى رحمة الله.

فى الحى الذى اقطن فيه ، يعيش رجل جاوز التسعين (١) يتحرك بوهن وضعف، محدودب الظهر ، ثرثار لا يهتم بأمور الدين ، غاب عنى مدة فسألته عن سبب غيابه ، فأجاب ، صدمتنى عربة مسرعة فى أحد شوارع مصر الجديدة ، فى

(١) لازال حيا حين تأليف هذا الكتاب .

موسم الصيف الحار ، فإذا بى أشعر عندما حملنى الناس إلى الرصيف كأنى نائم على فراش وثير كأن الهواء الرطب يداعب جسمى ، لم أحس بالألم مطلقا حتى ذهبوا بى إلى المستشفى وخرجت منها .

وحادثة آخرى لجارة من عائلة كريمة ، ومن ذوات الموضات الأجنبية ، ومن اللاتى لا تراعى التقاليد ولا الأداب الدينية بحجة (الفرنجة) قالت ، إنها أصيبت فى حالة ولادة ابنتها بعسر شديد ، وتناول جمهرة من الأطباء علاج هذا العسر الذى استمر أياما ، كانت ترى نفسها فى جو عظيم من أريج حوريات يجلسن حولها طوال أيام عسرها ، يأتنسن بها ، وتأنس بهن لم تشعر بمباضع الأطباء ولا بما معهم من آلات ، كانت مسرورة بهن ولم يفارقنها إلاّ بعد أن صرخت المولودة من استنشاق نسيم الدنيا .

كثير من موظفى وزارة الأشغال العمومية بمصر فى الستينات يعرفون المدير العام المرحوم محمود محسن كنت أعمل له " سكرتيرا " وكان من ضمن الذين أصيبوا فى حادثة قنبلة سينما مترو سنة ١٩٤٠ ، وقرر الأطباء بتر ساقه فأبى ، وفضل أن يموت ولا تبتر ساقه وكان يثق فىَّ كل الثقة فقد كنت صديقا له مدة طويلة حتى بعد إحالته على المعاش فى الستينات ، قال لى ، ألا تعلم ، أننى أصررت إصرارا بالغا على عدم قطع ساقى مفضلا الموت على ذلك ، واستسلمت لما قاله الأطباء من أن (الغنغرينه) ستقضى على الساق والرجل كلها وبقية الجسم ، ونمت مستسلما لما يريده القدر ، فإذا بى أرى حلما ، أرى أطباء بيض الوجوه يلبسون ملابس بيضاء ، ويضعون على أنوفهم كمائم بيضاء يتحلقون حول سريرى فى المنزل ويقومون بإجراء جراحة لى فى ساقى ، قمت صباحا فشعرت بنوع من التنميل اللذيذ ، وشفانى الله بعد هذه الرؤيا رغم فحص الأطباء وقرارهم بالقطع ، وتعجب الأطباء لذلك .

ما أردت من ذلك ، إلاّ القول ، بأن فى الكون أسرارا عجيبة ، قد نريد شيئا ، ولكن الله يريد أشياء ، فنقيم الأسباب لما نريد ، فيأبى الله إلاّ ما يريد .

وبعد ذلك ، كل ما أرجوه ، ألاّ نعتبر الذين يحدث لهم هذا اقطابا ومقدسين إلاّ إذا كانوا سائرين على نهج خاتم المرسلين ، ولعلها فتنة ، وبلوى ، كما قال سليمان عليه السلام عن عرش بلقيس ﴿ فلما رآه مستقرا عنده قال هذا رحمة من ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ... ﴾

عجائب الرؤيا :

من المعروف إن طرح للنفس ، وأن الأحلام شعور داخلى أو خارجى للذات أو تنبؤ بحوادث مستقبلة أو إنذار بمرض كامن فى عضو من الأعضاء بما نسميه (الكابوس) أو شرح لموضوع يقوم به اللاشعور لمشكلة حار فيها الشعور ...

هذه تعليلات سريعة ، وينعدم الزمان والمكان بالمعنى المفهوم لدينا ونعرف فى النوم أشياء كثيرة والمعروف أن الحلم غير الرؤيا .

ويقول علماء الأرواح بأن الروح تغادر الجسم خلال النوم وتمضى فى سياحتها وينعدم لديها الزمان والمكان ، وسبق أن قلنا بأن الروح لا تغادر الجسم مطلقا بأية كيفية كانت ، سواء أكانت المغادرة طرحا روحيا مؤقتا أو طرحا روحيا دائما حتى ولو عللوا بأنه فى حال الطرح المؤقت تكون طليلته متصلة بالجسم بما يسمونه الحبل الأثيرى ، فإن أفلت هذا الحبل الأثيرى حدث طرح روحى دائم للجسم (أى يموت) وقلنا أن هذه افتراضات لا يقوم عليها دليل من الدين وقلنا أن الروح سر من أسرار الله وأن النبى ﷺ منع من التكلم عنه ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ ولذلك سأضرب صفحا عن موضوع التكلم فى الروح ، وأترك الكلام فى هذه الكتب المؤلفة حيالها ، كيفيتها ، كنهها سياحتها ، آثارها طرحها ، فلن يقنع المؤمن بعد بيان الله بيان آخر [١] .

وتعليل ظاهرة النوم من الناحية الفسيولوجية ، ظلت تتأرجح بين عدة أراء ، الشهير منها النظريات الكيمائية تحاول تعليل النوم بافتراض تكوين مواد سامة داخل الجسم خلال ساعات اليقظة ونقول إن النوم يبيد هذه المواد .

وترى بعض النظريات أن سبب النوم حدوث حالات غريبة فى دورة المخ الدموية ، ويقول بعضها إن النوم راجع إلى وجود غدد خاصة ، وبعضها ينسبه إلى الاسترخاء العضلى . هذه النظريات لم تعط جوابا مريحا لظاهرة النوم ، والقائلون بأن الروح تنسحب بعيدا عن الجسم مع اتصاله بها ، لم يكن لديهم الدليل الكافى للإقناع بهذا السحب ، والذى أعرفه ، أن النوم ظاهرة حيوية فى جميع المخلوقات ، وهبها الله

---

(١) كتب كثيرة تؤلف حديثا ، بإمكان الاتصال بالروح التى تتجسد بجسد صاحبها وتحضر إلى الناس ، وتعاشرهم ، وتخاطبهم ، ومع الأسف اغتر بهذه الخرافات بعض الباحثين ...

لعباده لراحة الجسم من متاعب ولتجديد قوى الأعضاء والخلايا والأنسجة التى تهتكت من جراء العمل الحيوى وإنك تجد بعض العمال تنام على صخب الآلات الصاخبة ، وعلى الأرض بدون أغطية ، أو فى وسط موبوء بالناموس والهاموش ودواب الحشرات المؤذية كالبق والبراغيث ، وتجد بعض السراه الذين يتوفر لهم سبل الراحة والنوم الهنيء ، والفراش المريء والجو الهادىء بعيدا عن كل ما يجلب الأرق، ومع ذلك لا يغمض جفنهم ولا يذوقون النوم .

وأذكر قصة قرأتها لأحد سراة مصر توفى من زمن بعيد من ذوى الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة والأطيان ، وكان رجلا متواضعا ، رأى يوما أحد عماله فى مصنع كبير له ، ينام ويحدث أصوات الشخير كأنها ألحان موسيقية ، فوقف هذا السرى وقال لمن حوله إن هذا يتمتع بما أبحث بكافة السبل فلا أجده .

ومن عادة النوم أن يجلب الأحلام ، التى من شأنها تحتاج المعبر ، إما أن تكون الأحلام صريحة لا تحتاج إلى تعبير ، فهذا شيء يدعو إلى الغرابة ، وليس الحالم رسولا ولا نبيا ولا متدينا ، وقد يكون فاسقا ويصح حلمه ورؤياه .

يقول الأستاذ أحمد أبو الخير فى كتابه السيكلوجيا والروح ص٢٠ .

كتبت إلى من الإسكندرية الآنسة أبكار السقاف بتاريخ ١٩٤١ تقول ، إن لى أختا تتنبأ لنا فى أحلامها قبل حدوث الوقائع الحاسمة فى التاريخ فمثلا تنبأت أن الحرب (الهتلرية ستقوم فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ فقامت الحرب فى هذا الحين ، وتنبأت فى حلم آخر ، أن فرنسا ستستسلم واستسلمت فعلا ، وغير ذلك حادثات أحلامها كثيرة ، المهم - كما أوجزته من كتاب الأستاذ فهمى أبو الخير ، أن أحلام هذه الآنسة كانت صريحة لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل ولقد سئلت هذه الفتاة عن أحلامها فقالت إن هناك رجلا يأتى إليها فى نومها فيخبرها عن هذه الوقائع قبل حدوثها ويحدد زمن وقوعها .

وأرى أن كثيرا من عظماء التاريخ ، مثل إبراهام لنكولن فى أمريكا لديه هذه الخاصية ، ويحكون عن نابليون ، وهتلر - ومن قبل الإسكندر المقدونى ، على ما يشاع ، إن أحلامهم كانت صريحة والأحلام كما سبق قلت ، أنها من القوى اللاشعورية فى الإنسان ، وأن من خواص هذه القوى أن تتحسس أسرار الكون ،

مثلها مثل ، الرادار فى الحروب يعرف ويتحسس قيام الطائرات من مطارها الحربى قبل أن تفاجىء الجيش فيتنبه المسئولون ويستعدون للدفاع .

يقول بعض البحاث ، أن التنبؤات تجىء عن طريق تتبع أشعة الضوء فى لوحة الفضاء والزمن وكلما كان هذا التتبع واضحا وقديرا كان أقدر على معرفة الأحداث المستقبلة ، ويلاحظ أن العلامة اينشتاين قال فى نظريته (النسبية) باندماج الماضى والحاضر والمستقبل فى بؤرة واحدة فالمستقبل موجود كوجود محطات السكة الحديد ، ولكنا لم نصل بعد قطار الزمن إليها ، وفى كتاب " تجربة فى الزمن " لمؤلفه العلامة (دان) شرح مستفيض لهذه الأحلام التنبؤية فليرجع إليها من يشاء ، وسبق أن ناقشنا قول الغزالى بأن النفس تطلع على اللوح المحفوظ ولماذا نذهب بعيدا ، وفى معنى حديث نبوى ، أن الرؤيا جزء من ست وأربعين جزءا من النبوة . والمقصود ليست النبوة المصطفاة لهداية البشر ، فهؤلاء من خيرة الناس ، ومعصومون من الذنوب ، ولكن القصد أن "الحلم" فيه نبؤة طفيفة كنبؤة الأنبياء ، كما أقول لك أن فيك أنفا جميلا كأنف يوسف عليه السلام ، فهل أعنى أنك فيك خصائصه ؟! .

قد ينقلب الحلم إلى فعل ، فقد ذكر العالم السايكلوجى ملدون فى كتابه (الطرح الروحى) لقد رأيت فى الحلم أنى أنقل أشياء فى منزلى ، وعند استيقاظى وجدت الأشياء قد نقلت كما رأيت ، لعل ذلك الحلم انقلب إلى جولان فى النوم كما أرى ..

هل هناك حلم إرادى ؟

أو هو ما يعرفه بعد علماء (الثيوصوفية) بأنك تريد أن تحلم حلما معينا ، تريد عائلتك فى القاهرة ولم تعلم عنها شيئا من مدة وتريد فى نفسك أن تخاطبهما بكلمات تعدها لهذا الخطاب ، وتريد أن تطلب منهما طلبا معينا ..إلخ .

ونقول برغم أن علماء الثيوصوفية قالوا بإمكان ذلك مستجيبين لرأى علماء الأرواح حتى بلغ من إضلال بعض فلاسفتهم أن نسبوا للعالم محيى السنة ، والمجاهد فى سبيلها والذى قاسى أشد العذاب أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، زعموا كما ورد فى (كتاب الأحياء للغزالى) أنه رأى الله تسعا وتسعين مرة فى

المنام ، فقال لو رأيته المرة المائة لسألته بم يتقرب إليك الناس يارب ، فلما رآه - سبحانه وتعالى - فى المرة المائة سأله بم يتقرب إليك الناس يارب ، قال بكلامى يا أحمد ، قال ، يارب بوضوء ، أم بغير وضوء قال بذا وذاك يا أحمد [١] . " حاشا لله " حيث أن القرآن صريح فى مس المصحف (لا يمسه إلا المطهرون) ، ومن حيث ، ومن حيث .

وهذه الأسطورة أذاعوها فى كتبهم المنتشرة على لسان (حامى السنة العظيم) أحمد بن حنبل حتى ينعقد العوام والدهماء على صحتها فيقرءون القرآن الكريم بدون طهارة ، ويجزمون بأن رؤية الله ممكنة ، كما يدعى كثير من هؤلاء ، إنهم يرون الله حتى قالت إحدى المتصوفات " أو بالأحرى المجنونات " ، (والله إن ذهب عنى طرفة عين ، لتقطعت من ألم البين .)

إن الأحلام والرؤيا من عالم اللاشعور ، وهذا العالم ليلا يسود حيث يخمد الشعور ، فيوجه الإنسان فى نومه ، ولا يحس حينئذ أنه فى حلم ، ويقوده اللاشعور إلى عوالم وأشياء لا حيلة له فيها فيفاجأ عندما يصحو بأنه كان فى حلم.

لذا سأضرب صفحا عن القائلين بالطرح الروحى ، أى يجلس فى مكان معين ، ويرسل روحه إلى مكان بعيد وتتشكل فى شكله وهيئته لتقوم بعمل معين ، إن هذه الخرافات " الوثنية " دخلت على المسلمين من فلسفة الوثنية الهندية والزراد شتية ، والمانوية ، حتى رأينا كثيرا من المسلمين لا يصلون ، ويقولون ، أنهم طرحوا روحهم لتصلى فى مكة المكرمة ، أو أنهم من أهل الخطوة ، وأنهم يلفون الكون كله ، وهم جلوس فى (التكية الصوفية) ومن أقوال أحدهم قال يفخر بنفسه :

ذراعى من فوق السموات كلها وتحت بطن الحوت مددت راحتى

وأنت ترى مبلغ السخف فى هذا البيت الشعرى ، وقد قاله قطب من الأقطاب ، وترى مبلغ الجهل باعتبار الأرض واقفه على (ظهر حوت) ولعله رأى ذلك فى لوح الشيطان الذى يوحى إليهم ﴿ إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ صدق الله العظيم .

---

(١) أورد هذا الخبر بتمامه لسخافته ، ومعارضة القرآن الكريم والسنة الصحيحة وابن حنبل كان من أشد الفقهاء وجوبا للطهارة ، التى عندها غيره من الأئمة سنن ونوافل كالمضمضة والاستنشاق .

إن عملية الطرح الروحى خرافة وثنية ، يؤمن بها كثير من ذوى الشيوصوفية " وتجد فى طبقات الشعرانى " أحاديث عن أوليائه الذين يصفهم بأنهم يرون فى عدة أمكنة فى وقت واحد تماما مثل ما يقوله علماء الأرواح ، كما يسمون أنفسهم .

روى ابن سيرين [١] ، فى كتابه (منتخب الكلام فى تفسير الأحلام) الحادث الآتى : كان ثابت بن قيس وسالم مولى أبى حذيفة يقاتلان مع خالد بن الوليد مسيلمة الكذاب فقتلا ، وكان على ثابت درع نفيسة فمرٌ به رجل من المسلمين فأخذها فبينما رجل من المسلمين نائما إذ أتاه قيس بن ثابت مناما ، فقال إنى أوصيك وصية ، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه ، إنى لما قتلت أمس مر بى رجل من المسلمين ومنزله فى أقصى الناس وعند خبائه فرس ، وقد ألقى على الدرع برمة، وفوق البرمة رجل ، فأت خالد بن الوليد فمره فليبعث إلى درعى فليأخذها فإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله فأخبره أن علىَّ من الدين كذا وكذا . فأتى الرجل خالد بن الوليد فأخبره فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدث أبا بكر رضوان الله عليه ببرؤياه فأجازها وأجاز وصيته ولم نعلم أحدا أجيزت وصيته بعد موته سوى قيس . هذا ...

وليس فى إجازة الوصية بعد موت صاحبها ، وإن بدت فى حلم من غرابة ، وما أظن أن خليفة رسول الله أجازها إلا بعد أن قامت أدلة قوية لديه رضى الله عنه على صحتها ، ومثل هذا الحلم لم يحتج إلى تأويل ، فإن قيل أن بعض القتلى رؤى فى الحلم يخبر عن قاتله لم يكن هذا الحلم دليل الاتهام وحده بل ربما أخذ كطريق الاتهام حتى يقوم دليل آخر كاف ، منذ مدة ضل طفل صغير أبكم طريقه فى القاهرة [٢] . وكان مع أهله من الريف فى زيارة للقاهرة ، فبحث عنه آله فى الحى الذى نزلوا فيه وتعبوا من البحث وبلغوا الجهات المختصة ، وأعلنوا فى الجرائد ، وذهبوا إلى القرية حزانى مفجوعين يائسين ، يتقبلون عزاء الناس فى طفلهم المحبوب، وبعد صبر ولوعة رأى أحد القرويين رؤيا ، رآنى سافرت إلى القرية ومعى الطفل ، فاستبشروا خيرا ، ولم يمض زمن طويل على هذه الرؤيا حتى وجدوا أحد الضباط ممن قرأوا خبر فقد الطفل سافر إلى القرية ومعه هذا الغائب المحبوب .

---

(١) إنهم يدعون الاطلاع على اللوح المحفوظ !؟ .
(٢) كان من قريتى فى الدقهلية .

نشر المقتطف الأغر فى عدد فبراير سنة ١٩٤٥ مقالا تحت عنوان " قمة الدنيا " إلهامك الروحى قد يرفعك لحظات إليها ضمنه حادثة واقعية علق عليها قائلا) هذه حادثة واقعية نرويها ونذكر مصدرها وشخصيهما ولا يزالان معنا وفى عصرنا ، نطلب لها تعليلا ممن يستطيع أن يعللها على ألاّ ترد إلى المجهول الذى هو فى الواقع ، اعتراف بالعجز عن التعليل .

" كانا فى جوف الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، سيد وسيدة ، كلاهما تلقى العلم فى أرقى الجامعات وكلاهما يعرفان الصحارى غيلان لا صديق لها ، نفد الماء وعلف الدواب والطعام ومعهما رجال من الأدلاء والحرس والعمران قصى بعيد ، والاتجاه فى أى متجه من غير علم به معناه الموت المحقق فى جوف الرمال ، وكانا يبحثان عن واحة مجهولة قطعا بها طريقا غير مسلوك ، نزل إليهم ، وأخذهما وأخذ رجالها القنوط ، فأنيخت الإبل وجلست القافلة فى ذلك القفر المخيف لا مؤنس لها إلاّ الاعتقاد بأن الإرادة السرمدية ، نافذة فيهم لا محالة ، فإما إلى حياة فى الدنيا وأما إلى موت محقق ، حلم السيد حلما ، وهو بعد ممن لم يعكفوا على العبادة ، حلم بأمرأة بيضاء أو أنها تلبس البياض ، لم يستطع أن يصفها ، ولكنها تنبأت له بما سوف يقع ، وتكلمت بلغة الرموز ، ولكن هذا الحلم لم يتخذ بادىء ذى بدء إلا موضع السخرية أو التسلية والتندر ، ولكن السيد أكد أن ما رأى ليس حلما كان أكثر من حلم ، إنها رؤيا تكاد تكون يقظة غير تامة فى صحوة عقل مضطرب من هول الموقف .

" وقفت تلك المرأة التى تراءت له إلى جانبه فى الصحراء بقربه من محط الــرجال ، وكان يرى خيالها عن الأرض فى ضوء النجوم ورأى آثار قدميها فى الرمال قالت له" لا تنزعج سوف تصل ، لكن عليك أن تقتحم ثلاثة حوائط قبل أن تصل ، وقبل النهاية ستضطر إلى تغيير طريق سيرك لتتقى بذلك أجساما ميتة " .

" وفى الصباح جلس السيد والسيدة يتناقشان فى هذه الرؤيا ، ولكنهما لم يشكا فى هذه المرة فى حقيقة هذا الموضوع ، وعللا الحوائط بعقبات سوف تصادفهما ، إنسانية أو طبيعية سوف يجتازانها ، وعللا الأجسام الميتة بموقعة تحصل . "

" فى خلال الأسابيع التى تلت هذه الرؤية أحيط بهم ثلاث مرات أحاط بهم بدو معادون وسجنوهما فى الخيام مع رجالهما ، والبدو من حولهما يناقشون طريقة قتلهم جميعا ، ولكن شاء الله أن يرسل إليهم جميعا من ينقذهم .

" فلما كان آخر يوم فى رحلتهم ، بين الكثبان المتوجة اضطروا إلى الدوران حول واد عميق فيه جثث موتى لصقت عضلاتهم الصفر بعظامهم ، جثث آدميين ودواب إنها قافلة أهلكها الجوع والعطش .

"رأى السيد بعد ذلك رؤيا ثانية ، ففى جوف تلك الصحراء المخيفة الصماء المجردة التى لم تخترقها قافلة قبل ذلك ، رأى تلك المرأة فى ثوب أبيض مقبلة نحوه من خلال الرمال الواسعة وقالت له « خذ السلسلة التى تعلقها فى عنقك وتعال معى إلى قمة هذا الكثيب ثم ادفنها هناك ، وفى الصباح إذا حضرت لتأخذها سوف ترى أثار قدميك وقدمى معا وبذلك تعرف أنك لم تكن تحلم »

" فعل السيد كما أمرته ، فلما انحدرا من فوق الكثيب قالت المرأة ، سوف تقاسى وتلقى كروبا عقلية ، ستشعر بأنك منكور من كل إنسان سيخيل إليك أنه لم يبق لك من شىء فى هذه الحياة ، ولكن كل هذا الحزن سوف يمضى ، ستعطى أكثر مما أملت أو تتصوره ، ستكون رجلا عظيما فى يديك قوة ويحفك الغنى والشرف ، لا تخف ، هذا ما سطر لك ."

فسألها السيد ، وما بال السيدة التى معى ماذا سيحل بها ؟

قالت : " لا أعرف عنها شيئا ، إنها ليست من ملتنا ، ولا أعرف لماذا ولكنها سوف تنجو فى كل الظروف هذا محقق ، سيحيط بها خطر عظيم ، ولكن لا يصيبها شىء سيحل بها حزن ، ويأس ولكنها ستنجو دائما ، ليس فى يدها دفع شىء ليس ذلك فى طوق إرادتها ، ستسلك طرقا عجيبة قد تؤدى إلى الموت ، ولكن ليس من نصيبها أن تموت فى ذلك ، هذا ما كتب " .

وفى اليوم التالى قص على السيدة كل هذا ، وهما فى دهشة وحيرة بالغة " عندما ظهر الفجر الكاذب خيطا أبيض الأهاب باهت اللون فوق الأفق مبشرا بإقتراب الشمس من البزوغ على رمال الصحراء المترامية اصطحب السيد رفيقته وأراها أثار أقدامه ، ذاهبة إلى الكثيب ، ثم هابطة منه ، وإلى جانبها أثار ظاهرة

جليه متجانسة الخطى ، كانت أثار قدمين عاريتين ضغطا على الرمال ضغطا خفيفـــا ، والنسمات من ورائهما تسفى عليها الرمال المتماوجة الناعمة " .

" نظر إلى هذه الآثار فى صمت عميق ، وفى رهبة من السكون احتفر الكثيب ليرى السلسلة التى وضعها فيه ، بأمر من السيدة المجهولة ، أما أثار قدميها فانحدرت نحو الصحراء العريضة المغيبة الأسرار .

هنا لك ، فى هذا التيه الفاتك ، على بعد الألاف من الأميال فى أى إشارة لمكان مأهول ، تحدث هذه الحادثة .

" أما السيد فهو أحمد باشا وأما السيدة فهى الجوالة المؤلفة (روزينا فورس) ولذلك الفت قصتها فى كتابا اسمته غجر الشمس (Gypsy of sun cassel) ذكرت هذه القصة فى الصفحات ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ طبعة .

انتشرت هذه الحادثة فى الأربعينات ونوهت عنها الجرائد ، وأحمد حسين باشا كان حيا وقتها ، غفر الله له ، طلب المقتطف تفسير هذه الظاهرة ، فأجاب عنها علماء الأرواح بأن هذه السيدة ما هى الأرواح قريبة له توفيت وأتت لتنقذه من هذا المأزق الذى وقع فيه أى أنها روح حنت إليه فأسرعت لتدله على طريق النجاة . ؟!

وما أكثر الأرواح للموتى لدينا ، وقد وقعنا نحن فى أزمات شديدة ، وحوانق أخذت بتلاليب أعناقها ، فلم تأت أى روح لتدلنا على سواء السبيل ، من أرواح أجدادنا وأحبائنا الذين انتقلوا إلى العالم الأخر ، ولعل عقيدة تحضير الأرواح ، جعلت بعض المتصوفة يعتقدون فى تجسيد أرواح مشايخهم بعد الموت وزيارتها لهم للتشريع والهداية إلى الصراط المستقيم كأنهم لا يعجبهم قول الله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ لابد من دين جديد ، يسميه الصوفية يقولون إنه من الصفاء ... إلخ وهذه العقيدة " تجسيد الأرواح بعد موت صاحبها " أضلت أغلب الناس ، فما من قرية إلاّ وفيها (طواطم) يسبح الناس بحمدهم ويلفون حول قبورهم ويضعون على مدافنهم العمائم الخضراء المكسوة بالديباج ، يطلبون منهم حوائجهم ، وهم لا يقضون حوائج الناس إلاّ (بالرشوة) التى يسمونها (النذر) وتنوعت اختصاص هؤلاء الطواطم (وإذا

لم تفعل طواطم القرى ما يريده الناس ، فلابد من الذهاب إلى طواطم أخر أكثر فاعلية ، طواطم الدرجة الأولى) فى طنطا ، ودسوق والقاهرة ، والإسكندرية .

وهكذا فى كل البلاد العربية ، أرواح هؤلاء الموتى تتراءى لهم مجسدة كما يدعون ولم يعرفوا أنها أرواح عفاريت تضلهم والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ شياطين الأنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ .

ان تعليلى لقصة أحمد حسين باشا ورفيقته فى السفر ، لم تكن أكثر من أن ساكنة من سكان الصحراء من العالم غير المنظورة (الجن) رأت حيرة هؤلاء فساعدتهم ليس إلاّ ، وليس من المفروض أن يفعل الجن كلهم مثل ذلك الفعل ، فهى عاطفة فردية قامت بها هذه الجنية المسلمة هذا ما يؤيده القرآن الكريم ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ﴾ .

هذا هو رأيى استقيته من كتاب الله وأنا أؤمن بوجود الجن فقد سخرهم سليمان عليه السلام فى أعماله ، واتصلوا بالإنس ، وفهمهم الأنس بعلامات خاصة فيهم كما نفهم مثلا الهنود الحمر إذا حلوا بيننا .

ويعزى إلي الشيخ سليم الطهطاوى [1] أنه كان يضع كفه مفتوحا ويطلب بعض الأشياء فيجدها الناس فى كفه ، فأشاعوا عنه الولاية والقبطانية ، وما هى إلاّ (شغل عفاريت) فسادة الأولياء الرسل عليهم السلام ، وأفضلهم محمد ﷺ لم يجابوا إلى بعض طلباتهم ، هذا إبراهيم يستغفر لأبيه فيأبى الله ذلك ، ومحمد عليه الصلاة والسلام يريد هداية عمه أبى طالب فيأبى الله ذلك ، ويريد أن يستغفر الله لبعض المنافقين فيقول الله له ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ .

أما الاستعانة بالشياطين فيستعطيك ما تشتهى ، ما دام المصير النهائى إلى (سقر وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر) ، لقد كان بعض الطغاة يعذبون بعض المؤمنين عذابا أليما ، ويقول للمؤمنين ادع ربك لينقذك من يدى ، أو أين هو لأعذبه مثلك ، هل لك أ ترجونى وتخضع لى وأنا سأعطيك النعيم الذى ترجوه ؟! .

---

(١) يدعى الناس أنه ولى ، وليست هذه الصفة من صفات أولياء الرحمن ، أنها صفة من صفات أولياء الشيطان .

من أعاجيب الرؤى ، ما كتبه أحد الأطباء المشهورين فى مصر (الدكتور نجيب محفوظ) قال دعيت لولادة عسرة لأحدى أميرات الأسرة المالكة فى الأربعينات ومكثت شطرا كبيرا من الليل أجاهد فى سبيل المولود المحشور داخل الرحم حتى تبعث ، ولهنت انفاسى ، فجلست استريح قليلا لأعاود نشاطى ، فأخذتنى سنة من النوم فرأيت فى منامى المرحوم ولدى يخبرنى بأن الأميرة ولدت ويدعونى لإتمام اجراءات الولادة فاستيقظت فوجدتها قد ولدت فعلا .

فأجريت الاسعافات اللازمة لها وللمولود ولما ارتديت ملابسى وغادرت قصر الأمير إلى دارى ، وما أن دخلتها حتى وجدت ابنتى يقظة ، تقول لى ، هل ذهب إليك ؟ قلت من ، قالت ولدك المرحوم فلان ، لقد زارنى فى الحلم وقال إنه ذاهب ليسرى عنك يبشرك بأن الأميرة قد وضعت .

وتعليل هذا الحلم ، سبق أن قدمنا مثله فى موضوعنا هذا معللا .

وهنا واقعة ، كانت مصدرا من مصادر الإدانة ، وقدم الدليل فيها (الحلم) كما سبق ان ذكرنا ان خليفة رسول الله ﷺ أجاز وصية ثابت بن قيس ، والحادثة التى نحن بصددها حدثت فى انجلترا فى سنة ١٨٢٧ ودونتها الجرائد تحت عنوان (لغز المخزن الآخر أو قضية ماريا مارتن) .

فى سنة ١٨٢٧ ، قتل فلاح انجليزى عشيقته ليخفى نتيجة اختلاطه بها غير الشرعى ، إذ لم تمكنه ظروفه المالية من الزواج بها ، ورسم لتنفيذ خطة القتل رسما حاذقا وذلك بأن يعلن أولا أنه سيتزوج الفتاة ، ثم يختفى هو والفتاة ، ويعلن أنهما تزوجا سرا ، وأنهما يقيمان فى جهة مجهولة ، وكان فى الواقع قد قتلها بالرصاص ثم دفن جثتها فى مخزن واختفى حدث القتل ١٨ مايو ١٨٢٧ ونجحت خطة القاتل كل النجاح وأرسل إلى أقربائه بأنه هو وماريا يقيمان فى جزيرة (وايت) فى رغد وهناء ، وكادت القضية تضيع ، لولا أن والدة القتيلة رأت فى منامها ثلاث مرات أن ابنتها قتلت ، ولم يكن هذا الحلم يعنيها كثيرا فلربما ذلك انعكاس الحزن الذى انتابها غير ان الأحلام قد عاودتها ، رأت فيها المخزن الأحمر التى دفنت فيه الفتاة حتى البقعة التى دفنت فيها .

حدثت هذه الأحلام المتكررة بعد قتل ابنتها بعشرة شهور واستطاعت ان تتغلب على عوامل الشك فى نفسها وقاومت التردد فذهبت إلى المخزن الأحمر كما رأت فى الرؤيا ، واستصدرت أمرا بفحص المخزن الداخلى ، وأخلى من محتوياته وعينت مقر الجثة وبالحفر وجدت الجثة وكانت ملابس الفتاة القتيل وأسنانها وبعض تفصيلات فى جسمها كافيا لإثبات أنها هى ، وأعيد التحقيق وثبت القتل على قاتلها بالرغم أنه ادعى أنها انتحرت .

ومثل هذه الأحلام كثيرة وواقعية ، ولا تعتبر دليلا قاطعا من الناحية القانونية، ولكن ليس كل حلم فى مثل هذه الظروف وغيرها على عواهنه فقد تخدع النفس صاحبها ، أو يكون نتيجة لضمور مؤرق لاتهام قد يكون باطلا ، ولكن صاحب الأمر يعتقد أنه حق ، أما ما يقول علماء الأرواح بأن روح الفتاة القتيل اتصلت بأمها فى الحلم وبينت أنها قتلت فلا زلت عند رأيى ، بأن الأرواح بعد الموت تفرغ من أعمال الدنيا ومن شئونها ، وترقد الأجساد فى القبور حتى إذا بعثت من رموسها قالت ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا . هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ وقوله تعالى فى سورة يونس ٤٥ ﴿ يوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ فهم يتعارفون فى القيامة بعد أن يقوموا من مراقدهم ، ولا يتعارفون فى قبورهم كما يقول علماء الأرواح واضرابهم من بعض الفرقة الوثنية إنها أمور غيبية نتركها لله [١] .

ظاهرة الغيبوبة :

هناك غيبوبة مرضية وهناك غيبوبة من نوع غيبوبة وساطية .

أما الغيبوبة المرضية . اضطراب فى المجموع العصبى يتميز بهمود تام فى العضلات وركود عام فى العقل ، وعدم وعى الموجودات بالوقع فيها ، وقد تستغرق هذه الغيبوبة دقائق أو ساعات أو أياما ، وقد تستغرق أسابيع .

(١) قد صور مثل هذه الحوادث شكسبير فى رواية " هملت " .

الغيبوبة الوساطية . إنها نوع من الغيبوبة ولكنها لا تعتمد على مرض معين أو غير معين وهى تختلف كل الاختلاف عن الغيبوبة المرضية وإن كانت تشبهها تماما فى أعراضها .

والأطباء ظلوا ردحا طويلا من الزمن ، يرجعونها إلى الخرافة ، وظلت هذه الحالة مهجورة تماما من الطب حتى السنين الأخيرة ، فإذا حدثت غيبوبة (حالة تخشب) من جراء اختلال الأعصاب واضطرابها بادر الأطباء فى علاجها وبحث أسبابها ، أما إذا كان سبب الغيبوبة (بالوسيط) اعتبروها نوعا من الدجل .

والمعروف أن الوسيط الذى تظهر عليه هذه (الغيبوبة) ليس مريضا البتة وقد أقيمت بعض التجارب على وسيط وقع فى الغيبوبة) أمام شهود منهم الطبيب المعروف فى الأربعينات (الدكتور طرخان أستاذ الهستولوجيا بكلية طب القاهرة) فعلق على هذه الحالة بقوله (إنها حالة شاذة بعيدة كل البعد عن متناول الأطباء . ويسأل الطبيب الدكتور برندلى جيمس فى كتابه الغيبوبة) قائلا : ما هى الغيبوبة إذن ، هى حالة تشبه النوم طواعية ، وهى بعيدة عن المخ أو عن أى علة به أو أى عامل التسمم ولا يمكن تنبيه الواقع فيها وإيقاظه حتى بأعنف الوسائل القوية) .

حدث فى إحدى الجلسات التجريبية فى القاهرة عندما ظهرت هذه الغيبوبة على الوسيط أن دفع أحد الدكاترة وهو الأستاذ الدكتور مشرفه عميد كلية العلوم بالقاهرة بدبوس طويل بعد أن طهره فى فخذ الوسيط الواقع فى الغيبوبة حتى اصطدم الدبوس بالعظم فلم يتحرك الوسيط ولم يتأوه ، واستمر فى تفوهاته وهو ساقط فى الغيبوبة ولما نزع منه الدبوس لم تنزل منه أى نقطة دم .

وجاء بدائرة المعارف الإنجليزية فى طبعتها الرابعة عشرة ، عن الغيبوبة الوساطية ما يلى (يعتبر العلم حالة الغيبوبة الوساطية أشبه شيء بحالة النوم المغناطيسى العميق ، وجاء " أيضا من العلامات المميزة للغيبوبة الوساطية ما يحدث دائما من كلام تلقائى ومثل هذا الكلام التلقائى أو الكتابة التلقائية يحدث أحيانا من اناس كثيرين أصحاء الجسوم وهم اليقظة ، الأمر الذى يدل على عدم وجود أية علامة من علامات الشذوذ غير الطبيعى " .

وجاء أيضا (ولقد اهتموا من جديد فى السنين الأخيرة بأمر دراسة الغيبوبة الوساطية ففحصت فحصا دقيقا) ، ونتيجة هذا الفحص أدت إلى تأييد نظرية

الاستحواذ الخارجي ، ويؤيد هذا القول ما جاء في كتاب (المسألة الكبرى والبينة على حلها) للطبيب الإنجليزي جورج لندسي جونسن ، من أن الوسيطة المشهورة مرجوي عقيلة الدكتور كراندون أستاذ الجراحة بهارفارده ، كتبت وهي واقعة في هذه الغيبوبة تسعة موضوعات مختلفة بتسع لغات مختلفة من بينها اللغة الصينية ، (وهذا يدل على استحواذ شخصيات غير منظورة عليها ، تهيمن على يدها وتكتب ما تريد ، أي ما تريده هذه الشخصيات) .

ويؤيد هذا ما قاله الدكتور ويكلاند في كتابه " ثلاثون سنة بين الموتى " فقد ذكر أنه في احدى جلساته لعلاج (المس الروحي) تحدث أكثر من مرة لأكثر من عشرين روحا بعد أن هيمنت على زوجته وخاطبته بلسانها ، ويعلق على هذا ويقول : " أن أي مجهود لتفسير تجاربنا على مقتضى العقل الباطن . الوعي الذاتي أو نظرية تعدد الشخصية يكون واهيا .

ويقول مؤلف كتاب (الموت وأسبابه وظواهره) إننا نجد صعوبة كبرى في تكوين رأي ما عن الغيبوبة جميعا ، لأن الفسيولوجيا ، لا تدلي بأي بيان عن ظواهر النوم المغناطيسي وهي بعد ، أقل تعرضا لأنواع الوساطية ، أو العضوية ، وتختلف الغيبوبة الوساطية عن النوم اختلافا جوهريا مع اتفاقهما في كثير من الأمر ، ونرى من جانبنا أن الغيبوبة الوساطية يمكن اعتبارها نوعا من التأثير المغناطيسية فنوع من التأثير العقلي المبعوث من عالمنا ، وبعبارة آخرى ان كلتا الغيبوبتين يصح اعتبارها نموذجين من نماذج التأثير العقلي ، أحدهما من عقل إنسان حي ، والثاني من عقل إنسان ميت .

وهكذا يمضي علماء الأرواح ، في القول بأن أرواح الموتى تستحوذ على بعض أرواح الأحياء يسمونهم (الوسطاء الروحيين) أي ان روح الميت لا تستحوذ إلاَّ على ناس مخصوصين .

ولابد لنا من مناقشة موضوع (الاستحواذ) وموضوع " المس الروحي " وكلاهما ينبيء كما يقول علماء الأرواح عن غزو روح ، ميت ضال ، إما ليلقي على لسان (الوسيط) إشعارا ولغات لا يعرفها ، أو يجري على يديه كتابات ربما هو لا يحسن أن يكتبها في حال وعيه ، هذا نوع ، ونوع آخر ، هو المس ويلخصونه في

غزو روح ضال ، أى توفى فجأة فى الحوادث الكونية اليومية كاصطدام قطار أو غرق أو حريق ، فالروح ، يصبح أداة شر ينتقم من الأحياء ، هكذا يقولون .

وللدليل على ذلك ، فى صفحة ٤٤ من كتاب السايكلوجيا والروح للأستاذ فهمى أبو الخير يقول هذه الشخصيات الماسة غير المنظورة قد تكون أرواحا لم تشعر بعد بانتقالها إلى عالم الروح فتلصق بعالم المادة عن طريق تخفيض اهتزازاتها دون وعى منها ، وتسبب إيذاء أو مرضا لسكان منزل أو لإنسان ، وقد تكون هذه الأرواح سببا فى إيذاء نفسها دون وعى منها فهى إذن أرواح غازية ومغزوة فى آن واحد ، والانتقال الفجائى إلى عالم الروح كما فى الحروب أو الحوادث العارضة من الوسائل الفعالة فى هذا الصدد (١) .

ويقول أيضا ، إن الموت الفجائى يجعل الروح لا تفهم حقيقة الحال الجديدة ، فتجهل كثيرا من الأرواح حقيقة موتها وقد يظلون فى جهلهم سادرين إلى أن ينبههم سكان عالم الروح ممن سبقوهم ، إلى إنهم ماتوا ، أو ينبهون من قبل الجلسات الروحية التى تقام وتقنعهم بأنهم ماتوا ...

يا اللّٰه من هذا التخريف ؟! ، ومن الأسف الشديد ، إننى أعرف كثيرا من بسطاء العقول من المتفقهين ، ومن الباحثين ، والمتفلسفين ، يشارك فى هذا الرأى المخرف .

قرأت فى إحدى كتب المتصوفة ، هذا الخبر الغريب قال أحد الصوفية ، ذهبت لأغسل زميلا لى مات ، أثناء ما كنت أصب على جسده الماء قرص إصبعى ، فقلت له ، يا هذا أنا أعلم أنك لم تمت ، وأنك انتقلت إلى عالم آخر (٢) .

بل والأخرى أنهم حاضرون بيننا ، وبعضهم يقوم بتصريف أمور العباد ، ولو ذهبت إلى قبور الذين يسمونهم ، أهل التصريف ، لوجدت كثيرا من (الخطابات المرسلة من كثير من الناس يطلبون من هؤلاء الأقطاب ، قصف رقبة عدوهم فلان أو

---

(١) ترى من ذلك مبلغ مجافاة علماء الأرواح لنصوص الدين باسم تجاربهم ، ومشى فى طريقهم الزنادقة ووضعوا أحاديث كذبا على الرسول ﷺ وبلغت بهم الجرؤة أن يقولوا إن الحديث ينسخ القرآن ، وأنهم يأخذون الأحاديث من الرسول مباشرة فى اليقظة والنوم !! .

(٢) ومنهم من يؤلف الكتب فى هذا ، والناس تقبل على كتبهم نظرا لمنزلتهم من مراكزهم الدينية ى يحتلونها ؟!

والانحراف من ذلك ما يقوله الشاذلية ويكتبونه فى المجلات [illegible] إن أبا الحسن الشاذلى هو الذى دفن نفسه ويصدقهم فى ذلك كثير من كبار العمائم .. ما

إحراق زراعته ، أو تيتيم أطفاله من بعده ، حتى قال صاحب كتاب الولاية للترمذى ان من ضمن ألقاب ساكن (طنطا) العطاب ، فهو يعطب أعداء إيمانهم أنى شاء).

هذه العقيدة هى خلاصة ما يريده علماء الأرواح ، فمرحى ما دام الروح لا تذهب بعد الموت كما يقول الرسول ﷺ (القبر روضة الجنة أو حفرة النار) بل ستأتى إليـنا ، لتشاغب من تشاء ، وتعطب من تشاء .

إنى أوجه النظر إلى من يقرأ كتابى هذا ألا يغتر بذوى الأراء الخارجة ، وأن يرجع إلى كتاب الله فى كل شىء ، ولا يقول قال صاحب الفضيلة الأكبر كذا وكذا إلاّ بعد أن يقع الدليل له من أثر قرآنى جليل ، أو من حديث صحيح لا يجافى القرآن الكريم والعقل السليم .

وإليك نموذجا من مدعى العلم عندنا فى سنة ١٩١٤ .

سمع الشيخ بكرى محمد الصدفى مفتى الديار المصرية أن الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخ الأزهر قد سعى فى إغضاب قلب الخديوى عباس عليه فقرر ان ينتقم من خصمه ، بأن يحيل عليه (السيد البدوى) لينتقم منه فنظم قصيدة عصماء وأرسلها إلى (البدوى) فى البريد ...

وحدث أن كان الخديوى عباس يمر بضريح البدوى فلفت نظره وجود أوراق كثيرة داخل قفص الضريح ، ولما سأل عن هذه الأوراق ، وسبب وضعها ، على الأرض تحت خشب الضريح قيل له إنها شكايات (المظلومين) ترسل إلى البدوى ليبت فيها بنفسه ، فهم يعرفونها إليه بصفته (القطب الكبير المتصرف فى الكون) فأمر بإخراجها فوجد بينها هذه القصيدة المرفوعة من مفتى الديار المصرية إلى القطب يشكو إليه ظلم شيخ الززهر فقامت ضجة أودت بالشيخ المفتى نفسه وأقصى عن وظيفة الأفتاء [1] .

ومن أغرب ما قرأت فى إحدى المجلات التى تطبع لدينا ، أسبوعيا ، ويقبل عليها الناس للشراء ، لأن فيها يكتب بعض المشار إليهم بالبنان ، وهى مجلة تكتب فى الدين والتشريع والعقيدة قرأت فتوى (من عالم مرموق المنصب لا مرموق العلم) يأمر الناس بزيارة الموتى فى قبورهم فى رجب ، لأن الموتى ينتظرون الزائرين ويفرحون بزيارتهم لهم ويتفاخرون (بعضهم مع بعض) بذلك ، فعلقت على

هذه الفتوى الصوفية بقولى ، إن الموتى الذين فارقوا الحياة منذ مئات السنين ، يبكون فى قبورهم حزنا لأن أهاليهم فى الدنيا انقرضوا ولذلك لا يزورهم أحد ، إنها عقيدة الروحية التى قالت الروحية التى قال بها الزنادقة فى الأمم الوثنية ، وابتلى الإسلام بالآلاف من أبى جهل ، ولم يمت أبو لهب ، فقد خلف ألافا يدعون انهم أولى بالرسول الكريم وأنهم عترته ، ولكن أعمالهم بعيدة عن منهجه ﷺ .

وما مؤلفات الشعرواى ، وابن عربى ، إلاّ ترديد لأقوال علماء الأرواح وترويج لهذه الفلسفة الكذبة المفترية على الدين .

ماذا يقول القرآن الكريم عن الموتى ، ؟! .

وضح القرآن الكريم أحوال الناس عند قبض أرواحهم فى آيات كثيرة سنورد بعضها ونشرحها بفضل الله ، حتى نأتى على ضلالة القائلين بحضور الأرواح ومشاغبتها للأحياء ، أو حضورها للتصريف فى الكون أو لإعطاء العهود والمواثيق لمريدين .. إلخ .

أرواح المجاهدين فى سبيل الله قتلى الحروب الإسلامية :

قال تعالى فى سورة آل عمران ١٦٩ ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون ...﴾ أيه آخرى فى سورة البقرة بهذا المعنى ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ...﴾ .

فيه ثمان مسائل :

(الأولى) : لما بين الله تعالى ما كان يوم أحد وأنه كان امتحانا ، يميز المنافق من المؤمن ، بين سبحانه أن من قتل فى موقعة أحد له الكرامة ، والحياة عنده ، وقيل إنَّ الآية نزلت فى شهداء ئر معونة ، وقيل بل هى عامة فى جميع الشهداء وفى مصنف أبى داود باسناد صحيح عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ " لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله رواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب

مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا من يبلغ إخواننا عنا ، إنا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب .

فقال الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم – قال فأنزل الله الآيات ، ولا تحسبن ... إلخ ورروى عن جابر قال لقينى رسول الله فقال يا جابر مالى أراك منكا مهتما قلت يا رسول الله استشهد أبى وترك عيالا وعليه دين فقال ، ألا أبشرك بما لقى الله عز وجل أباك ؟ . قلت بلى رسول الله ؟ قال إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحا – مواجهة – وما كلم أحدا قط إلاّ من وراء حجاب فقال يا عبدى تمن أعطك ، قال ، يارب فردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية ، فقال الرب تبارك وتعالى ، قد سبق منى إنهم (إليها) لا يرجعون [1] قال يا رب فأبلغ من ورائى فأنزل الله عز وجل ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله ... ﴾ الأية .

" اخرجه ابن ماجه فى سننه " والترمذى فى جامعه ، وقال هذا حديث حسن غريب وروى وكيع عن سعيد بن جبير ، قال ، لما أصيب حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير ورأوا من الخير قالوا ، ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كى يزدادوا فى الجهاد رغبة ، فقال الله تعالى ﴿ أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله عز وجل ، ولا تحسبن الذين .. إلخ ﴾ وقال أبو الضحى ، نزلت هذه الأية فى أهل بدر خاصة ، وقيل هى فى أهل أحد خاصة ، وقال آخرون إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة وسرور تحسروا وقالوا ، نحن فى النعمة والسرور . وأباؤنا وأخواننا فى القبور فأنزل الله تعالى هذه الأية تنفيسا عنهم وإخبارا منه عن حال قتلاهم ، قال القرطبى ، وبالجملة يحتمل أن يكون النزول بسبب المجموع فقد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياء فى الجنة يرزقون ، ولا محالة إن أجسادهم فى التراب وأرواحهم حية كسائر أرواح المؤمنين ، وفضلوا بالرزق فى الجنة من وقت القتل حتى كأن حياة الجنة دائمة لهم .

وقد اختلف العلماء فى المراد ، فالذى عليه معظمهم ، إن حياة الشهداء محققة ثم منهم من يقول ترد إليهم أرواحهم فى قبورهم فينعمون كما يحيا الكفار فى

---

(١) فى حرب ١٩٧٣ بيننا وبين اليهود ، كتب شيخ صوفى فى الجرائد يقول إن الرسول ﷺ رؤى يحارب فى سينا ولما حدثت ثغرة الدفرسوار ، قال الصوفية إن الرسول « زعلان منا » ؟! .

قبورهم فيعذبون ، وقال مجاهد : يرزقون من ثمار الجنة ، أى يجدون ريحها وليسوا فيها ، وصار قوم إلى أن هذا مجاز ، والمعنى أنهم فى حكم الله مستحقون للتنعيم فى الجنة ، كما يقال : ما مات فلان ، أى ذكره حى ، كما قيل :

قد مات قوم وهم فى الناس أحياء ... مـــوت التقى حياة لا فنـــــاء له

فالمعنى انهم يرزقون الثناء الجميل ، وقال آخرون ، أرواحهم طيور خضر وأنهم يرزقون فى الجنة ويأكلون ويتنعمون وهذا هو الصحيح من الأقوال ، لأن ما صح به النقل فهو الواقع ، وحديث ابن عباس ، نص يرفع الخلاف ، وكذلك حديث ابن مسعود " خرجه مسلم " وفى قوله تعالى " بل أحياء " يرفع الإشكال ، بأن الحياة حقيقة كحياة أهل الدنيا ، يرزقون فيها ولا يرزق إلا الحى ، وقيل أنهم يكتب لهم فى كل سنة ثواب غزوة ويشركون فى ثواب كل جهاد كان بعدهم إلى يوم القيامة لأنهم سنوا أمر الجهاد - ففى الحديث الشريف ما معناه من سن سنة حسنة فله أجر من فعل بها إلى يوم القيامة ، نظيره قوله تعالى : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ... ﴾

الثانى : غسل الشهداء والصلاة عليهم فذهب مالك والشافعى وأبو حنيفة والثورى إلى غسل جميع الشهداء والصلاة عليهم إلاَّ قتيل المعترك فى قتال العدو خاصة لحديث جابر (ادفنوهم بدمائهم) يعنى يوم أحد ولم يغسلهم رواه البخارى وأبو داوود عن ابن عباس قوله ، أمر رسول الله ﷺ بقتلى أحد أن ينزع عنهم الحديد والجلود وأن يدفنوا بدمائهم وثيابهم ، وبهذا قال (أحمد وإسحاق والأوزاعى وداوود بن على وجماعة فقهاء الأمصار ، وأهل الحديث وقال سعيد بن المسيب والحسن ، يغسلون قال أحدهم إنما لم تغسل شهداء أحد لكثرتهم والشغل عن ذلك والعلة فى ذلك ، والله أعلم ، ما جاء فى حديث من دمائهم أنها تأتى يوم القيامة كريح المسك ، هذه هى العلة التى يتمسك بها القائلون بعدم الغسل والمسألة هنا تقتضى اتباع الأثر الذى نقله الكافة فى قتلى أحد لم يغسلوا .

الثالث : أما الصلاة عليهم فاختلف العلماء فى ذلك ، فذهب مالك والليث والشافعى وأحمد وداود إلى أنهم لا يصلى عليهم لحديث جابر ، قال ، كان النبى

ﷺ يجمع بين الرجلين فى ثوب واحد ، من قتلى أحد ثم يقول : " أيهما أكثر أخذا بالقرآن " فإذا أشير إلى أحدهما قدمه فى اللحد وقال " أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم .

وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشام يصلى عليهم ، ورووا أثارا كثيرة أكثرها مراسيل ، أن النبى ﷺ صلى على حمزة وعلى سائر شهداء احد .

الرابعة : أجمع العلماء على أن الشهيد إذا حمل حيا ولم يمت فى المعترك وعاش وأكل فأنه يصلى عليه كما قد صنع فى الصحابة الذين ظلوا أحياء وماتوا على فراشهم .

واختلفوا فيمن قتل مظلوما ، كقتيل الخوارج وقطاع الطرق وشبه ذلك ، فقال أبو حنيفة والثورى كل من قتل مظلوما لا يغسل ، ولكن يصلى عليه وعلى كل شهيد هو قول سائر أهل العراق ، ورووا من طرق كثيرة عن زيد بن صوحان ، وكان قتل يوم الجمل " لا تنزعوا عنى ثوبا ولا تغسلوا عنى دما " وروي عن عمار بن ياسر مثل ذلك وقتل عمار بن ياسر فى صفين ولم يغسله على رضى الله عنهما قال مالك ، ولا يغسل من قتله الكفار ومات فى المعترك وما سوى ذلك يغسل ويصلى عليه وهو قول أحمد بن حنبل ، وقول الشافعى (لا يغسل قتيل البغاة) .

قال القرطبى : واجب غسل كل ميت إلاّ من أخرجه إجماع أو سنة ثابتة ، وبالله التوفيق .

الخامسة : إذا صبح العدو قوما فى منزلهم لم يعلموا به فقتل منهم ، فهل يكون حكمه حكم قتيل المعترك ، أو حكم سائر القتلى ، كالذين قتلوا غدرا فى « صبرا ، وشتيلا » إذا أنهم كانوا فى خيماتهم لم يعلنوا أى حرب ، ولم يقوموا بأى اعتداء ، ولكن « الصهاينة » لخطة موضوعية بها يريدون القضاء النهائى على العرب ، وفلسطين بالذات ، واحتج العالم ، وهدأ ولم يفعل شيئا ، والخطة فى طريقها سائرة كما قضى مهاجر وأوربا على سكان أمريكا الأصلاء ، والهنود الحمر ...

ندع العلامة القرطبى ، يقص علينا حادثا مثل هذا الحادث فى ص١٥١٤ طبعة كتاب الشعب ، قال ما موجزه ، العدو إذا صبح قوم منازلهم ولم يعملوا به فقتل منهم ، فهل يكون حكم القتيل كحكم من قتل فى المعركة سائر الموتى ؟ وهذه

مسألة نزلت عندنا فى قرطبة أعاذها الله ، أغار العدو قصمه الله صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وستمائة والناس فى أجرانهم على غفلة فقتل وأسر وكان من جملة من قتل والدى رحمه الله فسألت شيخا ، فقال غسله وصل عليه فإن أباك لم يقتل فى المعترك بين الصفين ثم سألت شيخا آخر فقال إنَّ حكمه حكم قتلى المعترك .. ثم سألت قاضى الجماعة وحوله جمهرة من العلماء فقالوا غسله وكفنه وصل عليه ففعلت ذلك [1] .

السادسة : هذه الآية تدل على عظيم ثواب القتل فى سبيل الله فيه حتى إنه يكفر الذنوب ، كما قال ﷺ " القتل فى سبيل الله يكفر كل شىء إلا الدين كذلك قال لى جبريل عليه السلام آنفا ، قال العلماء وذكر الدين تنبيه على ما فى معناه من الحقوق المغتصبة المتعلقة بالذمة ، كالغصب وأخذ المال بالباطل والرشوة والسحت وتطفيف الكيل والميزان والضرر والفشل وما إلى ذلك ، فإن هذا أولى ألاَّ يُغْفَر بالجهاد من الدين فإنه نأشد ، والقصاص فى كل هذا بالحسنات والسيئات حسبما وردت به السنة الثابتة روى عبد الله بن أنيس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ، يحشر العباد ، أو قال الناس . (شك الراوى وأومأ بيده إلى الشام) عراة غرلا بُهْماً قلنا ما بهم ، قال ليس معهم شىء ، فيناديهم (الله جل جلاله) بصوت يسمعه من قرب ومن بعد أنا الملك الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة وأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة ، قال قلنا ، كيف نأتى الله حفاة غرلا قال بالحسنات والسيئات أخرجه الحارث وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال ، " أتدرون من المفلس " قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال إن المفلس يوم القيامة من يأتى بصلاة وزكاة وصيام ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى طرح فى النار . وقال ﷺ والذى نفسى بيده لو أن رجلا قتل فى سبيل الله ثم قتل وعليه

---

(١) نلاحظ أن سبب خروج العرب من أسبانيا مدحورين ، هو نفسه السبب فى طرد الفلسطينيين من ديارهم ، ما أشبه اليوم البارحة !؟ . ولم يبك أحد على أسبانيا المسلمة سوى لطفى المنفلوطى فى كتابه « العبرات » .

دين ما دخل الجنة حتى يقضى عنه ، وعن أبى هريرة عن الرسول ﷺ " نفس المؤمن معلقة بما عليه من دين " وهذا يدل على أن بعض الشهداء لا يدخلون الجنة من حين القتل ولا تكون أرواحهم فى جوف طير كما ذكرتم ، ولا يكونون فى قبورهم ، فأين يكونون ؟! ، قلنا ، قد ورد عن النبى ﷺ إنه ، قال ، أرواح الشهداء على نهر باب الجنة يقال له بارق يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا ، وأخيرا ، فإننا نكل هذا كله إلى علم الله تعالى ، إنهم طبقات فى أحوال مختلفة يجمعها (أنهم يرزقون) لا نعرف كيف ؟ وعن ابن ماجه القزوينى ، كما فى سننه عن سليم بن عامر قال سمعت أبا أمامه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول " شهيد البحر مثل شهيد البر ، والمائد ، فى البحر كالمتشحط فى دمه فى البر وما بين الموجتين كقاطع الدنيا فى طاعة الله ، وأن الله عز وجل وكل ملكا يقبض الأرواح ، إلاّ شهيد البحر فإنه يتولى قبض أرواحهم ويغفر لشهيد البر الذنوب كلها إلا الدين وشهيد البحر الذنوب والدين .

السابعة : الدين الذى يحبس به صاحبه عن الجنة ، والله أعلم ، هو الذى قد ترك له وفاء ولم يوص به قادرا على الأداء ، فلم يؤده أو اداه فى سرف أو فى سفه ومات ولم يوفه ، أماً ممن أدان فى حق لفاقة وعسر ومات ولم يترك وفاء فإن الله لا يحبسه عن الجنة إن شاء الله ، لأن على السلطان فرضا أن يؤدى عنه دينه ، إما من جملة الصدقات ، من سهم الغارمين فى سبيل الله ، أو من الفىء الراجع على المسلمين ، قال عليه الصلاة والسلام من ترك دينا أو ضياعا - عيالا - فعلى الله ورسوله ومن ترك مالا فلورثته .

الثامنة : قول تعالى ﴿ عند ربهم يرزقون ﴾ فيه حذف مضاف تقديره عن كرامة ربهم ، وعند هنا تقتضى غاية فهى كلدى ولذلك لم تصغر ، قال سيبويه ، إنها عندية الكرامة لا عندية المسافة والقرب .

ويرزقون ، هو الرزق المعروف ، إن الأرواح تدرك فى تلك الحال التى يسرحون فيها من روائح الجنة وطيبها وسرورها ما يليق بالأرواح ، مما ترزق وتنتعش به ، أما اللذات الجسمية فإذا أعيدت تلك الأرواح إلى أجسادها استوفت من النعيم جميع ما أعد الله لها .

فرحين ، نصب على موضع الحال ، ويجوز فى الكلام (فرحون) على النعت لأحياء وهو من الفرح بمعنى السرور ، وقرأ ابن السميقع (فارحين) وهما لغتان كالحذر والحاذر والطمع والبخل قال النحاس يجوز فى غير القرآن رفعه .

(يستبشرون بهم من خلفهم) ، المعنى لم يلحقوا بهم فى الفضل إن كان لهم فضل قال السدى ، يؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر من يقدم عليه من إخوانه فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقدومه فى الدنيا وقيل ، استبشارهم بأنهم يقولون ، إخواننا الذين تركناهم فى الدنيا يقاتلون فى سبيل الله فيستشهدون فينالون الكرامة مثل ما نحن فيه فيسرون ويفرحون لهم بذلك ..

(يستبشرون بنعمة من الله وفضل) ، أى بجنة من الله (وفضل) ويقال بمغفرة من الله " وفضل " هذا لزيادة البيان ، والفضل داخل النعمة وفيه دليل على اتساعها وأنها ليست كنعم الدنيا وقيل جاء الفضل بعد على وجه التأكيد روى الترمذى قال : قال رسول الله ﷺ « للشهيد عند الله ست خصال ، يغفر له فى أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين حورية (من الحور العين) ويشفع فى سبعين من أقاربه » ، قال وهذا حديث حسن وروى عن مجاهد قال السيوف مفاتيح الجنة ..

هذا حال من مات فجأة فى الحروب والمعارك ، أو حتف أنفه فى غرق ، أو معترك فهل ترى فى ذلك كما يقول ترى فى ذلك كما يقول (الوثنيون) من علماء الأرواح أن أرواحهم تأتى إلى الدنيا لتشاغب الناس وتضرهم وتؤذيهم لأنها لا تعلم أنها خرجت من الدنيا ، وبعد مدة فإن الأرواح التى انتقلت إلى العالم الآخر تقنعها بأنها ماتت أليس ذلك قولهم !!

قاتلهم الله أنى يؤفكون ، هذه حالة بعض الموتى ، ونأتى لحالة أخرى .

قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ .

قوله تعالى : (ومن أظلم ، مبتدأ أو خبره أي لا أحد أظلم (ممن افترى) أي اختلق على الله كذبا أو قال أوحى إلىّ) فزعم أنه نبى (ولم يوح إليه بشىء) .

نزلت فى مدعى النبوة ، رحمان اليمامة والأسود العنسى ، ومسيلمة وسجاح التميمية وكل من زعم (أنه يوحى إليه) .

ويقول القرطبى ص٣٩ الجزء السابع ، ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن ، فيقول وقع فى خاطرى كذا أو أخبرنى بكذا فيحكون بما وقع فى قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوها من الأغيار ، فتتجلى لهم العلوم الربانية الإلهية ، فيقفون على أسوار الكليات ، ويعلمون أحكام الجزئيات ، ويقولون ، هذه الأحكام الشرعية للعامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعوام ، أما الأولياء وأهل الخصوص ، فلا يحتاجون إلى تلك النصوص وقد جاء فيما ينقلون (استفت وإن افتاك المفتون [1]) ويستدلون على هذا بالخضر [2] وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم ، وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ، ولا يحتاج معه إلى سؤال وجواب فإنه يلزم منه هد الأحكام الشرعية وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ .

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، من فى وضع خفض أى وممن قال ، والمراد عبد الله بن أبى سرح كان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ ثم ارتد ولحق بالمشركين .

وسبب ذلك كما قال المفسرون إنه لما نزلت الأية التى فى سورة (المؤمنون) ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين دعاه النبى ﷺ فأملاه عليه فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ ثم انشأناه خلقا آخر ﴾ عجب عبد الله فى تفصيل خلق الإنسان فقال (تبارك الله أحسن الخالقين) فقال رسول الله ﷺ " هكذا أنزلت على " فشك عبد الله حينئذ وقال ، لئن كان محمد صادقا لقد أوحى إلىّ كما أوحى إليه ، ولئن كان

---

(١) إن كان هذا الحديث صحيحا ، فقد أخذه المغرضون لأغراض خبيثة ، والمعنى المقصود إنه لو تكاثرت عليك فتاوى الخير المسندة إلى الدليل القوى ، فخذ بأقربها إلى عقلك ، وهو المقصود بالقلب والله أعلم .

(٢) قصة الخضر وموسى معروفة ، ومات موسى ومات الخضر ولكن شيوخ الصوفية يقولون إن الخضر لم يمت وهم يقاتلونه ويأخذون عنه علم الحقيقة ؟! ليت الصوفية يقولون لنا أين يعيش ؟! فى أمريكا أو الهند أو السند أو فى درب المجاذيب بالسيدة زينب ؟!! .

كاذبا لقد قلت كما قال ، فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين فذلك قوله ﴿ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ ، فلما دخل رسول الله مكة أمر بقتله فشفع فيه أحد الصحابة ، وأسلم عبد الله بن سعد ابن أبى السرح أيام الفتح فحسن إسلامه ولم يظهر منه ما ينكر عليه بعد ذلك ، وهو أحد النجباء العقلاء الكرماء من قريش وفارس بنى عامر بن لؤى المعدود فيهم ، ثم ولاه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين ، وفتح على يديه إفريقية سنة سبع وعشرين وغزا الأساود فى أرض النوبة سنة احدى وثلاثين ، وهو الذى هاذهم الهدنة الباقية إلى اليوم وغزا الصوارى من أرض الروم سنة أربع وثلاثين وتوفى سنة ست وثلاثين ،

وهذه الآية على العموم نزلت فى كل من يدعى أنه يوحى إليه .

ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، أى فى شدائده وسكراته ، والغمر الشدة وأصلها الشىء الذى يغمر الأشياء فيغطيها ومنه غمرة الماء ثم وضعت معنى الشدائد والمكاره ومنه غمرات الحرب ، والجمع غُمَرْ مثل نوبة ونوب ، وغمرات الموت ، شدائده والملائكة باسطو أيديهم ، إبتداء وخبر قبل بالعذاب ومطارق الحديد، وقيل لقبض أرواحهم ويؤيده قول الله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ .

أخرجوا أنفسكم ، أى خلصوها من العذاب أمنكم ، وهو توبيخ ، وقيل ، أخرجوها كرها لأن روح المؤمن تنشط للخروج للقاء ربه ، وروح الكافر تنتزع انتزاعا شديدا ، ويقال أيتها النفس الخبيثة أخرجى ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله وهوانه ، وجواب لو محذوف لعظم الأمر ، أى ولو رأيت الظالمين فى هذه الحال رأيت عذابا عظيما ، والهون والهوان سواء .

تستكبرون ، أى تتعظمون وتأنفون عن قبول آياته .

وحالة أخرى من حالات الموت ، قوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيب من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أينما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ... قوله تعالى : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ أى ما كتب من رزق وعمر وعمل أو من شقاء وسعادة أو خير أو شر .

حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ، يعنى رسل ملك الموت ، وقيل الكتاب هنا القرآن ، لأن عذاب الكفار مذكور فيه ، وقيل الكتاب اللوح المحفوظ ، حتى ، هنا ليست غاية ، بل هى ابتداء خبر عنهم ، قال الخليل وسيبويه ، حتى وأما وألا ، لا يملن لأنهن حروف وتكتب بالياء لأنها أشبهت سكرى .

أينما كنتم تدعون من دون الله [1] ، سؤال توبيخ ومعنى تدعون ، تعبدون .

وأخيرا ، لقد بينت الدليل الكافى فى مصير الأرواح بعد الموت ، أما ما يقوله علماء الأرواح وإخوانهم الصوفية بالإتصال المباشر بالموتى بعد مماتهم فهذا خروج عن الحق وماذا بعد الحق إلاّ الضلال ، وسآتى بأقوالهم ، حتى لا يقال إننى اتجنى عليهم ، وأدعى عليهم كذبا ، حاشا لله ، إننى آمل أن ينتبه المؤمن إلى خرافات هؤلاء وأباطيلهم حتى ولو زخرفوها باسماء علماء أعلام فى نظرهم وأضافوا عليهم القاب الولاية ، والعارف بالله والقطب ، وسلطان العارفين ، وشهيد العشق الإلهى، هذه كلها القاب لا يعرفها الإسلام ، ولو كانت من الإسلام كان الله سبحانه وتعالى لقب بها انبياءه ومرسليه وأصفياءه ولكنها ألفاظ شيطانية ، وولاية شيطانية ، وعلى المؤمن أن يفرق بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، يقول (ملدون) فى كتاب (الطرح الروحى) وهذه ترجمته بقلم المعجب به فهمى أبو الخير ناشر فلسفة (الثيوصوفية) والاتصال بالأرواح بعد الموت ، فى كتابه السايكلوجيا والروح ص٤٦ مانصه ، مترجما ، (والانتقال الفجائى إلى عالم الروح كما فى الحروب ، أو الحوادث العارضة من الوسائل الفعالة فى هذا الصدد لأن الموت يكون فجائيا ، فيجهل الكثيرون من القتلى حقيقة الحال ، وقد يظلون فى جهلهم سادرين سنين إلى أن ينبههم سكان عالم الروح ممن سبقوهم ، أو ينبهون فى الجلسات الروحية عن طريق الوسطاء الروحيين ، وكثيرون ممن يكونون قد عانوا ألما شديدا فى مماتهم يشكون عند حضورهم فى الجلسات الروحية من آلامهم التى تذوقها بجسومهم المادية ساعة الموت ، والواقع أن الجسم الروحى مع حصانته ضد الآلام ينسلخ من الجسم المادى فيظل الشعور بالألم موجودا ، فقد انتقل إليه من ذلك الجسم المادى عندما كان الجسمان فى مدى حبل الاتصال الأثيرى الذى يصل ما بين

---

(١) وهذا رد صريح فى الذين يدعون الأولياء ومن على شاكلتهم بحجة التقريب إلى الله ...

رأس الروح ورأس الجسد فيظل الشعور بالألم موجودا ، ويكون الروح فى هذه الحالة مغزوا كذلك على هذا النمط فهو ممسوس أيضا ، وقد تبقى حالة المس طويلا بعد انقلات هذا الحبل بعد الموت ، ثم يواصل حديثه ويقول أيضا ، ووسط هذا الحبل ظل الميت الذى يعانيه ، وقد يغزو ، هو فى هذه الحالة هالة أحد الأحياء منا ، فيحدث حالة من حالات المس الغريبة ، ومن جهة أخرى عن أرواح القتلى والمخرودين والغرقى والمنتحرين أى الذين لا يموتون موتا طبيعيا تستحيل إلى قوى ملموسة تحدث أصواتا ، وتقذف الناس بالطوب والحجارة ، وتبعثر الأثاث فى المنازل وما إلى ذلك من الشغب والإيذاء . وبعد ، فقد أتينا على هذا كله ودحضنا القائلين (بمشاغبة الأرواح التى انتقل أصحابها إلى العالم الآخر ، وقلنا إن سنة الله فى خلقه ، أن الأرواح بعد مغادرتها الجسد فى رضوان الله أو فى الجحيم ، بنص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة ، وليست الأرواح خاضعة لنا نطلبها فتأتى كما نشاء .

الثيوصوفية ، وتجسيد الأرواح بعد طرحها أو فناء أجسادها :

ترى هذه الخرافة « منتشرة جدا فى كتب (الروحيين) كما إنها منتشرة أيضا فى كتب الصوفية ، ولم تخل منها كتب فيلسوف الصوفية الأكبر ، أو حجة الإسلام كما يسمونه (أبو حامد الغزالى) فى كتابه المشهور ، إحياء علوم الدين يقول علماء الروحية « إن هناك طرحين » إجبارى ، وهذا ما يمارسه الناس جميعا عند النوم ، واختيارى ، وهذا لا يقوم به إلا الموهوبون فيرى بعض الناس (الروح الذى طرحها اختيارا تصل إلى المكان الذى أراده وتتحدث مع الناس الذى شاء أن يتحدث معهم ، وكتب علماء الروحية فى ذلك كثيرا ، وألفوا مؤلفات كثيرة منها الإنسان ، ذلك المجهول ، للدكتور اليسكى كاريل ، وكتاب (الإنسان خارج جسده) الذى ظهر فى شهر مارس ١٩٤٣ الذى فيه يقرر أن أحد اعضاء المجلس البريطانى (سيركارن نراش) رئى فى المجلس وقد كان طريح الفراش فى منزله ، وأن كثيرا من أعضاء المجلس البريطانى رأوه حقيقة وحيوه وكانت تعلوه صفرة ، وأنه جلس فى مقعد بعيد عن مقعده العادى [١] ويرى علماء الروحية أن بعض

(١) وفى كتب الصوفية وأشهرها طبقات الشعرانى يتحدث عن كثير من الذين يسميهم « الأولياء » إنهم رءوا فى أكثر من مكان بصور مختلفة ...

الموهوبين يمكنهم أن يطرحوا أرواحهم ليحضروا بها جلسات ذوى الأجساد ويكون لهم جسد مادى مؤقت غير الجسد الحقيقى لهم ، ولكن له نفس مميزات الجسد العادى من حيث الشكل والتكوين وقد جمع الأستاذ فهمى أبو الخير فى كتاب (السايكولوجيا) كثيرا من التجارب التى عملت فى هذا الشزن (ص ٤٠ وما بعدها) وأيدها بأقوال كثير من علماء الروحية ، وأكثر من ذلك ادعاؤهم بأنهم أمكنهم وزن الروح ووصف كنهها ، إنها كما يقولون موجات ضوئية ذات لون أشهب صلب فى زرقة تشبه الموجات الحرارية ... إلخ .

ويعجبنى فى الرد على هذه الأساطير الروحية ، قول (أمير بقطر) عميد الجامعة الأمريكية سابقا فى مجلة (التربية الحديثة) مانصه ، تعليقا على كتاب (لغز الموت) كاميل فلامريون فى وقائع لا حصر لها ينسبها المؤلف إلى الأرواح ، وقد كتب الطبيب الإنجليزى الشهير فريدريك تعليقا على الكتاب سالف الذكر ما ترجمته . كثير من الظواهر التى ينسبها البعض إلي الأرواح كالرؤى والأصوات يمكن اعتبارها فى الحقيقة ضربا من الهذيان والخداع البصرى والهلوسة (السمعية والبصرية) فللحواس ألوان من الخداع لا حصر لها ، والخيال متى اشتد وهاج كان أثره بليغا لدى شديدى الحساسية ، كما أن قوة الخداع الذاتى لا حد لها كما يشهد بذلك خيار الأطباء ، والأشباح والأرواح لا تظهر عادة لذوى العقول والأجسام السليمة ، كما أن كثيرا من الأحلام تكون نتيجة لسوء الهضم ، فالأصوات الغريبة لا يسمعها إلاّ ذوو العقول المخبولة ، والأشباح لا يراها إلاّ ذوو الأذهان المضطربة والنفوس المريضة ... إلخ

هذا ما اقتطفته من ترجمة الدكتور أمير بقطر لموضوع (الأرواح) ديسمبر ١٩٤٣ مجلة (التربية الحديثة) بالجامعة الأمريكية .

وهو رأى علماء النفس ، وعلماء الطب .

ولكن الجميع تناسوا شيئا هاما تناسوا أننا نعيش فى عالم فيه غيرنا ، العالم غير المنظور ، عالم الجن والعفاريت ، العالم الذى قال فيه اللّه تعالى فى حق إبليس ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ نسوا أن بيننا وبين هذا العالم جوارا وأن بعض هذا العالم عدو مبين ﴿ إن الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ لقد طلب إبليس من اللّه سبحانه وتعالى أن يبقيه لآخر الدهر

فأقرأ قوله تعالى كما جاء فى سورة الأعراف الآية « ١٠ » وما بعدها ﴿ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ، ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين ، قال ما منعك ألاّ تسجد إذا أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ، قال انظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين ، قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ، قال أخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ ... ١٠ - ١٧ (سورة الأعراف) .

هذه قصة الخليقة من قبل ، فقد أوتى إبليس من خوارق العادات والقدرات ، ما به يغرى أولياءه وأصفياءه إلى طريق جهنم التى سيخلد فيها ، وخوارق الشيطان كثيرة ، وأعوانه أكثر وأشد ، وأساليبه فى الغواية أكبر من أن يفكر فيها عالم نفسانى مهما أوتى من قوة الإيحاء ، ولم نجد شيئا أضر على الشيطان من الاستعاذة من شروره بالله سبحانه وتعالى حتى إذا أردنا أن نقرأ كلام الله ، قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ سورة النحل ٩٨ .

إن خرافة تحضير الأرواح وتجسد الأرواح وطرح الأرواح "خرافة شيطانية" ومع الأسف الشديد إن إيمان الصوفية بهذه الخرافة ، جعلهم يعتقدون بحضور مشايخهم الموتى فى جلسات (الحضرات) ليسلكوا لهم الطريق ، وهم ينادونهم دائما محتجين بأن أرواحهم متجسدة وموجودة ، ويكتبون فى الجرائد ذلك علنا ، ومنهم من يقول (إنه لا يفارق الرسول طرفة عين ، ومنهم الذى ادعى بأنه سلم على الرسول ﷺ فى قبره) ومنهم من لا يفارقه الخضر ليلا ولا نهارا ... أرأيت إنكا أكثر من هذا [1] ؟!

---

(١) قرأت فى إحدى المجلات (الدينية كما يدعون) فى رجب ١٤٠٣ فتوى يقول صاحبها طلب المدد من الميت الولى بعد مماته مشروع لأنه بعد وفاته قد اتصلت روحه بالله أكثر من أى قبل ؟! .
فهل ترى أيها القارىء شركا أكثر من هذا ؟ .

الفصل السابع

العالم غير المنظور ...

- لسنا وحدنا فى هذا الكون .
- الملائكة ، الجن ، الشياطين .
- عبادة الشيطان المجسد ، ودراكولا ، ومصاص الدماء .
- السحر الأسود ...
- العفاريت
- عمار المنازل

العالم غير المنظور

لسنا فى هذا الكون " الرهيب وحدنا "

تنقسم المخلوقات (العاقلة) إلى ثلاثة أقسام ...

(١) ملائكة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(٢) بشر ، أبناء آدم عليه السلام ، ليس فيهم ابنا لقرد أو حيوان أو أى شىء آخر ﴿ ياأيها الناس خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١) .

(٣) الجن ، وتنقسم إلى أقسام عدة ، سنتناولها فى موضوعنا ، وأخطرها فى الأضلال الشياطين ، وفى إضرار الناس " العفاريت " ...

الملائكة :

مخلوقات روحانية (لا يعلم كنهها إلا بارؤها) ، ويمكنها الانتقال بين السموات والأرض فى أقل من لمح البصر ، وقد أشاد القرآن الكريم بمهمة الملائكة فى آيات كثيرة وعلى سبيل المثال ﴿ والنازعات غرقا ، والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا ﴾ .

يقول المفسرون (إن المقصود بهذه الأيات الكريمة الملائكة) ، وبقدرتها الظهور إذا أرادت رؤيتنا والتحدث إلينا ، ونسمع صوتها ، وقد ظهرت الملائكة على صورة (الإنسان) وأحيانا على صورتها الأصلية كما جاء فى خبر جبريل عليه السلام (ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى) أما المرة الأولى فكانت فى الأرض ، وتحدثوا إلى إبراهيم عليه السلام وهم فى صورة آدميين ولم يعرف إنهم ملائكة إلا بعد أن قالوا له إنا رسل ربك وعرفوه بأنفسهم وتحدثوا مع جميع الأنبياء وتحدثوا مع مريم بنت عمران ، وهى من غير الأنبياء .

والملائكة تملأ السموات والأرض وما بينهما ، أو بالأحرى بلغة العلم الحديث ، المجموعات الشمسية والمجرات والسدم ، كلها أطتْ وحق لها أن تئط فما من موضع قدم ، إلاَّ وفيه ملك ساجد وراكع كما جاء فى الحديث الشريف .

---

(١) راجع كتابى ، سر الوجود والحفريات .

إنهم جند الله ورسله الذين يرسلهم لتعليم البشر ، وإحصاء أعمالهم ليكونوا شهداء عليهم يوم القيامة ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ والملائكة معصومون من الخطأ ﴿ ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ، ولا أعتقد كما يقول بعض الرواة إنهم يجوز عليهم الذنوب وأن هاروت وماروت ملكان أذنبا فى الأرض ، فتلك فرية يهودية ، فاليهود بلغت بهم الجرأة أن يصفوا الله سبحانه وتعالى بصفات (جل سبحانه عنها) فلا مانع لديهم من وصف الأنبياء والملائكة أيضا بصفات لا تليق بهم .

وتختلف درجات الملائكة فى أشكالهم وقوتهم باختلاف وظائفهم وبطبيعة خلقهم ووسطهم الذى يعيشون فيها ، يعلمون ما لا نعلم نحن (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ، قالوا الحق) ، ففى الحديث الشريف معناه ، إذا أراد الله امرا فى السماء سبحت الملائكة خضعانا له ، وسأل بعضهم بعضا ماذا قال ربكم ... إلخ .

ومن الملائكة من حجمه وشكله وهيئته وقوته كبيرة لدرجة لا يتصورها العقل ، قوى هائلة خارجة عن نطاق العقل البشرى وتصوره ، فمثلا إسرافيل عليه السلام عندما ينفخ فى الصور نفخة واحدة (لا نعلم كنهها) تحدث تخلخلا فى بلايين السدم والمجرات بكواكبها ونجومها وشموسها ، ويدك العالم دكا (١) .

وعندما نعلم أن يوم القيامة يحمل عرش المولى ثمانية ملائكة (٢) ، وأن حجم هذا العرش يربو على حجم الكون المرئى وغير المرئى وغير المكتشف التى تحسب المسافات فيه بالثانية أى إذا كان سرعة صاروخ ١٩٨ ألف ميل فى الثانية ، فإنه لكى ينتقل الصاروخ من كوكب فى مجرة إلى كوكب آخر فى مجرة ثانية لابد له من آلاف البلاليين من السنين الضوئية فما بالك بالانتقال بين السدم ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء ﴾ .

وأشهر الملائكة ، جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل وعزرائيل ، ولكل من هؤلاء الرءساء ملائكة مساعدون ، ومهمة جبريل عليه السلام الوحى إلى الرسل والنزول

---

(١) راجع كتابى : هكذا عرفت ربى .
(٢) أو ثمانية أصناف من الملائكة ذلك من علم الغيب .

بالرسالات على الأنبياء علاوة على وظائف أخرى وله أسماء أخرى منها (روح القدس) والروح الأمين ، والناموس الأكبر ، ومهمة ميكائيل ، السيطرة على العناصر الطبيعية بما فى ذلك المواد على الأرض أو باطنها والموجود فى البحار ، ومهمة اسرافيل انتظار أمر الله لإنهاء هذا العالم . أما عزرائيل فقبض الأرواح .

ولكل منا سواء أكان ذكرا أو أنثى خلاف الأربعة ، ملائكة القائمين عليه ، ليل نهار ، مائة وستون ملكا كما جاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ .

أما الإنسان (البشر) فما هو إلا " الروح " والنفس ، والجسم ، والنفس هى التى تجعل الإنسان يحس ويتكلم ويبصر ويسمع ، ويقوم بكافة الأعمال والمناشط الجسمية والعقلية ورغباته وشهواته ، (وقد أتينا على ذلك سابقا بالتفصيل) .

فإذا فارقت الروح والنفس الجسد ، أصبح الأخير جسما هامدا لا حراك فيه وتحللت عناصره الترابية إلي أصلها قال تعالى : ﴿ وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء وما أنت بسمع من فى القبور ، إن أنت إلاّ نذير ﴾ ، وفى سورة النمل (إنك لا تسمع الموتى) .

والروح توهب للجنين بعد أربعة اشهر من تكوينه فى بطن أمه ، وعند ولادته فورا تدب فيه الحركة ، ولكنه لا يفهم شيئا ولا يعى حتى الأربعين يوما قال تعالى فى سورة النحل ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

وقد ورد فى القرآن الكثير من الآيات حول النفس منها على سبيل المثال ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ وفى سورة يوسف تقول امرأة العزيز ، ويقول الله سبحانه وتعالى على لسانها (وما أبرىء نفس إن النفس لأمارة بالسوء) وقول الله تعالى : ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ .

وورد كثير فى أشعار العرب عن النفس ، وقد يكتنى بها أحيانا عن الروح ، وقد تكنى الروح عن النفس (باعتبار السببية فى اللغة أو الجوار) وقد يكنى عنهما بالقلب كما جاء فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم (باعتبار المحلية أو السببية) ...

والنفس عندما تتطور فى الجسد تأخذ شكله وهيئته سواء أكان طفلا أو شابا أو شيخا وتحتفظ (بالهيئة الأخيرة) عندما تغادرها الروح ، إلى عالم الخلود .

ويلاحظ ، أن النفس قد تتأثر بالجسم من حيث علله ، وقد تحتفظ بشبابها دائما ويلاحظ ذلك دائما فى الذين يمرحون رغم سن الشيخوخة ويقال عنهم (إنما الشباب شباب القلب) وقد يحتفظ العالم بذهنه الوقاد حتى آخر حياته ، وقد لا يحتفظ ...

والنفس لا تنام فالنوم خاص بمادة الجسد ، فهى من يوم أن تخلق تظل حارسة لهذا البدن (١) . والنوم نوعان .

(١) النوم الاتصالى ، وهو الذى تبقى فيه النفس مع الجسد أثناء النوم ، ونجد النائم فى هذه الحالة فيحرك يديه ورجليه وينقلب على الفراش يسرة ويمنة ، وهو فى الغالب لا يدرى ويصحو بسهولة ، بل أقل حركة تجعله يهب من نومه ، وهذه النفس المتيقظة قد تجعله يحلم أحلاما من أحاسيس النفس فيه ، فإن قرب منه ثعبان أو عفريت مثلا توحى إليه النفس بذلك ، أو توحى إليه بخطر مهول يتهدد ، فيقوم فزعا ، أو تسمع النفس أغنية فيرى النائم المغنى نفسه يزوره فى بيته ومعه عوده يغنى له خاصة وربما ناقشه وتكلم معه ، هذا كله من أفعال النفس ، وقد جربت كثيرا من ذلك فى نومى (٢)) .

(٢) النوم الانفصالى ، وفيه تنفصل النفس عن الجسم ، كما يحدث أحيانا فيما نسميه (النوم العميق تماما فكما أنه لا يرى ولا يسمع ولا يحس من حوله فإن النفس هنا لا تحلم أحلاما قد تكون من واقع ما تحسه قريبا ، فإذا ناديته لا يجيب، وإذا أردت صحوه ، ناديته مرارا وربت على كتفيه ، وهززته حتي يفيق ، واحذر فى هذه الحالة أن تزعجه فى نومه بأن تدفعه دفعا أو تصبح على صيحات شديدة أو تضربه (كما يحدث من بعض الجهلاء) فلربما حدث ما يسمى انفصال الشخصية وفى هذا الصنف من النوم ، تسبح النفس فى ذكرياتها الماضية وأمانيها ومعضلات (الشعور) فتذهب إلى حلها مساعدة للشعور ، وتتصل بما فيها من

---

(١) فى النوم الخفيف ، تلقط الأذن ما يجرى حولها ، فتفسره النفس فى حلم ، بأسلوب رومانتيكى كثيرا ما كنت أترك الراديو ، بجانب أذنى مشتغلا ، وكثيرا ما كنت أرى « الرواية » التى يرسلها الراديو ، مشاهدة ، أشاهد أبطالها فى الرؤيا كأننى فى سينما ..

(٢) يلاحظ أن « الوعى ينام » .

قوة الاقتدار على قراءة ما خفى ، من كتاب الكون ، فتأتى لنا (أفكار) نظل فى حيرة من تفسيرها ، قد تأتى بها صريحة أو مقنعة ، وتعرف بالرؤيا الصادقة ، فإن كانت مبشرة بأمر جليل فيه سرور لنا ، نقول (إنها رؤيا صالحة) وإن كانت تنذر بمصير مجهول فيه ضرر بنا (نقول رؤيا غير صالحة ، وننسبها للشيطان ، كما ننسب الشر إليه دائما ، وفى هذه الحالة يقال إن من الواجب عدم التصريح بها والاستعاذة بالله من شرها ، وأن يتفل الإنسان على يساره ثلاث مرات فيقيه الله شرها ، والحكمة فى عدم الحديث عنها ، إنه ربما تشاءم الرائى منها ، وفى التشاؤم تعطيل العمل ، والجنوح إلى اليأس وفى اليأس هدم للإنسان وحذر الله منه بقوله ﴿ إنه لا ييئس من رحمة الله إلاّ القوم الكافرون ﴾ .

وكما قلت تجد صعوبة كبيرة فى إصحاء هذا النائم (الانفصالى) ولابد من مراعاة ما ذكرته من الرأفة به حين إيحائه وعدم العنف معه ، وإلاّ سينتابه ضرر بليغ .

وقد شبه الله سبحانه وتعالى النوم بالموت ، قال سبحانه ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ والمراد والله أعلم ، أن الإنسان فى نومه لا يحس ولا يشعر وتصبح الأجسام هامدة كأجسام الموتى فلا قدرة لها ولا حيلة ، وإنها فى هذه الحالة فى حاجة إلى كلأ الله لها وعنايته ، ويمن الله على عباده فى ذلك بقوله ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ وقوله ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ .

والموت حق على الجميع وهو عبارة عن انفصال الروح والنفس من الجسم وانتقالهما من دار الفناء إلى دار البقاء ، ونسمع أحيانا من تحضرهم السكرات ينادون بعض أقاربهم الذين سبقوهم إلى الدار الآخرة أو يتكلمون معه أحاديث جدية فى أمور كانت بينهم ونقول أنهم يخرفون ، والذى أعلمه من كتاب الله (إن الملائكة هى التى تحضر الموت) ، لقوله (توفته رسلنا) وقوله فى سورة الأنعام : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا

ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ﴾ إن الملائكة فقط ، ملائكة النعيم ، أو ملائكة الجحيم ، هى التى تحضر عند الموت بنص القرآن الكريم أما ما يقول من حضور الموتى من أقارب الميت ، وكلامهم مع الميت قبل أن تطلع روحه ، فهذا هراء لا دليل عليه لا سيما ، ونحن نسمع فى جميع الملل الضالة ، هذه البشارات الحسنة عند الموت ممن سبقوهم من أقاربهم وخلانهم ، وبعد دليل القرآن الكريم يبطل كل دليل ... ربما . أن يكون ما يراه بعض الموتى من أهليهم وأصدقائهم إلى العالم الآخر ، هم (الفاتنات) أى الشياطين التي تفتن العبد حينما يموت ، كأن تقول له ، وهى فى صورة أبيه إن الدين (الفلانى) هو الدين الحق ، وأن ما أنت عليه من (الإسلام) باطل فيسرع إذا كان إيمانه ضعيفا إلى قبول ما يقولون له [1] ، فتسوء الخاتمة والعياذ بالله ، وربما أن يحدث تدافع بين (الملائكة والشياطين فى هذه الحالة فإن كان مؤمنا قوى الإيمان لم ينافق فى إيمانه ولم يظلم ولم يأكل أموال اليتامى ولم يفسد فى الأرض ، زجرت الملائكة الشياطين كما زجر جبريل عليه السلام أحد العفاريت التى كانت تريد حرق الرسول ﷺ وطلب من الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يتعوذ بهذا الدعاء (أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات ، التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يخرج فيها ، ومن شر ماذرأ فى الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلاّ طارقا يطرق بخير يا رحمن) [2] ... راجع الكلم الطيب لابن القيم ، لصحة هذا الدعاء المفيد .

والنفوس إذا انفصلت عن الأجساد بسبب الموت ترى الملائكة والشياطين حيث أنها اصبحت مخلوقات أثيرية مثلها ويمكن للنفس أن تصعد للسماء وتذهب حيث تريد قال تعالى : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين ﴾ .

---

(١) هذه سوء الخاتمة التى كان يستعيذ منها الرسول بالله دائما (أعوذ بك من سوء الخاتمة) .
(٢) قد تغنى آية الكرسى ، أو التعوذ بالمعوذتين ، وكل القرآن بركة .

الجـــن : مخلوقات أثيرية ، ويقال ، أنها مادية خلقت أجسادها من الغازات وبذلك يمكنها أن تحيا بيننا وأن تخفض من اهتزازتها فيراها الناس فى الأرض وفى البحار، وهى تختلف عن الملائكة والبشر فى الخلق ، ولكنها تتساوى مع البشر كثيرة فهى تأكل وتشرب وتنام وتصحوا وتتناسل وتموت بعكس الملائكة ، ومنهم الصالحون والطالحون والعلماء والسوقة والأشراف تماما مثل بنى الإنسان ، وإن فى سورة الجن فى القرآن الكريم تفصيلا كثيرا لحياتهم واتصالهم بالإنس وإيمانهم بالله ورسوله وما إلى ذلك ، وينكر وجود الجن بعض علماء النفس وعلماء الأرواح قاطبة ، حيث أن الآخرين ينسبون للأرواح الآدمية سواء منها من كان فى عالم الدنيا أو فى العالم الآخر المشاغبات المعروفة ، وهذا تكذيب لصريح القرآن .

وكثير من الجن خالطوا البشر وعاشروهم فى كل زمان ومكان ، وكثيرا ما قاموا لإخوانهم الإنس بخدمات جليلة ، كقصة الجن مع النبى سليمان عليه السلام تراها فى قوله تعالى : ﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ وفى تسخير الشياطين له بأمر الله ، والجن منهم المسلمون والمسيحيون واليهود والبوذيون وغيرهم ، فهم عادة يتأقلمون مع سكان الأرض من الإنس ﴾ .

وفى أوربا كانت بعض طوائفهم تؤاخى نفرا من الأغنياء فيقيمون لهم الأسوار حول ممتلكاتهم ويحفرون القنوات ويمهدون الطرق ، ويقال ، إن جسر (سان كلود) فى فرنسا من أعمالهم كذا قنطرة (شوكير) فى سويسرا ، ويوجد فى انجلترا واسكتلنده أسوار سميكة حول بعض الخرائب والقصور القديمة المتهدمة يزعم الناس إنها من بناء الجن أنفسهم ، وللآن يطلقون عليها (أسوار الجن) .

وحياة الجن غازية ، ومأكلهم ومشربهم غازى وكذا مساكنهم وملابسهم ، ويمكن لهم نقل الأشياء الثقيلة من مكان إلى مكان مهما بعدت مسافته وثقل حمله ، ومنهم من يعشق الآدميين رجالا ونساء (١) ، ومنهم من نما وكبر على الأذى والضرر وحب الانتقام ، ولهم أسماؤهم وعائلاتهم ونزعاتهم وشهواتهم كالإنسان تماما .

(١) مثل هذا يقال لمن يرى الجن إنه له (رئى من الجن) ويمكن علاجه .

أما الشياطين : فهم أرواح غير منظورة ولا يمكن الاستدلال عليها بالحواس ، وهى ترانا من حيث لا نراها قال الله تعالى محذرا من الشيطان الأكبر إبليس وفئتــه : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ .

والشيطان من سليقته الأذى والكبرياء وإلحاق الضرر بالإنسان بدون سبب أو معرفة سوى دوافع الحقد والمقت لأنه يعتبر الإنسان عدوه المبين ، قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ فهو ماكر محتال سياسى ماهر (له مع الإنسان جولات للضلال من حيث لايدرى الإنسان جولات للضلال من حيث لا يدرى الإنسان إنه على ضلال) ، ومن الكتب التى قرأتها فى ذلك " تلبيس إبليس لابن القيم " .

وله مع النفس (الغريزية صداقة تامين على وجه الكمال) وكما قلت سابقا إن (لمة) الشيطان فى هذه النفس ولمة الملك فى النفس العليا وكثيرا ما تقوم هذه النفس الغريزية مع الشيطان بخداع النفس العليا بالمبررات المعقولة فتخدعها باسم الفن على إذاعة الفواحش ، والقبلات المتبادلة علنا فى الأفلام السينيمائية وعلى المسارح وفى التليفزيونات ، وتخدعها باسم التصوف على إقامة الأصنام والأنصاب على عظام الموتى فى المسجد وزخرفتها بأردية الديباج والحرير ونقاشها بالذهب والفضة والدر والخشب الساجية النادرة ، وإضاءتها ليلا بالأنوار العالية المزدهية المثيرة فى النفس الإعجاب ، فيعجب الزائر ويقول هذا نور الولى يبعث من قبره ويريحون الروائح الذكية فيقول أيضا إنها رائحة الولى فى قبره ، فيرنو إلى الشرك الصريح وهذا معروف ومشاهد ، وكثير من العلماء يسكتون عليه خوفا من بطش الولى بهم " كما يعتقدون " .

يقول بعض الفلاسفة إن كلمة الشيطان مأخوذة من لفظين De neil ومعناه فى لغتهم (أعمل شرا) .

وعقول الشياطين بعيدة جدا عن الوعى الصحيح فهم محرومون منه إنما مواضع حيلهم وخبثهم يستمد من قوة غير طبيعية فى الشر .

وقد احتك الإنسان بالشياطين قديما ، أقصد رؤيته ومعايشته ، وأهمها علاقة الوسوسة كما فى الحديث الشريف (إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم أو ما فى معناه ، وفيه أيضا فضيقوا مجاريه بالجوع) .

أما الاحتكاك الذاتى ، كأن يراه ويشاركه فقد بدأ هذا الاحتكاك منذ وجد الإنسان على الأرض ولم يتغير ويضعف هذا الاحتكاك سواء أكان منظورا أو غير منظور ، استمد الإنسان من الشيطان كثيرا من الأضرار التى حسبها فائدة له ، فمن قبل استمع آدم عليه الصلاة والسلام لفتوى أبى الشياطين (إبليس لعنه الله) وأكل من الشجرة ظانا بفتواه خيرا ، واليوم لازال الشيطان (غير المنظور) يلقى الفتاوى الوثنية فى أرباب الفكر والحجى ، وبعض المتفيهقة من العبّاد فيضلهم ضلالا شديدا ، ويحسبون أنهم هم المهتدون قال تعالى على لسان الشيطان يوم القيامة ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ﴾ .

لذا تشدد السلف الصالح باتباع السنة المحمدية ، وعدم الالتجاء إلى الرأى إلاّ إذا لم يوجد الدليل الكافى أو وجد الدليل ولكن كان فى رواته المجروح ، فذهبوا إلى العقل (والرأى) على أن يكون من صلب التشريع ، أى لا يجافى أصول التشريع الإسلامى ولا يخرج عن الهدف الإسلامى نوع من الاجتهاد .

وإن تقدم الحضارة والإنسانية كما يدعون ، أوحى الشيطان إليهم بنفحات الشر إلى عباقرة العلوم والاختراعات باختراع الآلات الجهنمية لإهلاك أكثر عدد ممكن من البشر فى أقل وقت ، وحلت بدل الأخوة الإنسانية (فالجميع ولد آدم) كراهية البعض باسماء شيطانية جديدة ، العنصرية ، الرأسمالية ، الشيوعية ، الدكتاتورية ، الديموقراطية ، إلخ من هذه الألقاب الإقتصادية ، والسياسية ، والإجتماعية ، والتى كان من شأنها تفرقت الخليقة إلى أعداء يضرب بعضهم رقاب بعض ، ولعل القارىء يدرك من هذا أن المدنية الجديدة قامت على وحى الشيطان ، وأن عباقرة المدنية ما هم إلاّ أبالسة لحما ودما .

وللشيطان مداخل للنفوس قد نجهلها نحن حتى أننا لا نشك مطلقا أنهم اندسوا بين البشر وعرفوا الكثير من نواياهم ورغباتهم وجشعهم وحب كل فرق منهم لاغتصاب حقوق الآخرين للانفراد بخيرات البلاد وحكمها ، وأحقيتهم فى الزعامة ، وغيرهم ما هم إلاّ عبيد لهم وعلى سبيل المثال من أخلاق اليهود (الصهاينة) تفضيل دولتهم عن العرب والقرآن يقول على لسانهم ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ والمقصود بالأميين ، العرب ، أى لا سبيل علينا ولا لوم علينا إن أكلنا أموال العرب بالباطل ، وعلى ذلك ، فلن يكون هناك وطن لفلسطين « العرب » .

عبادة الشيطان المجسد :

ومن دهاء الشياطين الذين لا يحبون الخير للبشرية الوحى إلى شياطين الأنس بالتنافس الشديد بين الغرب والشرق فشياطين أمريكا وشياطين روسيا فى سباق مدمر للتسلح .

وباقى العالم مع القوتين أمريكا وروسيا أو ما يدور فى فلكيهما ، ويقلدهما فى كل شىء من الألف إلى الياء ، وقل أن تجد دولة عربية إسلامية تفرنجت واتخذت غير هاتين القوتين (الشيطانيتين) منهجا إلاّ المخلصين وقليل ماهم ...

ولم تقف الحالة عند هذا بل زادت إلى عبادة الشيطان نفسه والاعتراف بفضله ، حتى كنا نسمع فى الحروب الهتلرية الأخيرة من يقول (لابد من الانتصار فى الحرب ولو حالفنا الشيطان) ازدهرت صلة الشيطان بالإنسان خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر فتكونت الجمعيات وتأسست الأندية المختلفة ، للاعتراف علنا بفضل الشيطان على الإنسان ذلك فى أمريكا وأوربا ، ويوجد فى الشرق ما يسمونهم عبدة الشيطان [١] وآخرون لا يلعنونه ، وضمت هذه الأندية كثيرا من كبار المفكرين والفلاسفة والعلماء والأثرياء من أمريكا وانجلترا وفرنسا وألمانيا .

---

(١) يقول محمد ثابت صاحب كتاب رحلتى فى أسيا ، إنهم يوجدون شمال العراق حول منابع الفرات ودجلة ..

وتعود الدعوة إلى عبادة (الشيطان علنا وإعلانها شعارا دينيا) .

إلى أمريكا فأول معبد تأسس فيها أسسته جمعية أسمت نفسها (Satan-iat) أى (المتشيطنون) وغرض هذه الجمعية عبادة الشيطان نفسه عدو الله وعدو جميع الأخلاق والشرائع معترضين على البشرية ، أليس هو الذى يبيح للنفس الغريزية كل شىء ، أليس العالم منافسا إلى الهوى الغريزية ؟! والجميع ينشد العاجلة ، وفى هذا النادى ومثله يتعلم من يشاء ضروب السحر ، وجميعا يطلبون اللذة غير المشروعة وتأسست هيئة أخرى بمدينة شارلستون ، بالولايات المتحدة الأمريكية برياسة المدعو (دريانوليمى) وانضم إليه مجموعة على شاكلته وكانوا يقومون بطقوس شيطانية كلها عبث ومجون وفسق وفجور بشع ، ومن أمريكا اشترت هذه البدعة إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها ، وتزعم هذه العبادة فى إنجلترا المدعو (السيركرولى) خريج كامبردج ، وقد أطلق عليه لشدة مجونه وفسقه الوحش فقد جاوز فى الفجور كل تصور ، وقد بشر هذا الإبليس بدانته فى أنحاء العالم بعد أن نشرها فى إنجلترا ، وبنى معابد فى عدة دول أوربية ساعده كثير من كبار السراة ، حتى جنوب إفريقية وكان أعوانه من الأغنياء لا يبخلون على هذه المؤسسات بما تطلب ، وظل هكذا حتى احتطف الله روحه إلى جهنم وبئس المصير فى ديسمبر ١٩٤٧ .

وفى بلجيكا قام بممارسة (عبادة الشيطان) قس يدعى (دوركبر) وعاش يبشر بعبادته ويجد الأذان الصاغية لها ، والمنتمين بشغف إليها .

ومن مذكرات المدعوة (ديانا فوجان) تلك الأمريكية ، آنسة كتبت تقول إنها سعيدة لأنها عبدت الشيطان وهى فى سن الطفولة ، وتدرجت فى المناصب الشيطانية حتى أصبحت رئيسة دير (لوسيفر) كما أسمته هى ، وهذا الاسم اسم الشيطان كما نسميه (اسم الدلع) ومما ذكرته هذه الراهبة الماجنة إنها خطبت لأحد الشياطين واسمه اسمودوس وتقول إنه نبيل من نبلاء دولة الأبالسة وتشرح بالأساليب الرومانتيكية طريق المقابلة والمعاشرة معه ، وتبادلها معه أواصر الحب والغرام .

ويصف العالم الشيطانى المدعو " باتييه " « Battile » رحلته إلى سنغافورة وحضوره حفل تعميد احدى الفتيات وما دار فى هذه الحفلة من رذيلة وخبث ودعارة،

ويصف حفلة أخرى فى بومباى أقيمت الطقوس الشيطانية ونحرت ذبيحة آدمية ، قربانا للشيطان ويذكر كيف ظهر الشيطان بذاته متجسدا فى هذه الحفلة وألقى عليهم مواعظه الإبليسية [1] .

وبلغت القبحة بل التبذل الدنىء بجماعة الشياطين أن يتخذوا لأنفسهم علامات ، أو أسماء ظاهرها الرحمة ، لتصبح لجمعياتهم صفة قانونية ، كالماسونية ونواديها المنتشرة تحت ألقاب أخرى ، بل من هؤلاء الفجار من اتخذ القابا دينية يهوى إليها بعض الباحثين عن الدين ، كبعض الفرق الصوفية [2] ، وقد ضبطت فرق منها فى مصر تمارس الجنس وتبيع المخدرات .

ومن أشهر النوادى فى ذلك فى فرنسا نادى " كاذاريس " « Ka3areg » أى نادى الأطهار " لفظ على غير مسمى ونادى " فاندوى " « Vanois » وغيرهما أما الحال فى إنجلترا فقد كانت النوادى صريحة أكثر من غيرها فلم يؤلف نادى ويدعى نادى الأطهار أو الأتقياء ، بل أقيمت النوادى وسموها الحقيقى أى اعترفوا بأنها نوادى فاجرة ، فقد أنشأ ، الأبرل " ريتشارد باتسون " نادى (جهنم) كان صريحا بالاعتراف بعاقبة ناديه وضم نادى جهنم مجموعة كبيرة من رجال المال والأعمال والعلماء ، وهناك أندية أخرى أسسها أساتذة وطلبة جامعتى كامبردج واكسفورد ، ومن أشهر هذه المؤسسات دير الرهبان الذى أسسه السير فرنسيس راشوود وكان من الأثرياء واتخذ من أحدى الأديرة القديمة من ضمن ممتلكاته دير (مادنهام) مقرا لمعبده ، وأعاد بناءه كما يريد الهوى الشيطانى وكما تقرره اللوائح الإبليسية ، وجميع أعضاء هذا النادى وعضواته الرشيقات من ذوى المكانة الاجتماعية والسياسية والمالية فى إنجلترا ، ومن الغريب أن الذى كان يدخل هذا الدير (جنة الشيطان) لا يخرج منه بتاتا ففيه متع الجنس أنى شاء ، شذوذا متطرفا ، رجالا ونساء ، وخمرا كما يشتهى ، ومأكولات فيها ما لذ وطاب فكيف تتوق نفس إلى الخروج وقد وجدت من كرامات الشيطان ما تشتهى ؟ .. وللشيطان

---

(١) نفس طريقة تحضير الأرواح ، والروح كما يقولون تعظهم وما هى إلا شيطان .

(٢) ذكرت الجرائد خلال عام ١٩٨٢ ذلك ، وليس ذلك بغريب فإن الشعرانى فى طبقاته ، نقد وصف أولياء الصوفية بالجنس ، وأنهم يرتكبون الفواحش لأن ذلك رآه (فى اللوح المحفوظ) وان الصوفى ينفذ المكتوب عليه !؟ .

كرامات لعبدته وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيضله شيطانا فهو له قرين ﴾ ، (حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) وفى هذا الدير خمور معتقة كانت تستورد من جميع أنحاء أوربا لذة لعبدة الشيطان ، ونساء عاريات تثير الرغبة فى أشد الناس بلادة فى الجنس يجلسن فى أوضاع داعرة ويقلن نحن هنا هل من مزيد ، وكتب الدير لم تكن الأ كتبا جنسية والتراتيل الدينية تحولت إلى مزامير شيطانية ، وكان يقوم بتأليف هذه التراتيل شاب منهم شاعر مخبول يدعى (توماس بورتر) ، هذا الدير الذى كان يضم أكبر العائلات ، تسبب فى قيام ضجة كبرى من ذوى الضمائر الحية حول هذا النادى الشيطانى وما ترتكب فيه من الموبقات وما يحدث فيه من فجور علنى فاضح ، وشذوذ رجالى داعر ، حتى تداخلت السلطات وأمرت بأغلاقه .

وما زال بعض السائحين يزورون معالم هذا الدير وينقلون أخباره من الأهالى الذين عاصروا أحداثه أو سمعوها من آبائهم وأجدادهم عن ماضيه المشين ...

ولوقتنا الحالى ، لازالت هذه النوادى موجودة إنما اتخذت ألفاظا جذابه يقبلها القانون وتقبلها التقاليد ، ولكنها فى حقيقتها لم تذهب بعيدا عن مبادئها الأولى الصريحة فى عبادة الشيطان ، عقيدة وشرائع ، وتضم هذه النوادى الكثيرين من ذوى المكانة واليسر ، ويقوم الجميع بالمنهج القديم فى اسم مهذب ، فما (الكباريهات) وأفلام الجنس فى السينما ، ونوادى العرى ، ونوادى الرقص ، وإن قيل إنها فن جميل ، إلأ امتداد لعبادة الشيطان (من ناحية قانونية) وإن كان القائمون على هذا « الفن » فالإسلام برىء من ذلك ، حتى كثرالتخنث بين الشباب، وتقليد المرأة فى لبس العقود الذهبية فى الصدرو العارية ، حتى رأيت بعض هؤلاء يدخلون المساجد ليعلنوا للناس أنهم (مؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولو ناقشت أحدا منهم (لامك الناس وقالوا لك ألا يكفيك أنه يقول لا إله إلا الله ؟!) .

وكلمة التوحيد إن لم تثمر ثمارها ، فهى كلمة نفاق ، والله سبحانه وتعالى يأمرنا بمحاربة المنافقين كمحاربة الكافرين قال تعالى : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار

والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ سورة التحريم آية « ٩ » [1]
ومن هذه النوادى أيضا نوادى العراة التى انتشرت فى أمريكا وأوربا ردحا طويلا من الزمن فى ابتداء القرن العشرين ، وإن كانت قد خفت بعض الشىء ولا زالت أثار هذه النوادى فى كباريهات الرقص بل فى الحفلات التى يقيمها الناس فى منازلهم بأى حجة من الحجج وأصبح العري (فى النساء) مشروعا ...

الأرواح الشريرة ، أقصد بكلمة (أرواح) هنا أنها ليست أرواحا متعلقة بأجسادها فى الحياة ، أو بعيدة عن أجسادها بعد الموت ، إنما القصد هنا من الأرواح ، هى صنف من أصناف (العالم غير المنظور) مهمته إيذاء الناس ، وما تحريك (السلة) التى فاجأتنا من سحرة الهند وبلاد التيت ، زمنها فى مصر أحد الصحفيين المرموقين ، وهو يعلم جيدا (أن من سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) قد انتشرت هذه الظاهرة (التجربة كما يسمونها) وقال القائمون عليها إن تحريك السلة هذا من عالم أرواح الموتى ، ولم يعلموا أننا فى غنى عن هذه الخرافة الجديدة التى نسبت إلى الأرواح ظلما ، ولدينا تحريك المنديل (الأثر) عندما يمسكه (العراف) لعيرف الطالع ، والفرق بين الأول والثانى ، أن الأول ينسب الحركة لأرواح الموتى التى حضرت ، أما الثانى فيعترف بأن الحركة من الجن ، وكلاهما ضال ، ولكن ضلال محضرى الأرواح ، أشد نكاية فى الضلال ، فهو لا يعترف بوجود الجن ، ويعترف بأن الروح تغدو وتصبح علينا ، (وتروح وتيجى) من العالم الآخر ، تكذيبا لما أوردناه من النصوص القرآنية التى تجافى هذا ، قال تعالى : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ ذلك فى شأن الموتى .

إن الذى يحرك السلة روح خبيثة من هذه الأرواح الشريرة يقصد إضلال الناس ، ولا مانع لديها أن تتقمص شخصية (سعد زغلول) أو شوقى ، أو نابليون بونابرت ، إذا ما استدعت روح احد من هؤلاء ، وأن تقول الشعر بالطريقة التى يقولها شوقى ، ولا تنسى يا أخى المسلم ، كيف أفسد (الشيطان الأكبر حياة آدم أب البشر فى الجنة وجعله يعصى الله ، أتعرف من هو آدم ، لقد خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه من العلوم ومن أسمائها مالا تعلمه الملائكة ،

---

(١) ولعل سكوت بعض الحكومات على هذا ، هو الذى خلق التطرف الدينى ، لأن المعروف ان المسلمين أصحاب رسالة لن يسكتوا عنها .

ولكنه وقع تحت حيلة الشيطان ، وما يريد الله من ذلك سبحانه وتعالى إلا ليعلمنا الالتجاء إليه دائما من شروره ، فهو أقوى منا فى الشر ، ولن يوقف شره إلا بالاستعاذة بالله منه ، واعترف آدم بالتقصير ، فوجه وجهه إلى الله سبحانه وتعالى تائبا قائلا : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » إنه تدريب عملى لآدم وذريته إذا مسهم طائف من الشيطان تبصروا ، ليرجعوا إلى ربهم لا إلى نفوسهم وعلمهم وهواهم فهو أشد مكرا ، وأكثر جمعا .

وهناك من الأرواح الخبيثة من تتراءى للناس فى شكل شبح ليلا أو نهارا تمثل صورة ميت ، (مات حتف أنفه) كغريق أو منتحر أو قتيل أو حريق ، وتخيف الناس عند ظهورها ، ويقول بعض الناس إنها روح القتيل أتت تطلب الثأر من قاتلها ، أو روح المحروق أتت تعلن عن همومها ، هذا من فعل الأرواح الشريـرة ، وكثيرا ما تعاكس الناس وتضايقهم وع... مشاغبة هذه الأرواح الاستعاذة بالله منها ، وقراءة المعوذتين دائما ، وآية الكرسى والأدعية التى سبق أن نوهت عنها ، من كتاب الكلم الطيب « لابن القيم » وبجانب هذا يجب ملاحظة تقوية الشخصية الذاتية ، فقد وجد أن هذه الأرواح الخبيثة كالجراثيم ، تبحث عن مواطن (المرض والضعف فى الإنسان) فتفرغ وتزداد نشاطا ، لقد كان من وصف الرسول ﷺ لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه (أن الشياطين تفر منه) ومن أخباره فى الجاهلية أنه كان كثيرا ما يقتل الغيلان (نوع من الشياطين) تتغول فى الصحراء فكان لا يخاف منها .

إن ما أقصده ، أن يكون الإنسان قويا جسما ونفسا وأعصابا حتى يفر الغول الشيطانى من الإنسان ، ومع ذلك فهو أيضا فى حاجة إلى الالتجاء إلى الله سبحانه تعالى بجانب الأخذ بالأساليب المتقدمة .

السحر الأسود :

وهناك ما يعرف بالسحر الأسود ، بل وينتشر فى كثير من أنحاء العلم المتمدين وما رواية (دراكولا) وعودة (دراكولا) وما إلى ذلك من الأسماء التى أعلنت

عنها السينمات العديدة ، وقصص الأشباح التى كان تأتى بها السينما فى الماضى تقص أثر حادث مجهول فيه العلم ، كل ذلك دليل على أنه لازال الاتصال بين (الجن والإنس) وليس فى ذلك غرابة ، أليس الإنس يتصلون بجميع أنواع الوحوش المفترسة ؟! بل وجعلوا منها إلفا لهم ، كمربى السيرك ، لذلك يقول صاحب كتاب السر المباح فى تحضير الأرواح ص ٧١ مانصه ، وهناك نوع من الأرواح الشريرة المتخلفة من اجتماع الإنس بالجن أو العكس ، وهى مخلوقات موجودة فعلا من قديم الزمن وتعرف باسم (الإنيكوبيا Eneccubia) ويقولون أنها تخلفت من اجتماع ذكر الشيطان بأنثى الانس ، و (سيكوبيا Schobia) اجتماع الإنسان بأنثى الجن ، ولا يعجب القارىء بهذا فقد ذكرت الجرائد بضعة حوادث من هذا القبيل وقد اشتهر أحد أبناء الصعيد (توفى) بزواجه من احدى بنات الجن وكان يستخدمها فى إحضار أشياء كثيرة من أمكنة بعيدة ، حتى يقال إنها نقلت إليه معدات بناء منزل من حديد وطوب وغيره من بولاق إلى القرية التى يعيش فيها بالصعيد ، وقد جمع كتاب حاوى الأرواح مثل هذه القصص [١] .

هذا خبر من الأخبار ، قد يحمله الإنسان على محمل الخرافة ، ولكنى ، وعلم النفس يقف لمثل هذه الأخبار بالمرصاد ، ويكذبها قطعا ، يشاركه الطب فى ذلك ، ولكن ما المانع أن يحدث ذلك ، وفى الكون أعاجيب لا زال العلم يحتار فى فهم كنهها ؟! .

وقد كانت مؤاخاة الجن والانس معروفة قديما ، وكان المشركون والكافرون يصفون الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه بذلك ، ويلقبونهم (بالجنون) حتى إن منهم (أى من القدماء) من يجعل هذه الحالة فى باب الطب ، فيعالج المريض المؤاخى حتى يتركه أخوه من الجن ، وعلى ما يظهر أن هذه المؤاخاة لا تتم بالرغبة ، بل

---

(١) من الصعب تصديق ذلك علميا ، وفى الغالب أن يحدث تزاوج بين أجناس مختلفة يظن البعض أنها من الجن والمعروف أن الجن له اهتزاز معين غير اهتزاز الإنس فكيف يحدث هذا الزواج ، وقد كان فى ماضى الزمان نظرا لعدم اختلاط الأمم ببعضها كما هو حادث اليوم ، يظن البعض أن مايرونه عندما يشاهدون أناساً ذوى خلقة شاذة أنهم من الجن ، فيقال إن هناك تزاوجا بينهما إذا حصل اتصال جنسى ، هذا رأيى ولا أفرضه على أحد .

هناك شروط يطلبها الجن المؤاخى من الإنس أهمها أن يكون ضعيف الشخصية من ذوى الحساسية الشديدة وأن يكون ذا إكتوبلازم مخصوص .

ويقول (الذين يمارسون السحر) إنه يمكن فى الاجتماع بين الإنس والجن إنجاب ، وتكون صورة المولود فى منتهى الفظاعة والبشاعة ، رؤوس كبيرة بوجه صغير مشوه أو أجسام هزيلة ، ويمضى صاحب كتاب تحضير الأرواح والسر المباح فى عرض هذه الآراء ، ولكننا لن نهمل عقولنا ، ونسأل ، هل إذا انقلب الجن إلى صورة إنس أكان له مثله من حيوية أعضاء الذكورة أو حيوية أعضاء الأنوثة ، حتى يمكن إنجاب طفل مشكل إنه من الجن ، وأبوه من الانس أو العكس ، لابد أن هذه الأقاويل من تخاريف السحرة ، ولكننا نستعرض بعض يقصصهم عن ذلك .

قصة الراهبة (ما جدولين دى لاكروز) راهبة دير سانت أيزيل باسبانيا ، فبعد دخولها الدير وهى فى سن السابعة عشر استمرت فيه ٢٩ عاما كانت تنتابها فيها حالات من الصرع والإغماء وتتحدث بأشياء غريبة وعندما قربت من الموت تحدثت وقالت إننى كنت عشيقة الشيطان بورتوربو ، وأيضا حادثة القس " أوربان جرانديه وراهبات دير (لودن) بفرنسا " ...

لعل ما رآه بعض الناس فى آخرين من قوة خارقة العادة ، جعلهم ينسبون ذلك إلى أنهم من نسل الجن ، أو لعل ما يرون من جمال زائد فى بعض النساء أو الشهوة العارمة ينسبون ذلك أيضا إليهم ، وكثيرا ما نسمع فى أحاديثنا العاديـة (فلانا ابن جنية) وفلان ابن شيطان وفلانة جنية ، وهذا ما أميل إليه وما يقوله العلم، على سبيل التشبيه ، وإن كان التشبيه هنا موتور ، فالمعروف أن الإنسان أقوى علما من الجن بل وكيدا قال تعالى ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ وقال على لسان عزيز مصر واصفا النساء ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ ووصف مكر الرجل بإزالة الجبل ، قال تعالى : ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ وتحدثنا الآثار الصادقة والأحاديث النبوية أن بعض الإنس صارع بعض الجن بعد أن تراءى له فى صورة الإنس فغلبه ، لأن النفس الإنسانية قاطبة مجهزة بعالم من الملائكة لحفظها من العالم غير المنظور المحيط بنا ، ولا يضار الإنس الأ إذا شاغب الجن أو تدخل فى أعمالهم وأحوالهم قال تعالى : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ .

ويتهم الإنجليز أعداءهم الألمان والمجر المنتمين إلى قبائل (الهون) بأنهم من سلالة الشياطين لما امتازوا به في حروبهم معهم الأخيرة من شدة البأس والصبر والأسوة والفظاعة التي ارتكبوها في بلجيكا وفرنسا أثناء غزوها خاصة مع الأطفال والسيدات حتى الحبالى منهن .

كما كان بعض الناس يعتقد في أصحاب القوى الخارقة أنه من نسل الشياطين فقد كان يوجد في ألمانيا المدعو (مارلين) كان يفرك العملة الفضية بين أصابعه فتنداح ، ولكنا نقول إن الغرض التشبيه بالجن ، لا الميلاد الحقيقي.

وحدث أثناء غزو طائرات الألمان لجزائر المحيط الهادى التي كانت خاضعة لأمريكا مثل جزائر (فيدجي) وكان بها السحرة الذين يفعلون الأعاجيب ، ويقال عنهم إنه بلغ من قوة سحرهم أنهم إذا أرادوا مطرا ، مطرت السماء .. الخ ولما أوا الطائرات الألمانية تصب عليهم قنابلهم صبا ، لم ينفع السحرة سحرهم ، فكان قوة الصاروخ والقنابل أقوي من قوى الجن (السحرية) [١] .

ويقول بعض السحرة ، إن هناك (أرواحا شريرة) يسمونها أرواح الميدولين Medoline وتأتي في حالتين .

(١) أن يخطف الشيطان أحد الأطفال من الإنس سواء أكان ذكرا أو أنثى ويرضعه رضاع الجن ، ويقدمه قربانا عند إقامة الشعائر الإبليسية ، أو يرجعه ثانية إلى أهله وتجد مثل هذه الأقاويل منتشرة في الكتب القديمة مثل قصة سيف بن ذى يزن الطويلة من أربعة أجزاء [٢] ، وقصص ألف ليلة وليلة ، ولم تأت هذه القصص من فراغ ، فتواتر الأخبار عن اتصال الجن بالأنس جعل مؤلفي هذه القصص يبالغون في هذه الصلة ، حتى من يقرأ هذه الكتب يهوى تعلم السحر والاستخدام ، حتى يسخر الجن في الانتقال من جهة إلى أخرى وفي إحضار الطعام جاهزا مجهزا ، ترى ذلك جليا عندما تعيد القراءة مرارا وتكرارا أعاجيب لاحد لها من الحكايات التي طالما أسكرتنا ونحن أطفال صغار ، واستهوت عقولنا مثل قصة (الحسن البصرى وخاتم سليمان) وما إلى ذلك .

---

(١) لقد زعموا أن سيف بن ذى يزن أرضعته جنية ، وأخته من الجن كانت تسمى « عاقصة » أصبحت خادمة له ، مع زوجها عيروض ، العفريت الذى اختاره سيف بنت ذى يزن لها ...

(٢) صدق الله العظيم ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ .

(٢) أما أن تشاغبه روح القرين وتمرضه ، والقرين لاجنى موجود لدى كل مولود، ويسأل يوم القيامة عن إغوائه للإنس وجاء القرآن الكريم يقص هذا بقوله تعالى : ﴿ وقال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال مبين ، قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد ، ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام بعيد ﴾ سورة « ق » .

وفى سورة الأنعام يقول الله تعالى الآية ١٢٨ واصفا يوم الحشر : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلاّ ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ﴾ .

وفى قوله تعالى : ﴿ استمتع بعضنا ببعض ﴾ قد يكون الاستمتاع المقصود به، الاستمتاع بغواية الشيطان وإضلاله وتزيينه المعاصى فيستمتع بها الانسان . وقد يكون الاستمتاع من النوع الاتصال الذاتى [١] ، والله أعلم بمراده .

ومن مفتريات (اليهود وأضرابهم من الوثنيين) نشر خرافة تسىء إلى آدم عليه السلام أبى البشر قاولوا مدعين أن هذا الكلم من آراء الفلاسفة والعلماء المهتمين بدراسة أصل الإنسان والديانات ، إن أول اجتماع لآدم كان من حواء فلما حدث الانفصال بعد خروجهما من الجنة اتخذ زوجة (شيطانة) تدعى (ليليت) ، أنجب منها عددا غير قليل من شرار البشر ، ومن المؤكد أنه لا يوجد مؤمن أو عاقل يصدق هذه الفرية الكاذبة ، والتطاول على أبى البشر آدم عليه السلام بهذه البهتة السخيفة .

العفـاريـت :

هم أشقياء الجن ، كما يوجد فى الإنس أضرابهم لاهمة إلا الأفساد ، إنها أرواح شريرة تتفاوت فى الحجم والشكل والقوة ، وتشكل كيف شاءت لمعاكسة الناس ومشاغبتهم والمزاح معهم ، فهى لا تضر احدا [٢] ، ويقولون إن هناك عفريتا يقال

---

(١) كثير من الذين يرون هذا العالم غير المنظور بعد ان يخفف من اهتزازاته فيظهر فى الشكل الذى يريده يقولون انهم لا يضرون احدا ، ولا يؤذونه بل يداعبونه مداعبة سخيفة .

(٢) بالرغم من القائلين بالاتصالات الذاتى ، بالمعاشرة ، ففيه أقوال كثيرة والرأى إنه لا يتصل الجن بالإنس إلا إذا كان فى الأخير مرض اختلال وظيفى عصبى مثلا كالجراثيم لا تضع بذورها إلا فى الجراحات الموجودة فى الجلد .

له (عفريت الأيالة) يقتصر نشاطه نهارا وقت الظهيرة عند اشتداد الحر ، ولا يظهر إلا لأطفال أو ضعاف النفوس ، ويخاف من الأقوياء ، ونجد أهالى المناطق الحارة كالهند وغيرها يحرمون على الحوامل الخروج من ديارهن أو الانتقال فى الأوقات الشديدة الحر ، ورآه كثير من الناس ، فالبعض فرّ منه ، وهو فرّ من البعض خوفا على نفسه ، وهناك (عفريت الليل) وهو فى الحقيقة أنثى تظهر ليلا فى الجهات المقفرة والأزقة والحارات المظلمة المهجورة على هيئة سيدة جميله جذابة لا يفرقها عن الآدميين إلاّ بريق عينيها المنحدرتين إلى أعلى وكذلك حاجباها الرقيقان ويقولون (والقول للسحرة) إن هذا العفريت الذى يظهر فى سورة المرأة الجميلة تقصر مغازلتها على الشبان ، وتتصدى طرق سيرهم بعد منتصف الليل ، وتعترض طريق أحدهم وما تزال به حتى تغريه بمصاحبتها ، وإن دخل مزاجها تواعده كل ليلة وتغنيه بمالها وبهداياها ، وإن خانها فالويل له منها .

فى عام ١٩٨٠ حضر إلىّ بعض المهندسين فى المصانع العسكرية ، واستشارنى فى موضوع هام ، قال إنه يعيش وحيدا لا زوجة له ولا يسكن معه أحد فى شقته ، وأن امرأة جميلة تظهر له فى منتصف الليل (من الجن) وتطلب أن يتزوجها ، ويطلب منى رأيى فى هذا الموضوع ، فقلت لعلك تحلم ، وهناك من الأحلام ما هو قريب من الحقيقة عند النعاس الخفيف ولكنه أكد لى أنه يراها شخصيا ، وتطلب منه أن يتزوجها بشروط معينة ، ولما احترت مع هذا المهندس فى أسئلتى الكثيرة خفت أن يكون ملتاث العقل ، فقدمت له جهاز الراديو الخاص بى وطلبت منه أن يمسح لمباته ، وملفاته من الداخل ففك الجهاز وأنا جالس بجانبه أرقبه فأنا أفهم اللاسلكى وتصليح أجهزته ، فقام بالعملية التى طلبتها منه بخير قيام ، مما جعلنى لم أشك فى قواه العقلية ، وطلبت منه أن أحضر إلى منزله وأجلس معه فى حجرة نومه ، حتى نرى تلك الزائرة الأثيرية معا ، وأن يترك لى فرصة الحديث معها ، فسكت قليلا وقال لا أفعل ذلك قبل استئذانها فخرج ، وانتظرته يعود إلىّ فلم يعد، لعلها لم تأذن له أو لعل هناك شيئا آخر لا أدرى ما هو .

وتسمعت لكثير من حديث هؤلاء الذين كما يقولون (يرون نساء من الجن) .

كان رجل فى قريتنا فى الريف من الصالحين يقرأ القرآن الكريم ويعلمه للأطفال ، كثيرا ما سمعته يقص علىّ وعلى جمهور من متعلمى القرية ، معاكسة العفاريت له

بالرغم أنه كان ينام بجانب زوجته فى الحر الشديد فوق السطح ، فتأتى إليه فى صور أطفال أو نساء ، وتعود على هذا المنظر ، وأصبح شيئا عاديا ، حتى إنه يقول لهؤلاء الذين يعاكسونه (يا ولد أنام) لأصلى الفجر حاضرا ، وصادف أن عاكسه طفل (عفريت) وأخذه من يده وهو نائم إلى طرف السطح كأنه يريد أن يوقعه ، فصرخت زوجته ، عندما سمعته يقول « ابعد يا ولد ابعد يا ولد » فلم يفعل شيئا إنه يمزح معه فقط .

إننا نسمع كثيرا من هذه الحكايات ، بلغت التواتر وأعرف كثيرا يتحدثون بأمثالها ، ولا يمكن أن تكون هذه (من الهلوسة السمعية البصرية) فإنها تقتضى مرضا معينا يجعل القوى العصبية كليلة ضعيفة الاهتزاز فى الخلايا العصبية إنهم أشخاص كاملوا العقل صحيحوا العصب ولكن ربما أن تكون لهم قدرات خاصة .

عمار المنازل :

من المعروف أن الجو مملوء بمخلوقات لا حصر لها ، عرفنا بعضها كالناموس والهاموش إذ يقومان بمضايقة الإنسان ليلا ، ثم بعض الهوام الموجودة فى الفراش ، ثم الدواب التى تدب على الأرض ، من الحشرات المؤذية كل هذه المخلوقات تخاف من الإنسان ولكنها تضره فى بعض الأوقات ، وهذا ما يشجعنى على القول مع القائلين بوجود (عمار) فى المساكن مخلوقات أثيرية يعج بها الكون .

وهناك براهين كثيرة على وجودها ، ويقال أنها تعمل على المشاغبة أحيانا فقد تختفى بعض الأشياء وقت حاجتنا لها ، فنجد أنفسنا فى البحث عنها فلا نجدها ، ثم عندما يحلولها تضعها أمام أعيننا فى مكان قريب منا فنتعجب ، وقد تتشكل فى هيئة قطط (ذلك قول السحرة) .

وما وجود (الأشباح فى المنازل إلا دليل على وجود العفاريت ، ويقال بأن المنزل مسكون ، ويوجد الكثير منها فى انحاء العالم ، وألفت الكتب الكثيرة فى هذا الموضوع ، ويقوم ببحث هذه المنازل والتحقق من سكنها بالأشباح أو الأطياف جماعة من المهتمين بهذه الأمور كجمعية (الأبحاث النفسية) وتندب بعض أعضائها للإقامة فى هذه المنازل وملاحظتها وكتابة تقرير عنها وتنشر الجرائد ذلك .. وقد جاءت المذكرات التى كتبت فى هذا الموضوع ، إنها ظواهر غير طبيعية ، أما

الذين يقولون بأنها أرواح موتى مشاغبين فهم علماء الروح (كما يسمون أنفسهم) بينما هؤلاء الباحثون يقولون إنها ظواهر محيرة ، ينسبونها للعفاريت إن كانوا من الذين يعتقدون بوجود العفاريت ، فإن لم يكونوا من هذه الفئة نسبوها إلى خطرفة إيحائية فى نفوس الذين شاهدوها ، حتى ولو رأوها أنفسهم يصفون ذواتهم بذلك .

وجرت العادة باعتقاد الناس بأن المنزل المسكون قد يكون ذلك لقتل أحد فيه (قتل غيلة) فيظهر عفريته ، ليمثل حادثة القتل نفسها مرارا ، وتشمل الظواهر رؤية الشبح ، أو الطيف وهو يسير بخطوات وئيدة ثقيلة فى ردهة المنزل ، أو طرق الأبواب أو المنافذ أو رفع الغطاء عن النائمين ، وهذه الأشباح غير مؤذية قطعا ولكنها مزعجة للنفوس ، وفى كثير من الأحيان يمكن طردها بقراءة القرآن الكريم ، أو بالأدعية المستمرة ، أو بوسائل أخرى وكثيرا ما نرى بعض الناس يخشون السكنى فى منازل حدث فيها قتل غيلة خوفا من (عفاريت المنزل) ، وهناك نوع من الأرواح الخبيثة ، كثيرا ما رأينا مؤلفى السينما يعالجون موضوعه ، مثل مصاص الدماء أو الرجل الذئب ، أو المرأة النمرة وقد انقرض عرض هذه الروايات لما تحدثه من رعب الأطفال وللكبار أيضا .

ويطول بنا الحديث إذا عددنا أنواع العفاريت وغيرها فى هذا العالم غير المنظور وذكر نشاطها غير المحدود ، وقد تم الاعتقاد فيها منذ آلاف السنين ، وقد كان البابليون يطلقون عليهم أسماء مختلفة حسب وظائفهم وتأثيرهم على البشر ، وفى سير الناس قديما ، وفى تواريخهم وكتبهم وتواليفهم ذكر هذه المخلوقات غير المنظورة التى لا تتعمد مطلقا إيذاء الناس ، سوى المداعبة السخيفة ، وهذه المخلوقات تتألم وتفرح ولكن ليس لها من الحواس المعهودة لنا ، إن لها إحساسا خاصا بها ، ولها حرية الاختيار كالإنسان تماما لكن المتمردة منها " كالشياطين والعفاريت " تميل إلى الشر بحكم تكوينها ، كما نجد ذلك فى البشر أيضا ، وأخيرا ، فإن الظواهر التى يحتج بها محضروا الأرواح هى نفسها من فعل العفاريت ، وهذا ما أردت الإفاضة فيه ، حتى لا نعتقد أن أرواح الموتى تترك النعيم أو الجحيم لتأتى لمشاغبتنا أو لزيارتنا جهرا أو فى الأحلام ، بعد أن تأخذ أجازة من خزنة الجحيم أو خزنة النعيم ؟! قال تعالى فى شأن الروح : ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ، ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ وأنى أطمئن القارىء ، إن هذه الأشباح

تهرب من البيت الذى تكثر فيه الملائكة لأنها تخاف منها [1] ، وكلاهما عالم غير منظور وفى المثل العام يقال (إذ حضرت الملائكة ذهبت الشياطين) وكما قلت سابقا إنها قد تهرب من الآدميين أنفسهم وتخاف منهم كما جاء فى الحديث الشريف عن عمر رضى الله عنه وقول الرسول عنه إن الشيطان يهرب منه ، وأيضا ، فإنها تهاب ذوى الشخصيات القوية ، الرجل الجرىء المقدام القوى الذى لا يخاف من ذوى الأعصاب السليمة ، وقد رأيت ، وهم يختارون المسافرين إلى القمر وكيف يضعونهم تحت اختبارات شاقة عصبية وعقلية وجسمية قبل السماح لهم بهذا السفر إلى أماكن مجهولة ، ولم نسمع أن أحدا منهم رأى شبحا أو طيفا أو عفريتا ، وذلك دليل على أن الأشباح لا يراها إلاّ بعض ذوى الأعصاب المتأرجحة ، وأنها لا تظهر إلاّ لهم حتى لو تشكلت فى أشكال أخرى ، فتكون حذرة من أن تقتل أو تغتال أو تؤذى ، وهى فى صورتها الجديدة . كما يقتل الممثل وهو فى شكل تمثيلى متقمصا شخصية غريبة عن شخصيته ، وقد تحدث السير القديمة عن ظهور إبليس فى مؤتمر الندوة بمكة) حينما اجتمع المشركون للتفكير فى أمر محمد ﷺ وقتله ، ظهر فى شكل رجل من نجد ، ودار معهم فى النقاش وكانت المشورة الكبرى التى أخذوا بها مشورته حينما قال ، نأتى من كل قبيلة من العرب بفتى نهد ، ونجعلهم جميعا يقتلون محمدا بضربة واحدة فيذهب دمه فى القبائل جميعا فيأبى بنوعبد مناف (عشيرة محمد) قتال العرب جميعا ، فيأخذون الدية ويكتفون بها .

وظهر إبليس فى كبكبة من الشياطين فى موقعة بدر ، وانظر إلى القرآن الكريم كيف روى هذه الحادثة ، قال تعالى فى سورة الأنفال عندما تحدث عن موقعة بدر ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون إنى اخاف الله والله شديد العقاب ﴾ الآية ٤٨ .

روى أن الشيطان تمثل للمشركين فى صورة " سراقة بن ملك " من بنى جشعم ومعه فئة وكانت قريش تخاف من بنى جشعم أن يأتوهم من ورائهم فى هذه الحرب

(١) بل وتخاف أيضا من ذوى الشخصيات الجامحة من بنى الإنسان ، فكثيرا ما يقوم اللصوص بتدبير أمورهم فى الأماكن الخربة المخيفة ، ولا يرون شيئا ، والذين يرون هم أصحاب الأمزجة الانفعالية والعواطف ...

ببدر القائمة بينهم وبين المسلمين ، جاءهم إبليس يوم بدر برايته فى شكل قبيلة (بنى جشعم) وقال إنى جار لكم ، وإنكم لا تهزمون مادمتم تدافعون عن دين آبائكم ، ولا غالب لكم اليوم من الناس فأمد الله نبيه بالملائكة فلما اصطف القوم قال أبو جهل اللهم أولانا بالحق فانصره (١) ورفع رسول الله يده إلى السماء وناجى ربه قائلا (اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا) فقال جبريل ، خذ قبضة من التراب فأخذ قبضة من التراب ورمى بها فى وجوههم فما من أحد من المشركين إلاً أصاب عينيه أو منخيره وفمه ، فولوا مدبرين وأقبل جبريل على إبليس فى جنده فلما رآه ، ولى مدبرا مع شيعته فنادى أحد المشركين ، يا سراقة ألم تزعم أنك جار لنا ، قال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون (راجع القرطبى ص٢٦ جزء ٨ .)

إنها الشياطين ، التى تحضر ، وليست أرواحا للموتى ، ومن ذلك ننتهى إلى خرافة تحضير الأرواح لمخالفتها للدين ، وللعقل ، وأنها من وضع الزنادقة (أو اللادينيين) أو القائلين بوحدة الأديان ، وإنها كلها أديان اجتهادية والمجتهد مصيب حتى ولو أخطأ ، وهذا كلام فارغ ، فليس فى العقيدة اجتهاد ، فهى ليست أمرا مستحدثا ، إنها تنويل من رب السموات والأرض ، من بارىء هذا الكون وموجده من العدم ، بها نزل جبريل على الأنبياء جميعا من لدن آدم حتى آخرهم محمد ﷺ فيها يقول الله لعباده ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ فلا فلسفة ولا كهنوت فيما اختص الله سبحانه وتعالى بإيضاحه لنا ولا علوم لدنية ، ولا حقيقة ، وعلم باطن كما يزعمون ...

* * *

(١) لا عجب أن يدعو أبو جهل بهذا الدعاء ، فإن المشركين كانوا يعتقدون أن اتخاذهم "الموتى" كاللات والعزى وغيرهم ، ذلك هو الدين القيم ، وأن التوحيد الخالص خروج عند الدين يقال لصاحبه إنه "قد صبأ" هذا القول ذاته ، هو المشهور حاليا ، إذا حاربنا الاتجاه إلى وثنية الأضرحة والمشاهد يقال علينا إننا خرجنا عن الدين القويم ، دين ابى جهل ؟!! .

الفصــل الثــامـن

الصراع الدائم ، كيف ننتصر فى معركته

- جنود النفس الأمارة بالسوء .
- الأبواب التى يجد فيها الشيطان الثغرة للفتك بالعقل .
- العلاج .

جنود النفس الأمارة بالسوء وقرينها الشيطان :

إن الإنسان كالحصن يجب أن نحرس الحصن من كيد العدو فى الحرب ، يجب ألاَّ نغفل لحظة من الزمن أو أقل منها عن وجود عدو يريد اقتحام هذا الحصن وينتهز فرصة غفلة ليعمل محاولة فى فتح ثغرة (يمكن من هذه الثغرة) أن يتسلل إلى الداخل ليقهر من فى داخل الحصن ، أو يفتك بهم أو يستسلمون له نهائيا ، تلك جنود النفس الأمارة بالسوء ، لا تفتأ تهد أبواب الحصن (العقل) أو جدرانه لتثقيب ثغرة تدخل منها ، كما ثقبت اليهود (ثغرة) فى حروبهم معنا سنة ١٩٧٣ « ثغرة الدفرسوار » بالرغم من انتصارنا عليهم .

إن حماية (العقل) من شر النفس تتطلب معرفة مداخل النفس ، وحيلها وآلاتها العسكرية التى تهدم بها جدار العقل ، وإن ذلك فرض عين على كل مؤمن ، وألا يغفل دائما عن هذه الحقيقة ، وأن الطائف الشيطانى دائم التطواف ، وأن المؤمن دائما متيقظ كما قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون ﴾ فإذا لم يتذكر وأهمل قوى التذكر واستسلم للوساوس المسلط ، وقدما خطورة على دينه وصحته ، وحلاله بارتكاب الفواحش ، وظلم الناس بحجج تبريرية يراها هو نفسه الحق الصراح، أنه يفهم ما لا يفهم غيره ولذا يضل ضلالا بعيدا ... إننا نريد أن نهدم هذه الصواريخ التى يمسكها الشيطان مع النفس الأمارة بالسوء لغزو هذا (العقل) وصرعه ، كما يصرع القوى الضعيف ويحتل أهله وبلده وخيراته ورزقه ، ولا يجديه تألم الناس من حوله ، وكثيرا ما يكون هذا التألم كاذبا ، كتألم العالم كله من إسرائيل لأجل خاطر عيون العرب ؟ فماذا فعل العالم للعرب ؟! لا شيء .

ومن الأبواب العظيمة التى يجد فيها الشيطان الثغرة المطلوبة للفتك بالعقل : –

(١) الغضب والشهوة : الغضب غول يلتهم العقل يقضى عليه وهناك أخطر من أن يصبح الإنسان بلا عقل !!

ففى حالة الانفعالات القوية يشتد غليان النفس وينتشر إفسادها ، فكما أن العقل قد اغتيل ، فإن جنوده أيضا سيصيبها ما أصابه ، فيصبح الانسان فى يد

النفس الغريزية وشيطانها كلعبة بين يدى طفل فإذا غضب الإنسان ، نفخ الشيطان فى أنفه وسلب منه عقله فلا يدرى ماذا يفعل ، والشيطان يأخذ الإنسان عند الغضب والحدة والشهوة كما يأخذ الأسد النهم فريسته ، يطعم منها ما يشاء ومن أمثلة لشيطان قوله " كيف يغلبنى ابن آدم إذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه وإذا غضب جئت حتى أكون فى رأسه " .

(٢) الحرص والحسد ، فإن الحرص يعمى العقل وفى الأحاديث النبوية (الضعيفة) حبك للشيء يعمى ويصم فإن نور البصيرة ينطمس بالحرص والحسد فلا تعرف مداخل الشيطان ولا نزعات النفس الأمارة بالسوء ، وبالحرص يلتهم الإنسان كل ما ليس له ، ويتعب الإنسان فى حياته ويشقى ، يقول الشاعر :

لا تحرصن فالحرص ليس بزائد ... فى الرزق بل يشقى الحريص ويتعب [(١)]

ويسبب الحرص والحسد ، طرد ابليس من رحمة الله ، ألم يقل لله سبحانه وتعالى ﴿ أنا خير منه ﴾ (يقصد آدم عليه السلام) ، خلقتنى من نار وخلقته من طين .

(٣) التنعيم الزائد والإسراف ، إن التنعيم الزائد وإن كان حلالا كما يقال فإن الشبع يقوى مهمة الشهوة ، والشهوات أسلحة الشيطان ويقال إن فى التنعيم الكثير خصالا ستة غير مقبولة ، أولها ذهاب الخوف من الله ، والثانى تذهب الرحمة من القلب إلى الخلق لأنه يظن أن الناس كلهم فى تنعمه ، والثالث الثقل على العبادة والتهاون بها باسترخاء العضلات لما يحل به من كسل ، والرابع إذا سمع المسرف حكمة وموعظة لا يحس بها ولا يجد فى قلبه رقة ، الخامس إذا تكلم هو ووعظ وقال بالحكمة ، لم يكن لكلامه وقع عند من يسمعه ، والسادس إنه يكون فريسة للأمراض وهذا أمر معروف ومشاهد .

(٤) التزين والتمتع بفضول الدنيا ، إذ تتغلب على القلب الأهواء النفسية ، فيقضى عمره كله فى الشهوات من الأينية الفاخرة ، والمركبات الفارهة ، والتقلب فى أعطاف النعيم ، والسياحة فى الأرض اجتلابا للذة ، فتراه يقضى عمره

---

(١) يقولون الحرص لا يزيد فى الرزق هذا حقيقة فإن الذى يحرص على هم المال وجمعه من حلال وحرام كثيرا ما يذهب هذا " الرزق الزائد " إلى أرباب من الأطباء والمحامين واللصوص والمصائب الكثيرة ، ولو قنع المؤمن بحلاله لكان رزقه له وحده ...

فى ذلك فلا يجد وقتا فراغا لربه وتأخذه الدنيا بلهازمها ، فلا تتركه إلى عقله ، ولا إلى التفكير فى غده فيموت وهو فى سبيل عمارتها دون أن يقدم لآخرته أى شىء ، سره منها أن يقال إنه (المليونير فلان) فأضاف هذا اللقب عليه وعلى أولاده وبناته حب الناس إليهم والإقبال عليهم ، كما يقول الشاعر :

إن الغنى من الـــرجال مكـــرم وتراه يرجى ما لـديه ويـــرغب

ويخشى من الانغمار فى دوامة الدنيا سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى ...

ومثل هؤلاء مرضى بمرض (اللامبالاة) أى الأنانية الفردية ، أو كما يقول علماء النفس « النرجسية » ...

(٥) حب الطمع ، إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزلف للناس فى سبيل الحصول على مآرب قد لا تكون حاجته إليها ملحة .

ومن الطمع فى الدنيا ، نشأ النفاق والرياء والتبليس ، حتى يصير المطموع فيه يعامل كأنه إله ، مدح أحد الشعراء الملك فاروق السابق ، فرفعه إلى مرتبة فوق مرتبة الأنبياء أذكر من قوله فى الأربعينات إبان حكمه ..

وكأن عيسى فى ركابك حاضر يبرى ويشفى أسقما وعليلا [١]

فقد جعل عيسى عليه السلام جنديا فى ركاب الملك السابق يقوم بتطبيب الناس المرضى ، وهكذا نجد من هؤلاء المتوددين إلى أولى الأمر الظلمة ، والمداهنين ، والذين يتركون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من موقعوا فى شهوة الطمع ، الطمع فى الحياة الفانية ، ولديهم ما يكفيهم عن الطمع .

(٦) العجلة وعدم التريث فى الأمر ، من الأحاديث الحسنة عن رسول الله ﷺ (العجلة من الشيطان) وقد وصف الله سبحانه وتعالى الإنسان من حيث فطرته ، أنه عجول فقال تعالى : ﴿ خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ وقال لنبيه

---

(١) ليس ذلك الشاعر فحسب ، بل يمكنك أن تقرأ كفر هؤلاء الشعراء فى طلب الدنيا ، يؤلهون من يشاءون ، ويؤلفون قصائد المدح ، يتغنى بها كبار المطربات والمطربين .

﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ إن الأعمال تحتاج التبصرة ، والتأمل ودراستها من جوانب زواياها ، والعجلة تمنع ذلك ، وعند العجلة يفرح الشيطان .

(٧) التنافس في سبيل المال والنوال ، وسائر الأصناف من العروض وغيرها فإن كل ما يزيد عن حاجة الإنسان مجلبة للانشغال به عن واجبات ضرورية ، فإن النفس من طبيعتها ميالة للاستزادة (ولو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى أن يكون له واديان) .

(٨) التخلق بأخلاق البخلاء ، وخوف الفقر ، قال تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾ وربما أن يكون في البخل سوء ظن بالله تعالى ، والمؤمن يعطيه إيمانه دفعات للإنفاق في سبيل الله قال تعالى ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ هكذا شأن المؤمن دائما يطلب الثواب من ربه سبحانه وتعالى فقط ، إن من المهلكات أن يأخذ الإنسان المال من غير حقه وإنفاقه في غير حقه ومنعه من حقه .

(٩) التعصب المتطرف للمذهب ، وأن يتعصب للأهواء وأن يحقد على الذين لا يرون رأيه ، وينظر إليهم بعين الإزدراء والاستحقار ، فهو ينافح عن صاحب مذهبه مثلا ولكنه لا يعمل مثل عمله ، والطعن في الناس لا سيما الخواص منهم صفة من غرائز الإنسان فيخيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق ، فهو موافق لطبعه فاشتغل بالطعن فيهم ، لا لشيء سوى مخالفتهم لمذهب صاحبه وهو يظن بهذا السباب يخدم الدين ، وهو بذلك فرح جزل ، وهو ساع في إرضاء الشيطان ، فترى واحدا يتعصب لأبي بكر رضي الله عنه في موضوع خلافة الرسول ﷺ وآخر يتعصب لعلي بن ابي طالب في أحقيته ، وكلاهما كانا صديقين حبيبين ، لم يقف أحدهما ضد الآخر إنما هي آراء يعرضانها لا يريدون من الدنيا شروى نقير ، روى ، أن الخليفة أبا بكر الصديق ، لما انتخب للخلافة رؤى غداتها وهو يحمل على عاتقيه ملابس وأقمشة وذراعا للقياس ، قيل له إلى أين ؟! قال إلى السوق لرزقي ورزق عيالي ، فقالوا لا لتقوم بشئون المسلمين ، وفرضوا له جعلا معينا من بيت المال ليتفرغ للدولة .

وهكذا على رضى الله عنه لم يمت إلاّ بعد ان كانت حياته كلها زهادة وطعامه خشنا وكذا ملبسه ومفرشه ، فهل ترى ذلك فى المتعصبين له ؟! ...

وهكذا فى أئمة الفقه فقد كان الجميع يستغفر بعضهم لبعض ، ويعترف بأن ما رآه هو مبلغ اجتهاده وبحوثه ، ولعل ما رآه هو الخطأ المبين ويكثر الاستغفار وما دفعه إلى رأيه إلا خوفه من أن يكون فى الرأى الآخر تشديد على المسلمين وإعسـار لهم ...

وياليت من يتعصب لشيخ يسير سيره وكان من سيرة أبى بكر رضى الله عنه انه يضع حصاة فى فمه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه ، وأن عليا رضى الله عنه لبس فى خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم ، وقطع رأس الكمين إلى الرسغ ، وترى (المتعصب) لابسا الحرير والديباج متحليا بخواتم الذهب فى أصابعه ، وكذا كان أبو حنيفة رضى الله عنه وهو التاجر الناجح ينفق على تلاميذه من كسب يده ، ويأكل مأكلهم ، ويلبس ملبسهم ، وما رؤى أحد أكثر تواضعا منه فى زمنه ، وكان خوفه من الله شديد ، وكذا مالك والشافعى وابن حنبل (الذى أوذى فى بدعة خلق القرآن من الإيذاء ما جاوز المعقول ، فتحمل صابرا ، وقالت له أمه يوما ما معناه ، والحزن آخذ بها مفطورة القلب عليه من شدة ما عذب ؟ ما قيمة هذا العلم الذى وصلك إلى هذا العذاب ؟ ، قال ، يا أماه هل تذكرين عذاب يوم القيامة ؟ فهان كل عذاب دونه ؟ وغلوم الدين أحب إلى هؤلاء الأئمة من كل شىء فى الحياة ومن أنفسهم وهؤلاء المقتحمون فى المعاصى الذين يحبون بألسنتهم هؤلاء الأئمة ولا يعملون بأنفسهم ولا بقلوبهم مثلما كانوا يعملون ، ومنهم من يأخذ حبهم وسيلة إلى الله بدون عمل ، هؤلاء يمرقون من الشرع ويقطعونه ، بمقاريض الشهوات فيكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند هؤلاء الأئمة تعصبوا لهم ولم يعملوا عملهم ، كهؤلاء الذين يحزنون علي مقتل الحسين رضى الله عنه ، وتكاد تتقطع قلوبهم من البكاء ومنهم من يبخع نفسه حزنا علي مصرعه فى كربلاء ، قول لهم ، هل عملتم مثلما يعمل الحسين ، هل جاهدتم فى سبيل الحق مثله ؟ هل زهدتم فى حطام الدنيا كما زهد ؟! إن فعلكم هذا لا يرضاه الشرع بل يعتبركم خارجين عليه ، لا سيما وقد بلغ بكم الأمر أن اتخذتم من قبره مشهدا تطوفون حوله ، وتنادونه وتستغيثون به ،

وتبلغ الدرجة بكم أن تنسبوا أن روح الله [1] حلت به كما نسب النصارى إلى المسيح عليه السلام ، وكما قال بذلك كثير من الأمم الأسيوية فهل يغنى عنكم ذلك من الله شيئا ؟! أم هو الشيطان الذى زين لكم عبادة غير الله سبحانه وتعالى .

وكان من وصايا الرسول وهو فى سكرات الموت (اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد) وقوله (يا عائشة لا ترفعى قبرى فيتخذه الناس صنما) ويقول (لا تجعلوا قبرى عيدا) هكذا يا سيدى يا رسول الله حاربت الوثنية ، فانظر إنك تراها الآن ماثلة فى كل بلاد العالم الإسلامية ، تحت رعاية الحكومات (الصوفية) .

وصدق قول الله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ ، وقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

ولقد أجرى الشيطان وأعوان الشيطان وأحباؤه من الفرق الضالة إن من يحب هؤلاء الناس يحشر معهم والمحسوب لا يخيب ، ومن سار على الدرب الذى ساروا عليه لن يخيب سيره ، ولم يعلموا أو علموا وتجاهلوا قول الرسول ﷺ (يا فاطمة أعملى فإنى لن أغنى عنك من الله شيئا) (حديث متفق عليه) والقرآن الكريم يوضح ذلك صراحة بقول الله تعالى ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ وفى الحديث الشريف (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) أقول هذا مذكرا هؤلاء الذين يدعون أو يأتون بنسب متصل بالرسول ﷺ ليعتقد فيهم الناس البركة ، وأنهم ناجون لأنهم من سلالة الرسول ، السلالة الطاهرة ، ونحن نعلم أن اليهود من سلالة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، وأن النسب لا يغنى من الحق شيئا ، فسيكون أول الداخلين إلى جهنم والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وابن نوح عليه السلام وأبو لهب عم سيد الأنبياء والمرسلين فكل من ادعى محبة إمام من الأئمة وهو لم يسر سيرته أو اتخذه وسيلة وواسطة إلى الله وأنزله منزلة الألوهية فقد أشرك بالله وسيكون خصمه يوم القيامة ، ففى هذا اليوم ، يوم الهول الأكبر سيتبرأ هؤلاء الصالحون من هؤلاء المشركين كما جاء فى قوله تعالى فى سورة يونس « ٣٨ » ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا

---

(١) تصدهم ذات الله حلت به (وحدة الوجود) أما عقيدة روح الله ، أى التى خلقها الله بأس بذلك ، فافهم يا أخى المسلم الفرق بين التعبيرين ...

مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ، فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم أن كنا عن عبادتكم لغافلين ، هنا لك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ المؤمنون الصادقون هم الذين يحشرون يوم القيامة ووجوهم من النور ، وهناك الكاذبون أو المنافقون أو الذين ادعوا العلوم اللدنية ، وقالوا نحن (الأقطاب والانجاب والأولياء وأننا سنتصرف يوم القيامة كيف نشاء ، واتخذهم الناس ألهة يستغيثون بهم عند الشدائد وتكتب بعض المجلات التى تزعم أنها إسلامية إنهم أخذوا من الله العلى الأعلى مهمة التصرف فى الكون ، ويخطب بعض الخطباء على المقابر فى المساجد الإسلامية ، قائلين إنهم يقولون للشىء كن فيكون ، ولأجل أن تقتنع بكلامى ، وتعرف أننى لم أكتب ما قدمته من خيالى ، فها هى ذى النصوص فى المراجع القديمة ، التى ذكرت هؤلاء ، ولا زالت الكتب الحديثة تذكرها ، أرجع إلى الطبقات للشعرانى جـ١ ص٦٦ وتلبيس إبليس لابن الجوزى ص١٥٦ واقرأ ما قاله (ولىّ الصوفية) أبو يزيد البسطامى ، ومثله كثير على نهجه ، من (أقطابهم) البدوى والرفاعى ، والجيلانى والجبلى ، والشاذلى كلهم ملة صوفية واحدة ، انظر ما يقول البسطامى ، (وددت أن قد قامت القيامة ، حتى أنصب خيمتى على جهنم ، فسأله مريد لماذا يا أبا يزيد ؟! أجاب (أنى أعلم أن جهنم إذا رأتنى تخمد ، وأكون رحمة للخلق .. هذا قليل من كثير تعج به كتب هؤلاء القوم ، ويدعى المدافعون عنهم والسالكون طريقهم ، إنهم يقولون هذا الكلام وهم فى حالة سكر من حبهم لله (١) ، سكر كسكر مجنون ليلى فى ليلى ، وبئس هذا الدفاع دفاعا ، فمعنى ذلك وقريب منه على القياس أن النصارى قالوا إن المسيح بن الله ، فهل هؤلاء كانوا أيضا فى سكر من حب الله بئس القوم هؤلاء الذين أفسدوا العقائد الصحيحة من العلماء الذين يحضرون موالدهم (التى كلها فجور ووثنية ، وكلا الأمرين مرتبط بالآخر ، ويقول هؤلاء العلماء كما جاء فى طبقات المناوى إن الحاضرين إلى هذه الموالد مغفور لهم ببركة هذا الولى ويفتنون بأن النذر لله ،

(١) كلمة دخيلة لتبرير الكفر ، فالرسل صلوات الله عليهم كانوا من أشد الناس حب لله ، ولم نسمع كلمة السكر والعشق هذه الألفاظ لتبرر الكفر والشكر ...

والثواب للولى [1] ؟ وأنشر لك أيضا ما جاء فى مجلة صوفية تصدر فى مصر ، ومرجعها فى نشر هذا الإفك (طبقات الشعرانى) ، قال الشعرانى فى تفسير قوله تعالى ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ عن الدسوقى « ساكن دسوق » واعلم يا ولدى أن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، متصلون بالله نوما كان ولى متصل بالله إلا وهو يناجى ربه كما كان موسى يناجى ربه ، وقد كنت أنا وأولياء الله أشباحا فى الأزل بين يدى قديم الأزل ، وبين يدى رسول الله ﷺ وأن الله خلقنى من نور رسول الله ﷺ وأمرنى أن أخلع على جميع الأولياء بيدى فخلعت عليهم بيدى وقال لى رسول الله وأخى عبد القادر (الجيلانى) وابن الرفاعى خلف عبد القادر ثم التفت إلىّ الله وقال لى إبراهيم سر إلى مالك ، وقل له يغلق النيران وسر إلى رضوان وقل له يفتح الجنان ففعل مالك ما أمره وفعل رضوان ما أمر به ...

أهذا دين الإسلام أيها الأفاكون ؟! ألاّ يقوم فى البلاد الإسلامية من يعيد الدين الحق إلى مكانه مثل ما كان أيام الرسول ؟! إن الذين يذيعون هذه الأساطير مع الأسف يسمونهم العلماء الأعلام ، أصحاب الفضيلة والكل يعتقد بما يقول هؤلاء، ولم نجد ثورة عارمة على هذه الوثنية الصريحة الجديدة [2] .

ما أظن أن حياة هؤلاء المنصرفة كانت خيرا مما قيل عنهم ، وما ألف عنهم وما نوى مؤلفا واحدا منهم ومن تلاميذهم ، ومريديهم قديما وحديثا إلاّ وفيه هذه الخرافات والشركيات الصريحة ، وبجانبها تهديد يخيف الناس ، والناس دائما يخافون فقد الأهل والولد الحبيب وخراب البيوت على صاحب كتاب (الولاية) للحكيم الترمذى إلى عدم الاعتراض يسير على هؤلاء لأنهم يعطبون من يعترض عليهم ويخربون بيته وييتمون عياله ، وينزعون منه إيمانه راجع كتاب

(١) ذلك تبرير لوضع الآلاف فى صناديق النذور ، ووقف المبانى ، وإشراكهم فى الحرث والنسل والأنعام والذين يعطون ذلك يقولون إنهم يجيبونهم عند الاستعانة بهم ...

(٢) رحم الله العلماء ، ابن تيمية ، وابن الجوزية ، والبقاعى ، (فى القرن الثالث عشر وما بعده) ومجموعة عبد الوهاب (فى القرن السابع عشر وما بعده) والأجلاء الحاليون من إنصار السنة ، أخراب الشيخ حامد الفقى وعبد الرحمن الوكيل ، والشيخ هراس ، والشيخ درويش ، الذين جأروا والكلمة الحق أو غير ذلك ، أما الساكتون من العلماء وبيننا وبينهم الله ، والمؤولين ، والسائرين فى طريق التبرير ، والتلبيس ، والنفاق ...

(البدوى) للمؤرخ الدكتور « سعيد عاشور » ودولة الدراويش للدكتور الطويل وكتاب هذه هى الصوفية لعبد الرحمن الوكيل ، ومصرع التصوف له ، وكتاب الأخلاق المدبولية تحقيق الشيخ عبد الحليم محمود ، ثم اسأل نفسك أهولاء مسلمـون ؟! أصحاب الرسول هم المسلمون حقا ، ولا يغرنك ما يقال من ذوى الفيض والاشراق الروحى والإلهام ، وما إلى ذلك فقد وضحت لك فى كتابى هذا إن هذه القوى موجودة فى عبدة البقر والثعابين والنار .

من ذلك نعلم أن كل من تعصب لرأى إمام من الأئمة الحقيقيين ولم يكن فى خلقه فهو خصمه يوم تزل الأقدام ، ومن هؤلاء المتعصبين أصحاب البدع ، فليس من السهل إقناعهم ويتخذون من تأويل أيات الله وحملها على غير ما كان يحمله السلف الصالح متكأ يتكئون عليه ، فمثلا إقامة الموالد للصالحين من الناس (إن كانوا صالحين) تجد فتوى عالم يقول ، إن فى إقامة الموالد تذكيرا بصلاح هؤلاء الناس وفى الذكرى منفعة العمل والاقتداء بهم ، ثم يأتى هذا المفتى العبقرى بآية قرآنية ويجعلها دليلا لفتواه الغريبة وهى هذه الآية قوله تعالى لموسى عليه السلام (وذكرهم بأيام الله) سورة إبراهيم وأقول لهذا المفتى الضليع ، ألم يعرف السلف الصالح والرسول الكريم ذلك ؟! كما عرفت أنت ، وفهموا من مدلول الآية كما فهمت أنت ، فلماذا لم يقيموا الموالد ؟! هل يعد الرسول ﷺ مقصرا لأنه لم يقم مولدا لأعز نسائه عند السيدة خديجة سلام الله عليها فى جنات النعيم ؟ وهل يعد الصحابة مقصرون فى أنهم لم يقيموا موالد لأعز إنسان عندهم فى الحياة رسول الله ﷺ الذى عندما توفى ذهبوا عقول بعضهم من شدة حبهم له ، إنهم فى رأيك (يا حضرة المفتى العظيم) مقصرون طبعا (١) .

وهكذا يلعب بعض المفتين بألفاظ القرآن الكريم ما شاء له اللعب .

ومما جاء عن الحسن رضى الله عنه قال إبليس سولت لأمة محمد ﷺ المعاصى فقصموا ظهرى بالاستغفار ، فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون منها ألا وهى البدع ، فإن صاحب البدعة يعتقد إنها الدين الحق فهو لا يستغفر منها .

---

(١) جزى الله أنصار السنة المحمدية بالقاهرة فقد انقذوا بمؤلفاتهم ، ومحاضراتهم ، ومناظراتهم من براثن الكفر والشرك التى غرقنا فيها زمنا طويلا ، ولم نر جمعية أخرى تأخذ بيدنا فيها ، بعضها كان يسالم هذه البدع والبعض يسارع إليها ...

ومن عظيم حيل الشيطان أنه يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس فى المذاهب والخصومات قال عبد الله بن مسعود ، جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقيمهم من مجلسهم ويفرقهم فلم يستطع فأتى رفقة أخرى جالسين فى شئون الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون فقام الذين يذكرون الله ليفضوا النزاع بينهم فى أمور دنيوية يجر الحديث فيها إلى ارتكاب المعاصى وذلك مراد الشيطان .

ومن حيل الشيطان أيضا حمل العوام على التفكير فى ذات الله ، يجلسون يفكرون فى ذات الله وصفاته ، وهم ليسوا من ذوى العلم فيجرهم التفكير فى الذات إلى الكفر فى أمور لا تبلغها عقولهم ، وكذا التفكير فى صفاته ، بما لا تدركه عقولهم ، وربما تخيلوا خيالات فاسدة يتجافى الله عنها ويعلو عنها علوا كبيرا ، يصير بها المفكر كافرا أو يصير مبتدعا ، بفرح بذلك ويطمئن نفسا ظانا أنه وصل إلى ما لا يصل إليه الأقدمون من معرفة ربه . وربما عرف نفسه بلقب العارف بالله ، وهو بعيد عن معرفة الله وأنه مضاء البصيرة وقّاد الذهن ذو إشراق عال ، وأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا فى عقله ، وأثبت دينا أكثرهم اتهاما لعقله ، فى هذه الأمور الغيبية ، التى اختص الله سبحانه وتعالى بها ، ووصف المؤمنين بالإيمان بها قال تعالى ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ وفى الحديث المتفق عليه قال رسول الله ﷺ « إن الشيطان يأتى احدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فمن خلق الله تعالـى ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه ، هذا الوسواس يعترى كثيرا من الناس ، بل ويسأل الغلام اليافع أباه أو معلمه هذا السؤال يريد جوابا وترى نفسه مشغولة به ، وخير ما يقال علاجا لهذا الخاطر ، إن لهذا العالم (الحادث) مُحدثا لا نعلم عنه أكثر من ذلك ، فهو الذى خبرنا بذلك ، خلق الخلق ، وعرفهم بنفسه وطلب من الناس جميعا أن يعبدوه وألاّ يتفكروا فى ذاته ولا صفاته ، فليست ذاته وصفاته مثل صفاتنا وذواتنا ، ومن خصوصيات الذات الإلهية إلاّ توضع موضع التجربة (كأنها مسألة حساب يجب حلها) ، فالله

أجل من ذلك وأكبر ويقول ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ فما خلق الإنسان لغير هذا ، وعدم شغل الإنسان بما خلق له ، خروج عن حدوده ، وبعيدا عن وظيفته فى الحياة الدنيا ، وكفرا بلقاء ربه ، الذى سيطلب منه ماذا عمل فى هذه الدنيا ليعيش فى الآخرة عيشة أبدية فالإنسان ، له أول ، وليس له آخر ، فمن الحياة الدنيا إلى القبر ، ومن القبر إلى القيامة ، ومن القيامة إلى جنة أبدا أو نار أبدا ، والجنة تريد العمل الصالح فى هذه الحياة القصيرة فى الدنيا ، فلو اشتغل الإنسان بهذه الأعمال المطلوبة منه لذهب عنه (الخاطر الشيطانى والوسواسى المقلق الذى ينتابه فى قضية الألوهية) إلاّ إذا كان الوسواس مسلطا لأنه ضعيف الأعصاب ، فلابد من العلاج الطبى ، كما سيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى حتى قال بعض العلماء ، إن يزنى المرء ويسرق ويعصى الله ، وهو يعتقد فى الله العقيدة الصحيحة خير من التفكير فى ذات الله بالخواطر التى لا تليق به تعالى (١) ...

قوم يفكرون فى ذات الله بفلسفة عقلية ، فقالوا إن الله ، هو الوجود كله ، وأنه ظهر فى الأشياء وأنه عينها ، وأن الكون فاض عنه كلازمة من لوازم الألوهية وأنه فى كل شىء حتى الكلب والخنزير ، وقال شاعرهم :

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا ... وما الله إلاّ فى صورة إنسان

وقوم آخرون ، قالوا إن أول العدد ثلاثة ، وإن اللغة تجيز ذلك ، فإذا قلنا ، هناك عاشق فلابد من وجود معشوق وعشق ، وهكذا فى كل تفكيرنا فى أى ذات وإذا قلنا بوجود ملتذ ، وعلى هذه النظرية بنوا نظرية التثليث وقالوا إنه يدل على الوحدة المقنمة (٢) بأقانيم لابد لها وهى أقانيم الذات الثلاثة ، حتى هتف شاعرهم يردد فلاسفة قدماء المصريين التى دخلت فى كثير من الأديان :

تثلث محبوبى ، وقد كان واحدا ... وصير الأقنوم بالذات أقنما

كل فى فلك من الضلال يسبحون ، إن صلتنا بالله تعالى صلة الإيمان المطلق

---

(١) مع تقديرى لهذه الفتوى أقول : إن صاحب العقيدة الصحيحة كما أنه لا يسمع بالخواطر السخيفة التى لا تليق بالله ، فإنه يخافه خوفا شديدا فلا يزنى ولا يسرق بل هو وجل حتى من أعماله الصالحة ألا تقبل قال تعالى ﴿ والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة ﴾ أى يفعلون الخير ويخافون ألاّ يقبله الله ؟! .

(٢) أى القائلة بأقانيم فهى واحدة من ناحية الشكل ، ثلاثة من ناحية الموضوع تلك فلسفة شيطانية .

بوجوده وبصفاته كما وثقها لنا ، لا نعطله منها ، ولا نؤول ما ذكره ، ولا نجسمها كما نجسم صفاتنا سبحانه وتعالى (ليس كمثله شيء) وهذه عقيدة الرسل عليهم الصلاة والسلام وهى التى جاء بها القرآن الكريم ، وسارت عليها الفرقة الناجية ، جعلنا الله منها آمين .

إن مكايد الشيطان فيما يتصل بالعقيدة لا تنتهى عددا ، وإن الاختلاف بين جميع الأديان ليس اختلاف أخلاق وآداب وإنما الاختلاف وقع على العقيدة نفسها ، فقد عرف الشيطان حق المعرفة أن الخلود فى النار أو الخلود فى الجنة مبنى على فساد العقيدة أو صلاحها ، فذهب يعمل معاوله فى هدمها أو شرخها أو تشويهها فى العقول فاختلفت العقول فى العقيدة أو شوهتها ، حتى لا يدخل أحد من بنى آدم جنة النعيم ، إنما يدخلون مثله دركات الجحيم يقول الله تعالى فى سورة البقرة الآية ٢١٢ ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات ، بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

ومن الآية الكريمة نلمح أن الاختلاف حدث بعد نزول الكتب السماوية من السماء وتبشير النبيين وإنذارهم وإن هذا الاختلاف ، كان بغيا بين المتخالفين ، كان رأيا كل يفرض رأيه متعاليا على الآخر ،

وأن الاختلاف فى الحق الذى يقبل وجهات النظر ، أو ما يجوز الاختلاف فيه تيسير على الناس [١] بعد هداية من الله لعباده ، وإرشاد منه لهم ، أما الاختلاف المبنى على ترك النص والبغى فهو اختلاف غير مشروع .

وإن ولوج باب الجدل فى هذه المسائل لابد أن يفرق صاحبها إن لم يكن يحسن التعقل والمنطق اللغوى ، والاهتداء بقول الله تعالى ذاته وما قاله الرسول ﷺ ،

---

(١) مثلا قوله تعالى فامسحوا برءوسكم ، وقوله تعالى أو لامستم النساء ، فهناك اختلاف مشروع بين علماء الشافعية والحنفية والمالكية ولم يخرجوا عن مقتضى اللغة والأثر عن الرسول ﷺ (راجع رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية رضوان الله عليهم) .

ويغير ذلك المجادل فإنه يغرق فى مهاوى الضلال ، كمن يسبح فى البحر وهو لا يجيد السباحة ، حتى الحكم بالظن ، أو مجرد الظن إثم مادامت النصوص صريحة .

(١٠) ومن الحيل الشيطانية المهلكة سوء الظن بالمسلمين :

إن سوء الظن مقدمة للغيبة ، فمن أساء الظن اغتاب فيقع فى ذنبين بدلا من ذنب واحد ، وربما جرت الغيبة إلى ذنوب أخرى ، فالذنوب يأخذ أولها بتلاليب الباقى حتى يكرعها الانسان كرعة واحدة ، ولذلك قد يكون الانسان المغتاب ذاته مسئولا عن اغتيابه ، يشارك المغتاب ذنوبه ، بأن موقف التهم وفى الحكم القديمة (اتقوا مواضع التهم) ومن الأحاديث المتفق عليها عن على بن حسين (إن صفية رضى الله عنها أخبرته أن النبى كان فى المسجد ، قالت فأتيته فتحدثت (عنده) فلما أمسيت انصرفت فقام يمشى معى فمر رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهم وقال ، إنها بنت حيى ، فقالا يا رسول الله ما نظن بك إلاّ خيرا فقال إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من الجسد ، وإنى خشيت أن يدخل عليكما ، وهكذا يشفق الرسول ﷺ على دين أصحابه حتى لا يدعوا مجالا للشيطان يلعب بعقولهم ويخرجهم إلى درجة سوء الظن ، حتى لا يتساهل الإنسان فى هذه الناحية ، ويدعى أنه واثق من نفسه ومن أهله ، وأن مثله لا يأتى إلاّ بالخير وربما يعتقد إن الناس كلهم لا يعتقدون إلاّ الخير فيه ، ولكن هل ضمن الناس كلهم أحباءه ؟ ألم يكن له عدو ؟ ، إن لم يكن ظاهرا ، فإن هناك من الناس من يلتهب غيظا منه ، ويريد أن يرى فيه شيئا ولو محتملا للإساءة إليه كما يقول الشاعر :

وعين الـرضا عن كـل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدى المساويا

يجب الاحتزاز عن مواقع الفتن وعن تهمة الأشرار ، وعن التكلم بالكلام المحتمل وفى القرآن الكريم ينبه الله بعباده يقول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ﴾ لما قال اليهود ، إن راعنا من الرعونه فلم يحاول القرآن الكريم أن يناقضهم لغويا ، فأراد سبحانه أن يقطع عليهم السبيل بقول لفظ آخر يؤدى المعنى ، ولا يجعل السامع يحتمل من المعانى غير المراد منه ، فما بال أقوام ، يصرحون بألفاظ كفرية ، ويضحكون على الناس بأنها لدنية وأنها ذات

أسرار ؟! وأن المراد منها ليس ألفاظها ومعانيها الظاهرة ، والغرض من نفاق هؤلاء هو الدفاع عن أنفسهم من العقوبة الدنيوية ، فمثلا عندما قال (إمام من أئمة التصوف) :

كفرت بدين الله والكفر واجب   عليَّ وعنـــد المسلمـــين قبيح

دافع بعض الزنادقة أمثاله بأن هذا مقام الحب ، وأن ألفاظ مقام الحب للمحبين لا يعرفها سواهم ، من ذلك تعرف كيف يضحك هؤلاء الناس من الباطنية والقرامطة وغيرهم على ذقون المسلمين بأنهم يريدون بهذه الألفاظ أسرارا لدنية .

سمعت بعض الفرق الضالة « المدعين حب الله » فى مجالس ذكرهم التى يدعون فيها أنهم يذكرون الله ، يترنمون بحب ليلى ، فيقولون على أنغام السلامية والدف والصاجات ، وهم يتمايلون فى الرقص الصوفى يقول الصيبت [١] المنشد (سلبت ليلى منى العقلا قلت يا ليلى وارحمى القتلى) فقلت ما المراد من ليلى هذه ؟ فقيل لى إنها لا إله إلا الله ...

فهل هذا يجوز ؟ أليس ذلك سخرية من اسم الجلالة ، وتسميته باسم امرأة أليس ذلك كفرا بواحا ؟! إن الألفاظ المحتملة منع الشرع التلفيظ بها إذا كان هناك من فى قلبه مرض يسىء تفسيرها ، فما بالك بالألفاظ الكفرية الصريحة أو الفاظ الاستهزاء والمجون التى تسىء إلى الموصوف به ؟ إن هؤلاء الناس من أخبث النـاس بطونا .

والمؤمن كما أنه سليم الصدر ، سليم اللفظ ، فى كافة أحواله مع الخلق ومع الخالق .

إن مداخل الشيطان والهوى والنفس الغريزية كثيرة ، ولن تقف عند حد معين ، وهى مهلكة آخذة بتلاليب بنى آدم جميعا ، إلاَّ من عصمه الله ، وربما أن يسألنى سائل على هذه الأمراض نفسية أو انحرافات نفسية ؟! .

إن لفظة المرض تقتضى العلاج الطبى (الدوائى الكيمائِى) ولا يمكننا الحكم على المرض إلاَّ بعد تجارب طبية نعرف بها أن هذا مريض حقيقة ، وللمرض درجات قد يكون فى أشده ، أى له مضاعفات .

---

(١) ذو الصوت القوى ، يسمونه ، المنشد ، فى حلقات الرقص الصوفى .

وابتداء المرض عادة ، نقول هذا انحراف ، وإن لم يبلغ الانحراف درجة ٤٠٪ يمكن بالرشاد والتوجيه والتكرار والإيحاء المستمر علاجه ، وإلا اضطررنا بعد ذلك إلى بحث الحالة العصابية وعلاجها ، ونحن حاليا سنحاول علاج الانحراف أى حالة السلب فى الانسان التى لا تتجاوز الـ ٤٠٪ .

العلاج : هل يكفى أن يتذكر الإنسان فيقول أعوذ بالله العظيم ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وفى الصلاة يقول المصلى أكثر من ذلك يقول ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ﴾ ، وبعد الفراغ من الصلاة يمشى فى طريق الضالين والمغضوب عليهم ، وقد يضحك الشيطان على ذقنه ، قائلا له ، إن الصلاة تكفر الذنوب نعم ، الصغيرة نعم ، إنها تكفر الذنوب التى تلم بالإنسان بدون قصد ، أو الذنوب التى يحار الإنسان فيها أهى ذنوب أو غير ذنوب [1] ، أو الذنوب التى تهجم على النفس بتأثير شهوة عارمة ، أو نزوة طارئة تسدل العقل فلا يستفيق إلا بعد الذنب فيبكى على الذنب ما شاء له الندم ، بل قد يود أن يبخع نفسه وقارا لله سبحانه وتعالى كهؤلاء الرعيل الأول من المؤمنين الذين إذا أصابهم بعض خبث الذنوب ، يذهب الواحد منهم إلى الرسول ﷺ نادما حاسرا باكيا ، يقول ، طهرنى يا رسول الله ، يقولها مرارا ويكررها ، كأنها لازمة من لوازمه ، ويعرض عنه الرسول شفقة ورحمة والتماسا للشبهة فى الذنب ، فيعيده مرارا أخرى طهرنى يا رسول الله ، ويلتمس الشبهة من أى طريق فيصر المقر على ما جاء عليه ، هذا هو الفهم الصحيح للصلاة ، إنها المعاهدة التى يعاهد بها العبد الله جل جلاله فى اليوم خمس مرات يقولها فى كل ركعة ، ويكرر ألفاظها ويخرج منها مؤمنا كامل الإيمان أما تلك الصلاة التى يردد فيها المصلى الآيات الكريمة والمعاهدة بين الله والعبد كأنه مسجل عظيم التسجيل ، أو راديو من أحدث (موديل) فلن تفيد شيئا ، ولن تنهى عن باطل أو منكر ، وصدق الله العظيم .

---

(١) الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات ، وأحرى للمؤمن أن يبعد عنها ، لكن قد تضطر الظروف إليها ، كاضطرارنا لوضع الأموال فى البنوك الربوية كأمانة فيها أو ركوب الحافلات المزدحمة بالنساء العاريات ...

﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ وصلاة بغير خشوع جثة بلا روح لا حياة فيها لذا قال الله تعالى فى سورة الأنفال آية «٦٤» ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذ دعاكم لما يحييكم واعملوا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ فالصلاة الخاشعة تحيي القلب ، وبحياة القلب يحيا البدن ، ويؤدى العبادة على خير ما يرجى منها ، ومن لم تنهه صلاته فلا صلاة له كما جاء فى الحكم ، وقول الله تعالى ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ إنها الصلاة الخاشعة ، التى يشعر الإنسان فيها أنه يرى ربه وإن لم يكن يراه، تلك الصلاة ، مقام الإحسان الذى تكلم عنه الرسول ﷺ .

إن علاج النفس من الصفات المذمومة بقطع الطريق إلى هذه الصفات فإذا اتقطعت الطرق لم يجد الشيطان إليها سبيلا ، ولا تحسبن الشيطان يهجم على النفس إلاّ إذا وجد فيها قبولا ، كالمرض الجسمى لا يفرخ جراثيمه إلاّ إذا وجد فى الجسم تهيئة له ، وقديما قيل : شبيه الشيء منجذب إليه ، وإن الطيور على أشكالها تقع ، فإذا قطعت من القلب أصول الغرائز الدنيوية ، لم يجد فيه الشيطان مقرا وإن كان له حومات واجتيازات وجلسات ولن يكون له استقرار إلاّ إذا رنت الذنوب على القلب كما جاء فى القرآن الكريم ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وفى الحديث الشريف « إذا اذنب ابن آدم ذنبا نكت فى قلبه نكتة سوداء » .

وذكر الله ينفع حين ذاك ، على أن يكون القلب مغمورا بالتقوى طاهرا من الصفات المذمومة ، وإلاّ فسيكون الذكر أشبه شيء بحديث نفس ، وكثيرا ما رأيت رجلا يهتز ذات اليمين والشمال وفى يده مسبحة يحركها حركات سريعة ، وأرى شفتيه تتأرجحان بسرعة (موجات اللاسلكى) وإذا ضاره أحد ، أو سابه ، أو كلمه أى كلمة فيها شبه إيذاء له ، اندفع كالصاروخ يقذفه بشتى أنواع الشتائم والفحش واللعن فيها ما لا أذن سمعت ، كنت فى أحد المساجد بالقرية ليلا وفى ضوء خافت رأيت قرويا يسبح بصوت مرتفع ، ويعطل على المصلين صلاتهم ، فغمزته من ورائه طالبا منه أن يذكر الله فى سره ، فإذا به يقذف قذائف من فمه من الشتم والفحش ما أتعب ملك الشمال (عتيد) والسلام عليه وعلى الأكرم ملك

اليمين فقد وصفهما الله بالكرم فى قوله تعالى فى سورة الانفطار : ﴿ وإنَّ عليكم لحافظين ، وكراما كاتبين ﴾ (١) ...

وقال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ فمثل الشيطان مثل كلب جائع فإن كان بين يديك لحم لم تعتن بحراسته هجم الكلب وأخذ مأربه ، وإن لم يكن بين يديك لحم ، أو كان موجودا ولكنك كنت شديد المراقبة له لم يتمكن الكلب كذلك الشيطان بمجرد الصوت يخسأ ويبعد ، أما إذا غلبت الشهوة ورانت الذنوب ، وكثرت النكت السوداء فى القلب ، وأصبح القلب مرعى لألاف الشياطين لا لشيطان واحد ، فلا تستكثر أن يهجم شيطان تلو شيطان ، وصدق قول الشاعر :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الحامى

لهذا تجد الشيطان متمكنا من أرباب الشهوات (أوالفنون كما يسمونها موضة) ويقول الواحد منهم إذا أردت له التوبة ، لا أقدر ، ويقول كذبا ، هذا قدر علىّ ، ومن أدراك أن الله قدر عليك المعاصى (إن الله لا يأمر بالفحشاء) وتلك حجة مبتورة ، يقول الله تعالى فى كتابه العزيز على لسان المحتجين بالقضاء والقدر يوم القيامة يقولون إن المشيئة الإلهية سبقت بكفرهم ، ويرد الله عليهم كما جاء فى الآيات من سورة النحل « ٣٤ » ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا أباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلاَّ البلاغ المبين ﴾ (٢) .

إن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم ليروا فى نفوسهم ثغرات يدخلون منها فإن وجدوا ثغرة من الغضب أو الشهوة أو الحرص على الدنيا أو البخل والأنانية دخلوا وإن لم يجدوا . ووجدوا قلوب المتقين خالية من هذه المكائد فإن الشيطان

---

(١) وصفهما الله سبحانه وتعالى بالكرم ، لما يبدونه من العطف على ابن آدم ، فلا تكتب الكلمة الخبيثة إلا بعد انتظار التوبة ، فان لم يتب كتبت سيئة ، وبعد وفاة المؤمن يجلسان على قبره يستغفران له حتى يوم القيامة إن كان صالحا ...

(٢) إن التفكير فى القضاء والقدر كالتفكير فى ذات الله سبحانه وتعالى ممنوع ذلك،فنحن مأمورون من الله ، ولسنا مأمورين بتحليل ذات الله سبحانه وتعالى وقضائه وقدره .

يطرقها أيضا مرارا ، لعل وعسى فإذا ذكر المؤمن الله تعالى فر مدحورا ، قال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصـــرون ﴾ وقوله تعالى ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ ومن الأمثلة الظريفة التى جرت على لسان أرباب البصائر ، إن شيطان المؤمن وشيطان الكافر تقابلا ، فإذا شيطان الكافر دهين سمين بطين ، وإذا شيطان المؤمن هزيل مريض أشعث أغبر عار ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك مهزول هابط ، قال أنا مع رجل إذا أكل سمى فأظل جائعا ، وإذا دهن سمى الله فأظل اشعث أغبر ، وإذا شرب سمى الله فأظل عطشان ، فقال لكنى مع رجل لا يذكر ما ذكرته أشاركه أكله وشربه وشبعه ودهنه حتى لباسه وزوجه ، وكان من دعاء السلف الصالح (اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم فأيسه منا كما أيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك .

وفى الأثر عن الرسول ﷺ (من الأحاديث المرسلة) شيطان يأتى النبى ﷺ بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلى ، فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له ، قل (أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، ومن شر ما يلج فى الأرض ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار ، إلاَّ طارقا يطرق بخير) قال فعل ذلك فطفئت شعلته ، خر على وجهه ، وعن الحسن رضى الله عنه (حديث مرسل) نبئت أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال ، إن عفريتا من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى . وحديث آخر (مرسل) قوله ﷺ لقد أتانى الشيطان فنازعنى ثم نازعنى فأخذت سحلقه ، فوالذى بعثنى بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد لسانه على يدى ، ولولا دعوة أخى سليمان عليه السلام لأصبح طريحا فى المسجد [1] وحديث آخر (متفق عليه) ما سلك عمر فجا إلاَّ سلك الشيطان فجا آخر .

إن القلوب إذا كانت مطهرة فلا سبيل إلى الشيطان إليها وداء القلوب شهواتها وما الأمانى والدنيا إلا شهوات ، والغفلة فى ذاتها أكبر مصيدة تصيد الشيطان

---

(١) أتاه الشيطان فى صورة مجسمة فله قدرة على التشكيل .

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وطول الأمل ، والتغنى بأشعار الإباحيين مثل تلك الأغنية التى ترددها احد المغنيات ، التى أخذت بمجامع القلوب ، إنها تنسب إلى أحد الصوفية الكبار .

لا تشغل البال بماضى الزمان ولا بآتى العيش قبل الآوان
واغنم من الحاضر لذاته فليس فى طبع الليالى الأمان
اطفىء لظى القلب بشهد الرضاب فإنما الأيام مثل السحاب
وعيشنا طيف خيال فنل حظك منه قبل فوت الشباب

وهكذا يمضى (هذا الصوفى) عمر بن الخيام فى نداءاته الصوفية ليته قال كما قال أحد الصالحين ...

إنما دنياك ساعة فاجعل الساعة طاعة

إن الشيطان والنفس وأمانى وحب الدنيا جنود مجندة حلفاء ، يحاربون القلوب ولكن قلب المؤمن (القلب المخلص) ينتصر على هذه الجموع الحاشدة الضاربة بكل أنواع الفواتك والآلات الجهنمية ، ومن الحكم القديمة الفلسفية - إن قوما يلعنون الشيطان ولكنهم فى الواقع من أشد الناس حبا له ، إنهم يسيرون على منهجه ، ويقيمون شعائر ، ويوالون من يواليه فما أكذب هؤلاء إن قاموا بلعنه ؟! .

وقد قال الله تعالى ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى ﴾ ، أى أنه جل جلاله ، لم يجعل الرسول واسطة بينه وبين عباده وأنه جل جلاله أولى بعبده مهما يكن عاصيا من غيره ، وقد يدعو العبد فلا يستجاب لـه ، ويتعوذ من الشيطان فلا يعاذ ، لفقد شروط الدعاء والاستعاذة ، كمن يطلب من الله أن يرزقه ولدا وهو لم يتزوج ، أو يقول (يارب ارزقنى ويتكاسل عن الضرب فى الأرض .وقد علم إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، فالدعاء له شروط لاستجابته ، ودائما للنتائج أسباب لابد من الأخذ بها ، والقلوب الميتة ، كالأرض الجرز ، لا تنبت نباتا ولا أكلا ، ومن إرشادات بعض الصالحين حينما سئل ، لماذا ندعو الله ولا يستجاب لنا ؟! " وقد أخذوا بالأسباب " فأجاب ، لأن قلوبكم ميتة ، قيل وما الذى أماتها ، قال ثمان خصال ، قلتم إنكم عرفتم حق الله ، ولم تقوموا

بحقه ، وقرأتم القرآن ولم تعملوا به ، وقلتم نحب رسول الله ولم تقوموا بسنته ، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له ، وقال الله تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ ، فوطأتموه على المعاصى ، وقلتم نخاف النار ولكنكم أرهقتم انفسكم بالذى يذهب بكم إليها ، وقلتم نريد الجنة ولم تعملوا عملا يقربكم منها ، وإذا قمتم من فراشكم ، رميتم عيوبكم وراءكم ظهريا وافترشتم عيوب الناس فاسخطتم ربكم ﴾ .

وبعد فإن النفس (الغريزية) مجمع الشيطان ، سواء أكان واحدا أو جماعة من الشياطين متحالفون على إهلاكك ، وأخذك معهم إلى جهنم (بعد عمر طويل) فى المعاصى والشهوات وبين الكأس والطاس ، والدنيا سيجارة وكأس كما يقرنون فى الأغانى ... أو كما يقول عمر الخيام فى قصيدته سالفة الذكر .

ومن الأحاديث التى تنسب إلى الرسول ﷺ ويضعها الحافظ العراقى المحدث فى طبقة (الضعف) قوله ﷺ « خلق الله الجن ثلاثة أصناف صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض ، وصنف كالريح فى الهواء وصنف ثالث عليهم الثواب والعقاب (١) وخلق الله تعالى ثلاثة اصناف صنف كالبهائم كما قال تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ وصنف جسومهم أجساد بنى آدم وأرواحهم أرواح شياطين ، وصنف فى ظل الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله .

* * *

(١) يتبادر إلى الذهن فى معنى الجن إنهم العفاريت والأشباح ، وليس المعنى هكذا فكل ما هو مستور يسمى «جنا» من قولنا فلان جنَّه الليل أى ستره ، لذلك فالجراثيم «جن» والميكروبات جن ، والهواء الذى يعسعس ليلا « جن » وقد تغلب الإنسان على أضرار هذا كله ، فالإنسان هو الوحيد خليفة الله سبحانه وتعالى فى هذا الكون ،و وسيد هذا الكون لو استعمل عقله ...

الفصـــل التـــاســع

الـــوســـواس

- الوسواس المسلط ، صفاته .
- الوسواس العادى وعلاجه .
- هل تؤاخذ على الوسوسة ؟
- ماذا يقطع الوسواس .
- أصناف الوسوسة .
- الوساوس المضادة .
- ثمرة انتصار العقل ، الأخلاق .
- تزكية النفس ، بتطويعها لفعل الخير ، ومجانبة الشر .
- كيف يمكن السيطرة على العواطف .

الـوسـواس

كثيرا ما نسمع إن فلانا (موسوس) ومن الناس من يعتقدون أن ذلك درجة من درجات القرب من الله ، وربما يكون ذلك إذا كانت (الوسوسة) لم تخرج بعيدا عن مقتضيات الشريعة الإسلامية ولم تضر صاحبها أى تكون من قيبل الإلهام فى الخير ، كإلهام الشعراء الحسن ، أو إلهام المفكرين الفكرة الصحيحة ، أو التفكير فى خلق السموات والأرض المفضى إلى تقوى الله أما إذا كان الوسواس طريقا من طرق الإضرار بالموسوس فهو ما نريد الكلام فيه لعلاجه .

هناك الوسواس المسلط ، وما هو إلاّ اضطراب نفسى عضوى ، وهذا فى حاجة إلى علاج طبى بجانب العلاج الأيحائى والتحليلى ، وفحص القوى العقلية والعصبية والجسمية ، وربما جر هذا الوسواس إلى ما نسميه فى علم النفس (الحصر العصابى) أو القلق النفسى الزائد ، الذى أصبح سمة من سمات العصر الحاضر ويبدو فى سهولة الانزعاج وسرعة الغضب ، والتشكك الزائد عن الحد والتشاؤم المستمر ، وتوقع الشر دائما ، والنظر إلى الحياة بعيون سوداء ، والشعور بعدم الاطمئنان أو الاستقرار ، وأن يقول الانسان كما قال أبو العلاء المعرى :

تعب كلها الحياة فما أعجب   إلاّ لـــــراغب فى ازديـــــاد

وفى الطب النفسى مقاييس يعرفها المشتغلون بالتحليل النفسى ، يفرقون بها بين الوسواس المسلط ، والوسواس العادى ، ولو أعطينا درجة مائة على الوسوسة ، لكان الوسواس المسلط من أول درجة ٦٠٪ إلى النهاية وقبل ذلك يمكن علاجه بالوعظ أو بالإرشاد أو الإيحاء أو بالتحليل النفسى .

وهنا سنسلط الضوء على (الوسواس المسلط) أولا ، وهو يبدو فى صورة إصرار دائم وسيطرة ملحة على الشخص ترغمه على القيام بأعمال نمطية استمرار يقوم بها بدون أن يشعر حتى تصبح لازمة له ، وقهرا عنه ، يصبح سلوكه شاذا ومثارا للعجب أحيانا والسخرية ، ويمكن أن تتخذ من هذه الوساوس صورا مختلفة منها .

(١) حالات التسلط الفكرى كأن تسيطر على المريض فكرة الانتحار أو فكرة قتل غيره أو التشكك فى الدين ، أو التفكير فى الغنى ، أو الفكر بشكل يشغل البال دائما ، أو التفكير السوداوى أو تصور الظلم والاضطهاد وتكرار حدوث ذلك بشكل يلفت الأنظار ، ويجعل الجميع حوله يتساءلون فى دهشة ، ماذا حدث له ؟!

(٢) الوساوس الحركية التى تبدو عند بعض المرضى ممن يأتون بحركات نمطية متكررة بدون سبب ظاهر ، مثل كثرة غسل الأيدى وتكرار ذلك بدرجة شاذه ، وحركات هز الكتف والرقبة أثناء السير أو الجلوس أو الوقوف ومن ذلك لمس أعمدة النور ، أو قذف كل قطعة من الطوب يجدها فى الشارع أو القيام كثيرا مرات متعددة من مجلس بدون داع ، وقد يبرر المريض تصرفاته هذه ، بما يجعلها مقبولة نوعا ما ، ولكنها فى هذه الحالة الملفتة للنظر والتى تجعله فى حالة غير عادية مرض نفسى ، إذ أن هذا النوع من السلوك حتى ولو كان ظاهره الرحمة لكنه سلوك مرضى يعرفه علماء النفس .

(٣) الوساوس الانفعالية التى تبدو فى حالات المخاوف المتسلطة والحالات المتكررة للشعور بالخجل من النفس والشعور بالذنب وكثرة تأنيب الضمير والشعور بالنقص بدون سبب ظاهر ، والغيرة الشديدة بدون مبرر والشكوك الزائده بدون أى مقتضى لذلك .

الصفات التى تتميز بها الوساوس المتسلطة :

يلاحظ أن هذه الأعراض وإن كانت تختلف فى مظاهرها ، وجدانية كانت أو حركية أو سكولية إلاّ انها جميعا تشترك فيما يأتى : -

(١) إنها قهرية ، أو إجبارية يقوم بها الشخص اضطرارا ولا يشعر بذلك .

(٢) إن الشخص يشعر بأنها غير إرادية (لازمة) لابد منها .

(٣) يتكرر حدوثها باستمرار يقوم بها دائما ولو نصحته لاعتذر بأنه يفعلها للخير .

(٤) قد يكون الشخص ذاته ،اعرا بها وراغبا فى التخلص منها ، وفى هذه الحالة لا نقول بأنها جاوزت الـ٦٠٪ منطقة الخطورة فى المرض ، الذى ربما تحول إلى

، إصرار أو حصر أو قلق عصبى ينزعج المصاب ويتسرع فى الغضب ، والتشاؤم ، والشعور بعدم الاطمئنان والاستقرار .

يتميز المصابون بالوسواس المسلط ، بالتصميم والميل إلى التعدى وصلابة الرأى وعنادهم القهرى التسلطى ، ويكثر هذا المرض فى التمسك المترفت بالمبادىء السليمة ، إذ أن المرض هنا مرض الذات العليا التى تصر على فرض سيطرتها دون، الرجوع إلى - أنا الاجتماعية ، التى تراعى عادة أعراف الناس ، وعاداتهم ، لتتخذ لها ولنفسها المكانة الاجتماعية اللازمة لها فإنها كائن حى فى الجماعية الإنسانية (١) .

كما نجد أيضا من ضمن مرض الوسواس بعض المتأنقين بشدة ، والحذرين بقوة من تخدش خواطرهم بأقل كلمة أو بعبارة قد يراها هو لا تليق به ، أو ذكره بلقب غير لقبه ، كأن يكون مثلا (بك) فتقول له (يا أفندى) كما كانت الألقاب سابقا مشكلة بين الناس ، فإذا غيرت إنسانا بغير لقبه شعر بأنه أهين ، ويكبر لديه الوسواس ويفرخ ويتضاعف ، فتسيح أفكاره بعيدا يظن بك الظنون أى أن أصحاب " الوساوس " لا تجد عادة فى حياتهم نوعا من المرونة ، والمرضى بها ربما تعرضوا للأجرام كما فى النزعة المسلطة نحو السرقة أو نحو إشعال الحريق ، وفى هذه الحالة يرى المريض نفسه مضطرا للإجرام ، ويتعلل بالقضاء والقدر كذبا على الله تعالى دون أن يتمكن من صد تيار هذه النزعة أو إطفاء سعيرها ، إذ أنها تكون قد أصبحت غريزة ذات قوة جامحة لا يملك الشخص حيالها قيادا وتلزمه بالوقوع بدون إرادة .

ومثل هذا الوسواس المسلط لابد له من إجراء تحليل نفسى ، وطبى إن اقتضى الأمر ، حتى لا يتفاقم أمره ، فيستعصى علاجه بعد ذلك .

أما الوسواس العادى ، ومؤاخذة الانسان به :

أى هل يؤاخذ الانسان دينيا وقضائيا (٢) على الوسواس العـادى ، وكيف يعـالج ؟ .

(١) يلاحظ أن للعرف الصالح أثرا فى التشريع ، وقد ترك الإمام الشافعى بعض آرائه فى الفقه ، لما حضر فى مصر ، ورأى بعض الأعراف الأخرى التى لم تكن فى العراق فغير بعض آرائه - والعرف الصالح لا يناقض الشريعة مطلقا ..

(٢) المعروف فى القانون بسبق الاصرار ، فلم يكن أكثر من « وسواس مسلط » .

قد وردت فى ذلك أخبار نرى أنه لابد من التعرض لها ، نحو الوسواس ، والمسئولية والعلاج .

قد روى عن النبى ﷺ قال ، (إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها) حديث متفق عليه ، وحديث آخر ، إن الله تعالى يقول للحفظة (اذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها سيئة ، واذا هم بحسنة فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرة) (البخارى ومسلم) وهو دليل عن العفو عن همات القلب ، وفى لفظ آخر ، ومن هم بحسنة فعملها ، كتبت له إلى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت سيئة وكل ذلك يدل على العفو .

وفى نصوص أخرى يدل على المؤاخذة ، وذلك ما جاء فى قوله تعالى ﴿ إن تبدو ما فى انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ ، فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه وقوله تعالى ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وقوله تعالى ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ والحق فى هذا الموضوع لا نفقه علته ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح فنقول : -

إن القلب له درجات قبل العمل ، بالجارحة ، الخاطر وهو حديث النفس ثم الميل ثم الاعتقاد ثم الهم (كل ذلك فى دائرة الوسوسة) .

أما الخاطر ، فلا يؤاخذ به لوقوعه فى دائرة عدم الاختيار ، وأنه لا يدخل فى الاختيار ، أى أن الخاطر يجرى فى النفس بدون قصد ، والخواطر جائلة فيها من هنا وهناك تمر فى الفكر مر السحاب ، تندفع رغما عنه .

ثم الميل والشهوة ، وهما أيضا داخلان تحت عدم الاختيار فقد يميل الانسان ويشتهى ويهيج رغما عنه بحكم الفطرة (والغريزة الموضوعة فى الإنسان) وهما المرادان من قول الرسول ﷺ ، عفى عن أمتى ما تحدثت به نفوسها فحديث النفس عبارة عن الخواطر التى تجول فى النفس ، وتهجس فيها ولا يتبعها عزم على الفعل. ويروى مثلا على ذلك أن أحد ا صحابة ، (عثمان بن مظعون قال للرسول ﷺ يا رسول الله نفسى تحدثنى أن أطلق خولة ، قال ، مهلا فإن من سنتى النكاح ، قال

نفسي تحدثني أن أجب نفسي ، قال مهلا خصاء أمتي دؤوب الصوم قال نفسي تحدثني أن اترهب قال ، رهبانية أمتي الجهاد والحج ، قال نفسي تحدثني أن أترك أكل اللحم ، قال مهلا فإني أحبه ولو أصبته لأكلته ولو سألت الله لأطعمنيه) ، هذه الخواطر ليس معها عزم هي داخلة في باب (حديث النفس) اللا إرادي .

أما الثالث : وهو الاعتقاد ، وحكم القلب فيه (الفعل) بين أن يكون مختارا في الفعل وبين أن يكون مضطرا فيه بحسب الأحوال ، فالاختياري يؤاخذ به الانسان والاضطراري لا يؤاخذ .

أما الرابع : وهو الهم بالفعل فإنه مؤاخذ به ، فإن تركه خوفا من الله كتبت له حسنة ، لأن همه سيئة وامتناعه حسنة لمجاهدته نفسه ، والهم غريزة (على وفق الطبع) والمجاهدة قوة ضد الغريزة ، فهو يجاهد الطبع ويتعب ضد الغريزة (النفس الأمارة بالسوء) ففي ذلك عمل لله تعالى ، ومدفع للشيطان الساكن في النفس الأمارة بالسوء ، ورجح جهاده ضدهما فله بذلك مكافأة من الله سبحانه وتعالي قد تكون عشرة وقد تكون أكثر من هذا .

ولكن إن كان ترك الفعل (ليس خوفا من الله) إنما خوفا من الناس ، أو عاقه عائق بعد عزمه عليه ، لم يكن فيه لله قصد كتبت عليه سيئة ، لأن اختيار ترك عمل السيئة لم يكن لله فيه نصيب ، فمثل هذا تكتب عليه السيئة (وفي الصحيح) عن رسول الله ﷺ قالت الملائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو سبحانه وتعالى أبصر به منهم) قال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له إنما حسنة تركها من جرائي [1] ، هذا .

أما إذا عزم على فاحشة ، فتعذرت عليه بأي سبب دنيوي أو اجتماعي لم يكن لله فيه نصيب ، فكيف يكون في الترك حسنة ؟ هذا لا يكون ويدخل في هذا قول الشاعر الغزلي :

ولقـد همـمـت بلثمـهـا   لـو لـم أكـن عفـا حييـا

فإن همه باللثم وإقدامه على عمله وتركه هذا العمل ، لم يكن لله فيه شيء ، فقد تركه خوفا لمروءته فقط ، أنظر قول هذا من امرأة راقبت الله في غياب زوجها

(١) هكذا يجب أن يكون عمل المؤمن دائما لله حتى لو طلب أجرا في الدنيا ، فليكن الدافع الأكبر الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى في سورة البقرة في شأن الحج ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ ، فسروها بالتجارة أيام الحج .

وقالت شعرا سمعه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأمر أن يرجع كل زوج إلى امرأته من الجهاد كل أربعة شهور ، قالت هذه المرأة :

ألا طال هذا الليل وازور جانبه   وليس إلى جنبى خليلى ألا عبه

فوالله لولا الله تخشى عواقبه   لحرك من هذا السرير جوانبه

سمع عمر رضى الله عنها هذين البيتين ليلا وهو يتعسس فى شوارع المدينة ، وسأل عن المرأة فقيل له أن زوجها يجاهد فى سبيل الله ، فأمر بالاً يغيب المجاهد عن زوجته أكثر من أربعة أشهر بعد أن أشارت إليه إحدى النساء بذلك .

ومن الأحاديث : (الحسنة فى هذا الموضوع رواية جابر) إنما يحشر الناس على نياتهم ، فمن عزم على أن يأتى امرأة أو عزم على قتل مؤمن فمات تلك الليلة مصرا يحشر على هذه النية "حتى ولولم يقم بها " والدليل القاطع على ذلك قول الرسول ﷺ إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار فقيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال لأنه أراد قتل صاحبه ، وهذا نص صريح على أنه يكون بمجرد الإرادة ، من أهل النار مع أنه مات مظلوما ، إذ أن اختياره لقتل المؤمن تعدى إلى العمل على قتله ، ولم يقتل لسبب خارج عن إرادته مع عزمه وإصراره (وقانا الله شر ذلك) أما إذا اعتوره الندم وحضر قلبه مع الله سبحانه وتعالى ولم يقدم على العمل (أو لم يباشر أسبابه فالمدار هنا إن شاء الله عن التجاوز عن هذا الهم (النفسى) ونقيض هذا العزم بالندم حسنة ، أى أن فوت المراد بأى عائق بعيدا عن جانب الله ليس حسنة ، من ذلك : -

نعلم أن (الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة كلها داخلة فى دائرة الوسوسة) لا يدخل تحت اختيار العبد فالمؤاخذه بها تكليف ما لا يطيق ، ولذلك لماّ نزل قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ وقالوا كلفنا ما لا نطيق إن أحدنا يحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت فى قلبه ثم يحاسب بعد ذلك ؟ فقال ﷺ لعلكم تقولون كما يقول اليهود سمعنا وعصينا ؟ قولوا سمعنا وأطعنا ، قالوا سمعنا وأطعنا ، فأنزل الله الفرج بعد الشدة بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ فظهر به أن كل مالا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب لا يؤاخذ به فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس ، وكل من يظن أن كل ما يجرى فى (القلب من الوسوسة

حديث نفس) ولم يفرق بين الأقسام الثلاثة التى وضحناها فقد أخطأ ، وكيف لا يؤاخذ الانسان بأعمال القلب ومنها الحسد والحقد والكبر والرياء والنفاق والعجب وجملة الخبائث من أعمال القلب قال تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ مما يقع تحت الاختيار ، فلو وقع البصر على امرأة عارية من الخارجات على أوامر الله فى الملبس (كنساء هذه الأيام) بغير اختيار " أى نظرة مفاجأة " لم يؤاخذ بها فإن اتبعها بنظرة ثانية وثالثة وكلمة استحسان (بصبصة) من التى يحبها هؤلاء الخارجات ، كان مؤاخذا لأن ما فعله كل هذا واقع تحت الاختيار ، والقلب أولى به أن يؤاخذ قبل أن يؤاخذ عضو آخر ، لأنه الأصل فى كل شىء وكان الرسول ﷺ يشير إلى القلب ويقول (التقوى ها هنا) (رواه مسلم) وأشار الله إلى القلب بقوله ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام الإثم حزاز القلوب ، وقال البر ما اطمأن إليه القلب وإن أفتوك وإن أفتوك - (الطبرانى) والقلب السليم لا يبعد الإنسان عن ربه أما القلوب التى امتلأت بالغش والخداع والحيل وحب الدنيا وحب البدع ، وما إلى ذلك فليست هى المرادة فى هذا الحديث الشريف ، والله أعلم .

حتى يقال ممن ظن أنه تطهر فعليه أن يصلى ثم تذكر بعد ذلك أنه لم يتطهر فإنه يثاب على مظنه الأول ، ويقال أيضا من وطأ امرأة أجنبية على ظن إنها امرأته لا شىء عليه ومن وطأ امرأته على ظن أنها امرأة اجنبية عوقب وأذنب ، كل ذلك من أعمال القلب .

ماذا يقطع الوساوس ؟

أقصد (الوسوسة فى دائرة ال٤٠٪) التى لا تحتاج إلى جلسات طبية ، قيل فيها .

(١) انها تنقطع بذكر الله سبحانه وتعالى لأن النبى ﷺ قال (إذا ذكر الله خنس الشيطان) والخنس هو السكوت فكأنه يسكت .

(٢) وقالت بعض الأبحاث لا ينعدم أصلا ولكنه يجرى فى القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا كان كإنشغاله مستوعبا بالذكر كان محجوبا عن التأثر بالوسوسة

بفكرة معينة من واحد بجانبه يكلمه فهو يسمع كلامه ولكن الفكرة التى تشغله لا تجعله يعى ما يقوله .

(٣) وقالت فرقة لا تسقط الوسوسة ، ولا أثرها أيضا ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف .

(٤) وقالت فرقة : ينعدم عند الذكر فى لحظة ، وينعدم الذكر فى لحظة ويتعاقبان فى أزمنة متفاوتة يظن لتقاربها أنها متساوية .

(٥) وقالت فرقة : الوسوسة والذكر يتساوقان ، فى الدوام على القلب تساوقا لا ينقطع .

والوسواس أصناف :

(١) أن يكون من جهة التلبيس بالحق ، فإن الشيطان قد يلبس الحق بالباطل ، كأن يقول لك خذ حظك من الدنيا قبل فوات الأوان كيف تترك نعيم الدنيا ، إن ربك غفور رحيم فيستيقظ (العقل) ويعلى نوره ويقول ، إن عظيم حق الله فى طاعته أولى ، وإن الله سبحانه وتعالى ذكر آية الرحمة لمن يستحقها ، وذكر آية العذاب لمن يستحقها فقال ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ ويحث العقل على السير فى طريق الله ويذكره أن الصبر على الشهوات أقل من الصبر على نار الأخرة ، ويذكره بقول الله تعالى ﴿ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾ يتسابق هذان الجيشان ، جيش الحق وجيش الباطل ، فإن كان جيش الحق أقوى من جيش الباطل ، خنس الشيطان وهرب مدحورا ، أما إذا اتسعت لديه معاذير الشهوة العاجلة وباض الشيطان فى أذنيه بالمغفرة الإلهية ومناه الشيطان غرورا ، حتى يقع فيما حرمه الله ظانا أنه يطمع فى رحمة الله وهو كاذب ، فلابد للرحمة من أسباب :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجرى على اليبس

وقد يقوم صراع فى النفس ، عندما يعجب الإنسان بعمله فيقول له ، شيطانه " أى عبد مثلك فى علمك وتقواك ، وفقهك وفهمك ومعرفتك بالله وعبادتك له

شيء عظيم فيشعر الإنسان بهذه النفخة الشيطانية (١) ، بأنه مغفور له ولكن العقل (لمة الملك) ينهض فيذكر النفس أن ما فيه من نعم المعرفة والتقوى والفقه كله من الله سبحانه وتعالى ولو شاء لسلبه هذه النعم العظيمة فتقوم المصارعة بين العقل والنفس أو بين (الذات العليا والذات الغريزية) وفي هذه المعارك التي تحدث كل وقت بين العقل والنفس ينتصر العارفون بالله حق المعرفة بنور الإيمان والعمل .

(٢) أن يكون وسواسه من جهة الشهوة وهيجانها وهذا ينقسم إلى ما يعلم القلب في العبد يقينا أنه معصية ، أو ما يظنه بغالب ظنه ، ولكن الشهوة غالبة عليه ولكن اليقين في نفسه كان أشد من الشهوة فدفعه إلى طرد الفكرة الشيطانية فتغلب العقل على النفس (الغريزية) .

وإن كان ظن الإثم مظنونا (أي اقل قوة في التأثيم) فيها يبقى الوسواس في النفس الغريزية مدة تطول فيها مجاهدة العقل .

(٣) أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر ، وتذكر الأحوال الغالبة ، والتفكير في غير الصلاة مثلا فإذا أقبل على الذكر أسرعت الوسوسة ، فيتعاقب الاثنان حتى يكون الفهم مشتملا على الاثنين على فهم القراءة في الصلاة وعلى فهم مقتضى الخاطر وبعيد أن يندفع هذا الخاطر (الخنس) بالكلية وليس محالا فقد قال عليه الصلاة والسلام (من صلى ركعتين ، لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه) وهذا للمستغرق في الصلاة خاشعا ، وهو مقام المحبين الخائفين (فإننا نرى الحبيب إذا استغرق في هوى محبوبته ، تسيء كل شيء إلاّ هي وكذلك الخائف إذا استغرق في خوفه نسي (كل شيء) إلاّ من يخاف منه ، ومن أولى بمقام الحب والخوف من الله تعالى ؟!

وبالجملة فإن الخلاص من الشيطان في لحظة ممكن ، ولكن الخلاص منه نهائيا غير ممكن ، وهذا محال (فلابد من وجوده في داره التي يستقر فيها) (النفس الغريزية) ولكن المراد منا كفاحه باستمرار فلابد من وجود الوسواس ، روى عن رسول الله ﷺ أنه نظر إلى علم في ثوبه في الصلاة فلما سلم رمى بثوبه وقال شغلني عن الصلاة اذهبوا به إلى أبي جهم وأتوني بانجابيته (من حديث ابن عباس)

---

(١) كنفحات الصوفية ، وقولهم ، أنا ، وأنا وتزكيتهم أنفسهم .

وكان فى يده خاتم من ذهب (قبل تحريم الذهب) فنظر إليه وهو على المنبر ثم رمى به وقال نظرة إليه ونظرة إليكم فلا تنقطع الوسوسة فى عروض الدنيا إلاّ بانقطاع عوارضها فما دام الإنسان يملك شيئا أو خالطه من الحياة شىء لا تدعه النفس (ولا شيطانها) من التفكر فيه ، فمن أنشب مخالبه فى الدنيا وطمع أن يتخلص من الوساوس كان كمن انغمس فى العسل وظن أن الذباب لا يحوم حوله ، فالحياة وما فيها باب تدخل منه الوساوس الدائمة قال حكيم من الحكماء : « يأتى الشيطان ابن آدم من قبل المعاصى ، فأن أبى أمره بالتشدد حتى يحرم ما ليس حراما » .

فإن أبى شك فى وضوئه وصلاته ، فإن أبى حبب عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفا فتميل إليه قلوبهم فيعجب بنفسه ويهلكه .

أن الإنسان أمام عدو لاينام ولا يغفل محتال خبيث ، لا يترك الإنسان إلاّ بعد التأكد من موته ، ويلزم المؤ من أن يستعين بالله ضده دائما ، وأن يعوذ به منه وأن يكون من الذين قال فيهم الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون ﴾ .

الوساوس المضادة :

إن الوساوس ، قد تتضاد فى الإنسان فقد تحل وسوسة فى شىء معين مع وجود وسوسة أخرى تضادها فإن نزل بالنفس شيطانها للوسوسة ، نزل بها أيضا ملاكها لدفع الوسوسة بشىء آخر للتبصرة ، وقد يكون المتنازعان شيطانان ، أو ملكان ، أو ملك وشيطان ، وإليه الإشارة يقوله تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ وكان من دأب الرسول ﷺ أن يدعو ويقول إذا حلف ، (لا ومقلب القلوب) وكان كثيرا ما يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك القويم » (الترمذى على شرط مسلم) قالوا أو تخاف يا رسول الله ؟ قال وما يؤمننى والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء .

ومن الحكم القديمة ، القلب كالعصفور يتقلب كل ساعة أو كريشة فى أرض فضاء تقلبها الرياح ظهرا لبطن ، والقلوب فى الثبات على الخير أو الشر أو التردد بينهما ثلاثة .

(١) قلب عمر بالتقوى ، وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق ، تنقدح فيه خواطر الخير ، فينصرف العقل إلى التفكير فيها ليعرف كيف يأتيها فينكشف له

وجه البصيرة فيحكم بأنه لابد من فعله فيستحثه ويدعوه إلى العمل به ، ينظر الملك إلى هذا القلب فيجده طاهرا نقيا لا خبث فيه ، ولم يرى فيه ذنب نكتة سوداء فهو أبيض كاللبن الحليب ، وهو المعنى من قول الله تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنـون ، إلاّ من أتى الله بقلب سليم ﴾ فيراه صالحا لأن يستقر فيه ففى مثل هذا القلب يكون مغمورا بأنوار المعرفة ولا يتناهى إمداده فالخير يأخذ بتلابيب الخير ، وشبيه الشيء منجذب إليه كما جاء فى الحكم وإليه الأشارة بقوله تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ وفى مثل هذا القلب يشرق نور المصباح عن مشكاة الربوبية حتى لا يخفى عليه دبيب الشرك الخفى الذى هو أخفى من دبيب النملة السوداء ، فلا يخفى على هذا القلب خافية ولا يروج عليه شيء من مكايد الشيطان بل يقف الشيطان ويقذف من بعيد لأنه قلب مطمئن بالإيمان ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ فنادى النفس إلى الإطمئنان ﴿ يأيتها النفس المطمئنة ... ﴾ .

القلب الثانى : — القلب المخذول المشحون بالهوى الدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث المفتوح فيه أبواب الشياطين المسدود عنه أبواب الملائكة ، الشر كامـن فيه ، ألف الهوى واتخذه إلهه ، بعيدا عن (العقل) غالبا ما يكون قد أنس بالهوى وخدمه واستمر على استنباط الحيل له (التبرير اللاشعورى) فينشرح الصدر بالهوى ويقبل الشيطان للإيحاء ، بما شاء فلا مدافع له ولا مناقص ... وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب ، ومن هذا القلب تنبع المعاصى العلنية التى لا يستحيى أصحابها من فعلها ، والتى يبررونها بأنها مدنية وفى مثل ذلك يقول الله تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ وفى مثل هؤلاء يقول الله تعالى ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ورب قلب تراه صالحا مطمئنا ولكنه يهتاج إذا رأى شيئا يحوجه إلى الهوج ومثل هذا يقول الله تعالى فيه ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وأن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ﴾ .

القلب الثالث : قلب تتدافع فيه خواطر الخير وخواطر الشر ، يتحرك خاطر الهوى فيدعوه إلى الشر فتنبعث النفس بفطرتها إلى نصرته فتقوى الشهوة وتحسن التمتع

والتنعم فينبعث جانب الخير ، ويدفع وجه الشهوة فتنبعث الشهوة إلى نصرة خاطر الشر ، فتقوى الشهوة وتحسن التمتع باللذة العاجلة ، وهكذا يصبح الإنسان بين دوافع عالية ودوافع هابطة والقلب بن الجنديين ، جند الخير (جند الله) وجند الشر (حزب الشيطان) إلى أن يغلب على القلب ما هو فى العادة منجذب إليه فإن كان الغالب فى القلب مراعاة ربه ومراقبته تعالى والأمان إلي وعده ، والخوف من لقائه ، فإن الخير مصيره إن شاء الله ، وأن كان الغالب على القلب الميل إلى الشيطان وحزبه والأخذ بفتاويه ، وبلذته العاجلة ، أخذ القلب بالشر هذا هو معنى (إن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن) أى بين تجاذب الجنديين ، جند الخير وجند الشر ، وتظهر الطاعات التى تدل على أن حزب الله انتصر ، أما العكس فتظهر المعانى التى تدل على أن حزب الشيطان انتصر ، فمن خلق للجنة ، يسرت له أسبابها ، ومن خلق إلى النار يسرت له أسبابها ، وسلط عليه أقران السوء ، وألقى فى قلبه حكم الشيطان وفاتخذها من دون حكم الرحمن ، وبأنواع الحكم الشيطانية يعتبر الإنسان ويلج باب جهنم ، وهو لا يدرى فمن حكم الشيطان قوله للمصر على المعصية إن الله غفور رحيم ، وأن رحمته تعالى سبقت غضبه وأنه سينفذ وعده ولا ينفذ وعيده ، كما يقول بعض سادة الصوفية ، وإن الناس جميعا لا يخافون الله ومع ذلك هم يرتعون فى النعيم ، ولماذا تخالفهم أنت ؟ وفى هذا الموضوع ، يقال إن عمر بن الخطاب دخل على النبى يوما فوجد أثر الحصير ، الذى ينام عليه ، فى جسده فبكى عمر رضى الله عنه ، فسأله الرسول عن سبب بكائه ، فأجاب تذكرت كسرى وقيصر ، وما هم فيه من النعيم ، فقال الرسول ﷺ ، أما يكفى أن تكون لهم الدنيا وتكون لنا الأخرة .

وترى الشيطان يمنى (العاصى) أمانى كثيرة ، حتى إنك إذا خاطبته فى أمر ترك المعصية ، لأراك أنه أشد منك خوفا من الله ، قال لى بعض ذوى المجانة والفسق ، أنه يصلى ليلا كثيرا ، بعد أن ينتهى من مجانته وفسقه مع النساء . ويشعر شعورا غريبا بأنه قريب من الله وأنه أثناء صلاة التهجد ، قريب من ربه يكاد يحبه ، قلت له إن هذا كله إغراء من الشيطان على الذنب فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأنت ترى أن الفحشاء والمنكر طريقك إلى الله .

ومن تلك الخدع الشيطانية أن بعض الناس عبدوا الله رقصا على نغمات (الناى) والصاجات والبازات وأغانى مجنون ليلى ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فظنوا أنهم أولياء وصرحوا هم بأنفسهم بأنهم وكلاء الله فى الأرض وأنهم أقطاب وأبدال ، وأن الكون فى يديهم يفعلون ما يشاءون ، وأنهم يعطبون ويقتلون من يعترضهم ، وذلك كله من زينة للشيطان وغروره لهم وكراماته لأوليائه وما أكثرها ، قرأت فى العدد ٢٨٦٥ ، ١٩٨٣/٥/٩ من مجلة روزاليوسف المصرية ، من مذكرات الإسكندر المقدونى ومن رسائله يقول : - فى عام ٥٢٤ ق . م بعد أن استولى الفرس على مصر ، تنبأ كهنة آمون بسوء مصير الفرس وقائدهم قمبيز فغضب قمبيز غضبا شديدا وصمم على تأديبهم وأرسل جيشا مكونا من ٥٠ ألف جندى متجها إلى (معبد الإله آمون بسيوة) فابتلعتهم الصحراء جميعا ودفنتهم فى أعماقها فأصيب قمبيز بالجنون حتى مات ... هذه كرامة شيطانية كثيرة الشبه بالكرامات التى ينسبونها للسيد البدوى (فى قصة بنت برى) وغير السيد البدوى ممن اتخذوا الدين حرفة وأنهم (أهل الله) وأنهم المتصرفون فى الكون ، كما يقول الحكيم الترمذى فى كتابه (الولاية) وكما جاء فى كتاب النفحات الأقدسية لعبد الصمد ، وكل مؤلفاتهم تقول ذلك ، تقول ما قاله الإسكندر المقدونى من قمبيز القائد الفارسى ، اعترض على (آمون) فبلغ جيشه فى جوف الصحراء ويــواصل (الاسكندر الأكبر مذكراته ويقول) فى سنة ١٣١ ق . م . خرج فى موكب مهيب صوب سيوة ، وهبت الصحراء مرة آخرى ، ولكنه ركع فى معبد (آمون) فضاعت العاصفة وأنه ضل الطريق مرة آخرى ، فاتجه الى آمون داعيا فظهر فى الجو فجأة طائران يسيران فى اتجاه معين فعرف الإسكندر أن ذلك من (آمون) وأنه يريه الطريق ...

انظر كيف يضحك الشيطان على قلوب بنى آدم فيجعل من بعضهم آلهة يستغاث بها وإنهم الفرقة الناجية ، ويجعل من الباقى متبوعين ، محاسيب هؤلاء الآلهة ، راجع كتب التصوف ولن ترى أننى لم أخرج عما فيها ، هذه الحيل وأضرابها الشيطانية ، أضلت كثيرا من الناس وهى من ذكاء عدو الانسانية الشيطان ، ومن أراد الله هدايته رزقه العلم الصحيح من (لا علم المبتدع ولا عالم

الدنيا، وعلماء الفنون الجميلة [1] .. إلخ) قال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للأسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ أى أنه لا يقبل الدليل الصحيح ، ويضيق صدره بها ويقبل الدليل المبنى على الهوى ، إذ تحبه النفس لأنها منبع الهوى . قال تعالى ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم ، يصلونها يوم الدين ﴾ وأشار سبحانه وتعالى إلى أصحاب النار فقال ، الأيات الأخيرة من سورة المؤمنون ١٠٣ ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، ألم تكن أياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ، قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ، إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفرلنا وارحمنا وانت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى ، وكنتم منهم تضحكون إنى جزيتهم اليوم بما صبروا إنهم هم الفائزون ﴾ ويدور الحوار فى النار أيضا ، كما جاء فى بقية الأيات من سورة المؤمنون ، ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ، قال إن لبثتم إلاَّ قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ، أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ ...

ثمرة انتصار العقل ، الأخلاق :

الخلق الحسن صفة سيد المرسلين (كان خلقه القرآن) وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة جهاد النفس ، ورياضتها ، والأخلاق المذمومة هى السموم القاتلة والمهلكات الدامغة ، والمخازى الفاضحة ، والرذائل الوضيعة والخبائث المبعدة عن رب العالمين التى تأخذ صاحبها إلى سلك الشياطين إلى نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، كما أن الأخلاق الحميدة هى الأبواب المفتوحة إلى نعيم الجنان بجوار الرحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إن الطب إذا اهتم بعارض جسمى وعالجه ليعيش الإنسان حياة قليلة فى الدنيا ، فأولى بأطباء القلوب

---

(١) أفتى بعض العلماء المشهورين ، بالتليفزيون ، إن رقص الباليه لا حرمة فيه ، يجب التأكد من صلاح العالم الذى نأخذ منه العلم ، حتى ولو كان من الذين يشهرهم التليفزيون الذى يشهر الراقصات والممثلات ؟!

علاجها ففى مرضها فوت حياة الآخرة (الحياة الباقية) وهذا الطب يجب على كل مؤمن أن يتعلمه ، وللأسف إن الناس جميعا كما قال الله تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ ولا يخلو أى انسان من هذا المـرض ، من أسقام وعلل خلقية لو أهملت تراكمت فتزداد العلل وتتظاهر فيحتاج العبد إلى علاجها قبل أن تؤدى به إلى الكفر قال تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ وقيل " ان المعاصى بريد الكفر " .

وانتصار الإنسان فى تزكية النفس يظهر فى حسن الخلق ، وقد امتن الله تعالى على نبيه بحسن الخلق فقال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وسئل رسول الله ﷺ عن حسن الخلق ... فتلا قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ثم قال أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وقال أيضا ﴿ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ﴾ (البهيقى) وقال ، أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق (مرسل) وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله ما الدين ؟ قال حسن الخلق فأتاه من قبل يمينه ، فقال يا رسول الله ما الدين قال حسن الخلق ، ثم اتاه من شماله فقال يا رسول الله ما الدين فقال حسن الخلق ، ثم أتاه من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين فالتفت إليه وقال أما تفقه ؟! هو ألاّ تغضب (مرسل) وقيل يا رسول الله ما الشؤم قال سوء الخلق (حديث مشكوك فيه) كما يقول الحافظ العراقى ، وقال يا رسول الله أوصنى فقال اتق الله حيث كنت قال زدنى ، قال اتبع السيئة الحسنة تمحها قال زدنى ، قال خالق الناس بخلق حسن (مرسل) وقال ، ما حسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار ، وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول ، أول ما يوضع فى الميزان يوم القيامة السخاء وحسن الخلق ، ولما خلق الله الإيمان قال اللهم قونى ، فقواه بحسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الكفر قال اللهم قونى ، فقواه بالبخل وسوء الخلق (حديث غريب) وقيل للرسول ﷺ إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها بلسانها قال لا خير فيها هى من أهل النار ، وقيل يا رسول الله أى المؤمنين أفضل إيمانا قال أحسنهم خلقا (الترمذى) ، وقال ، إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق (رجاله ثقات) وقال ، سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل ، وكان الرسول ﷺ يكثر فى دعائه من قوله : (اللهم حسنت خلقى فحسن

خُلُقِي (ابن حبان) ويكثر من أن يقول ، (اللهم إنى أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق) وقال ، (كرم المؤمن دينه وحسبه حسن الخلق ومرؤته عقله) ، (وعن أسامه بن شريك شاهدت الأعاريب يسألون النبى ﷺ يقولون ما خير أعطى العبد قال خلق حسن) وكان الرسول ﷺ يفتتح الصلاة ويقول ، (اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلاَّ أنت ، واصرف عنى سىء الأخلاق لا يصرف عنى سيئها إلاَّ أنت) (مسلم) ومن الحكم القديمة إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة ، كما تذيب الشمس الجليد ، ومن سعادة المرء حسن خلقه وعن أنس رضى الله عنه قال ، قالت أم حبيبة رضى الله عنها لرسول الله ﷺ أرأيت الزوجة يكون لها زوجان فى الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما تكون ، قال لأحسنهما أخلاقا كان عندها فى الدنيا ، يا أم حبيبة ، ذهب حسن الخلق بخيرى الدنيا والآخرة (البزار والطبرانى ، ضعيف) وقال عبد الرحمن بن سمرة كنا عند رسول الله ﷺ (فقال إنى رأيت البارحة عجبا ، رأيت رجلا جاثيا على ركبته وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى) .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه استأذن على رسول الله ﷺ وعنده نساء فلما رأينه تبادرن الحجاب ، وكن عنده يكلمنه ويستكثرنه الحديث ، فدخل عمر رضى الله عنه والرسول ﷺ يضحك ، فقال عمر مم تضحك بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ فقال عجبت لهؤلاء اللاتى كن عندى لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب فقال عمر، أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسول الله ، ثم أقبل عليهن ، فقال : يا عدوات أنفسهن أتهبننى ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟ قلن نعم أنت أغلظ وأفظ ، وقال الرسول : إيهاً يا ابن الخطاب ، والذى نفسى بيده ، ما لقيك الشيطان قط ، سالكا فجا إلاَّ سلك فجا آخر (متفق عليه) وقال عليه السلام : إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم ومن الحكم القديمة ، إن ابن لقمان سأل أباه ، أى الخصال من الانسان خير ، قال : الدين ، قال فإذا كانتا اثنين ، قال الدين والمال ، قال وثلاثة قال الدين والمال والحياة قال فاذا كانت أربعة قال الدين والمال والحياة ، وحسن الخلق قال فاذا كانت خمسة قال الدين والمال والحياة وحسن الخلق والسخاء ، إذا اجتمعت هذه الخمس ، فهو نقى تقى ولله ولى ، ومن حكم الحسن بن على من ساء خلقه عذب نفسه ومن الحكم لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلىّ من أن

يصحبنى عابد سىء الخلق ، ومن الحكم خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال وفسر ابن عباس الكرم بالتقوى فى قوله تعالى ﴿ أن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وأقرب الناس إلى الله رسوله ﷺ وأقرب الخلق إلى الله المقتفون آثاره ﴾

تزكية النفس بتطبيعها على الخير :

يقال إن من غلب عليه (سوء الخلق) استثقل مجاهدة النفس ، وتزكيتها ، إذا كان سوء الخلق طبعا ملازما له حتى قال بعضهم شعرا .

لكل داء دواء يستطب به ⠀⠀⠀ إلا الحماقة أعيت من يداويها

ونقول إن الطباع عامة كما فيها فضائل فيها نقائص ، والتربية هى التى تجعل الإنسان يأخذ بفضائل طبعه ، وهذا هو مهمة المربين والعلماء فإن الطباع لا تتبدل ولا تتغير إنما روافدها السلوكية وهى كثيرة يمكن أن نأخذ منها ما ينفع ونترك ما يضر ، والسلوك الطبعى يقبل التعديل (فى دائرة الطبع ذاته) أما ما يقال إنه لا يمكن التغيير السلوكى كماجاء فى قول الشاعر سالف الذكر ، فالظاهر إن ذلك يأس من العلاج ، والحمق هو الجهل ، ولعل المقصود هم الذين قال فيهم الله تعالى ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ وحيث أن نتيجة من وعظته مظنونة الخير ، فلا يجب الحكم على الأشخاص الذين لا يسمعون ولا يقبلون الوعظ سريعا ، بل إننا نحاول ، ونقول لو كانت (السلوكيات) لا تقبل التغيير لبطلت المواعظ والتأديب ولما قال الرسول ﷺ (حسنوا أخلاقكم) رجاله ثقات وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى ، وإن هذا التغيير كائن فى تألف الحيوانات المفترسة واستئناسها ، والصياد يستأنس البازى من الاستيحاش والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير من السلوك ، والقول الفصل فى هذا الموضوع :

إن الكائنات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمى فيه ، وإنها يمكن للآدمى التصرف فى الاستفادة منه كضوء الشمس ، ونور القمر ، وهبوب الرياح والأمطار وما إلى ذلك ، وتغيير ذلك تغييرا كليا مما يدخل فى دائرة المستحيل ، إنما سلوك الاستفادة من الضوء أو من الريح أو من الأمطار هذا ممكن فى حق المرء ، وهنا يوجد اختيار العبد ، فكذلك مثلا إذا أردنا قهر الغضب والشهوة ، هذا لا يمكن ، ولكن لو أردنا

سلاسة الغضب والشهوة بالتطبع وقودهما بالرياضة والمجاهدة ، قدرنا على ذلك وصار ذلك سبب النجاة فى الدنيا والآخرة إن رياضة الأخلاق السيئة فى المرء وقودها إلى الأخلاق الحسنة قد تتطلب مرانا وصبرا ، وإلحاحا ، وهذا لا غبار عليه، فكثيرا من الذين يتعاطون المكيفات كانت فى أول مرة تؤخذ فى قالب كراهية شديدة ، فإذا بها بتكرار عملية التعاطى أصبحت لذيذة يندفع إليها المدمن (لا تلقائيا) ويقسم أنه يريد أن يتوب منها ولكنه عجز عن التوبة والناس فى ذلك أربعة مراتب .

(١) الرجل الغفل ، الذى لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح على الفطرة، خاليا من كل الاعتقادات ولم تستتم شهوات نفسه باتباع اللذات ، هذا المرء السليم الصدر السريع الاستجابة لا يحتاج إلى تعب إذا أردت إرشاده أو إقناعه بفكرة معينة فهو سريع الانقياد ، سهل المراس ، حسن الثقة بمن يربيه ويعلمه .

(٢) أن يكون قد عرف القبيح ولم يتعود العمل الصالح ، بل زين له سوء عمله الشر فتعاطاه انقيادا لشهوته وإرضاء لغريزته ، وإعراضا عن صواب الرأى لاستيلاء الشهوة عليه فهذا أمره أصعب من الأول إذ تضاعفت المشكلة والواجب قلع ما وقر فى نفسه أولا من عقيدة فاسدة نشأت من كثرة الاعتياد على الفساد ثم بعد ذلك ، يجب أن نغرس فى نفسه الصواب ، وهذا ما يعد فى علم النفس (إعادة التربية) بإعادة تقويم الخير فى نفسه ، وإزالة ما تراكم فيها من شرور ...

أى أنه قابل للتربية الصحيحة .

(٣) أن يعتقد فى السلوك السىء إنه صحيح ، وأن ما عليه مشروع ويدافع عن سلوكه دفاعا شديدا ، ويكثر الجدل والمراء ، ورمى الناس غيره بعدم المعرفة ، وإنه وحده عالم الأولين والآخرين وهذا يصعب اقتياده إلاّ على الندور .

وبعد فإن الصراع ، جهاد أكبر ، وفى الحكم النبوية (رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) إن صح هذا الحديث النبوى ، فالقصد والله أعلم ، أن الإنسان دائما فى جهاد ، ففى الحرب جهاد ، وفى السلم جهاد ، وإن كان جهاد السلم أصعب من جهاد الحرب كما يقول الشاعر :

إن الفـــراغ والشباب والجدة   مفسدة للمـــرء أى مفســدة

والإنسان دائما بين أعداء لا يتركونه ، النفس والشيطان والدنيا والهوى والأمانى، وخير الناس من (يرابط) مجاهدا هؤلاء ، وكان من دعاء الرسول ﷺ (اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك) .

وعلى الإنسان أن يختار التسوية النفسية ، فى كل أعماله وأن يجعل العقل الرائد لما تطلبه النفس ، وأن يختار من العواطف ما يسعده وألاّ يستسلم للوسواس وألاّ يسمح له بالتسلط عليه ، فإن الاستسلام له استسلام لمجارى بعيدة جدا عن الجادة من الأمور والسير فى طرق يريدها الشيطان وينزعها فى النفس للغواية ويترك ما ذكرناه من حسن الخلق .

كثيرا ما أسمع من بعض الناس إذا حاولت أوجه له نصيحة يقول ، أشعر بتوتر فى الأعصاب وجيشان فى الدماغ كأنما هناك من يريد أن يوسوس لى بشىء ما ، وأحيانا أسمع أوامر صادرة إلى من الدماغ ، كأن إنسانا يلقى إلىّ بأمر ، ومثل هذا إن تكرر كثيرا فأن صاحبه متعب الأعصاب ، وإن لم يتكرر فأجدر بنا أن نفكر فى الحقيقة التى ينطوى عليها التعبير بالحالة العصبية التى يلجأ إليها كثير من المرهقين نفسيا .

حقيقة ، إن تلك الأعصاب الدقيقة التى تتخلل جسم الإنسان كأنها خيوط ربما كانت مريضة ، فإن كانت مريضة فهى مسئولة عن بعض الانحرافات السلوكية ..

ولكن القول عن الشخص إنه عصبى ، ليس ذلك من الوجهة الطبية مقبول ، فكل من يشكو تعبا يلقى التعب على الاعصاب ، بينما تكون الأعصاب مظلومة ، وفى هذه الحالة لا يسرع الشخص بجرع الدواء بل لابد من أن يدرس طرق تفكيره وعاداته ونظرته للحوادث اليومية ، وقراءاته ، والعواطف التى يحسها ، ودرجة اطمئنانه فى الدين فمن عادة المؤمن أن يقابل أحداث الحياة باعتياد على ما فيها من خير أو شر ، مطمئنا إلى وعد الله تعالى متذكرا قول الله تعالى ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلاّ المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون ، والذين هم لفروجهم لحافظون ﴾ ...إلى آخر الآيات الكريمة من

سورة المعارج وقد جربنا أن الاطمئنان النفسى دائما يكون وليد التعلق بالله سبحانه وتعالى وحبه وهذا الرسول الكريم يقول فى حديث له : (وجعلت قرة عينى فى الصلاة) ويقول إذا دهمه بعض الأمر (أرحنا بها يا بلال) وقوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وكل موجة تحدث انقباضا فى النفس يجب أن يسرع الإنسان بطرد هذه الموجة ، فإنها تولد فى النفس القنوط ، والقنوط واليأس بريد الكفر (إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون ، أى ليس من خلق المؤمن ألاّ يثق فى ربه ، وهو القائل ﴿ إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ﴾ فالمؤمن مع ربه دائما ، والعقل قبس من النور الإلهى يستضىء به ..

يجب تبديل العادات الفكرية والعاطفية السيئة ، إلى عادات صالحة طيبة متفائلة. وسبب المتاعب الفكرية والانحراف السلوكى لا ينشأ من حادثة بذاتها أو عن انقلاب فجائى ، وإنما يرجع إلى إحساس الفرد العميق بعدم الأمان ، والاطمئنان أو بوسوسة الشك الآخذ بتلابيب الذهن كل ذلك جنود الشيطان وله أثار وخيمة .

ومن هذا القبيل ما يروى عن إحدى الفتيات كانت تعمل فى مقاطعة أمريكية قبل أن تستقر فيها الأحوال ، وكانت ترى الهنود الحمر يمرون فى الشوارع ورعاة البقر يأتون كل ليلة للهو فى الحانة ، ساعدت هذه الظروف على إثارة أعصاب الفتاة ، وذات ليلة عند رجوعها إلى منزلها متأخرة رأت عند حجرة نومها هنديا يدخل الحجرة ، ولم يكن هذا الهندى إلا خيالا ، نشأ من عدم اطمئنانها إلى نفسها أو صدى من صور فى ذهنها مما شاهدته فى المقاطعة ، إنه نوع من خداع الحس .

وقد تستمر هذه المخارف وتتضاعف فى صور قطط سوداء أو خيال رجل يتعرض حياتها ما دام (الاستقرار العصبى غير موجود) .

ومن هنا لابد من استخدام الخيال فى بعث الثقة بالنفس ، وأن نكون فى الوقت نفسه على استعداد لمواجهة أخطار الحياة حيثما كانت ويجب أن يتخلص الإنسان من المخارف وأن يستقر هادىء النفس ...

كيف يمكن السيطرة على العواطف :

اسأل نفسك عن الظروف التى تسبب لك الإزعاج ، وهل ينتابك هذا الشعور عندما تحوطك الأخطار ، أم عندما تكون متنبها عقليا أو جثمانيا ؟ .

فإذا كان ثمة ظروف فعالجها بالحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) ، وإن صعب عليك العلاج فلابد من مختص ، والتهاون فى ذلك مضرة ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وقد كان سيد الأولياء عمر بن الخطاب يدع نفسه بين يدى حذيفة بن اليمان ويستحلفه بالله أن يخبره ، قائلا هل ترى فىّ خصال النفاق ؟! ومن الخطأ الانفراد بتحليل العواطف السالبة وإذا كانت ظروف عدم الاطمئنان نشأت من التعب الجثمانى أو التعب العقلى ، فما عليك إلا بالراحة الجسمية والعقلية ، بالاستحمام والرياضة الخفيفة والاسترخاء ، والنوم الهانىء .

عد بذاكرتك إلى أيام الطفولة ، وحاول أن تتبين إذا كان بعض ما ينتابك من حالات الانزعاج قد بدأ فى هذه الأيام الأولى من حياتك ؟ فإن كثيرا من الحالات العاطفية (السلبية أو الإيجابية للتربية الأولى أثرها فى إحداثها وبقائها فى النفس) كما يقول الشاعر :

وينشأ ناشىء الفتيان منا   على ما كان عوده أبـوه

فإذا كان كذلك ، فقل لنفسك واثقا من عقلك أنك لم تعد طفلا ، وفى وسعك بعيدا عن (استعمار) هذه الأفكار التى عششت فى خيالك منذ الصغر واعقد العزم على أن تقود نفسك بزمام عقلك .

وعندما تقرر نظاما للعمل تقدم ونفذ ممارسته ، تقدم مهما بدا من مخاوف وحدث نفسك .

" سأتصرف وفق ما يهدينى إليه عقلى " وكرر هذه العبارة ، على أن توحى لنفسك بالخضوع للعقل ، لا للانقياد للعاطفة الهوجاء ولاحظ ما يأتى :

الهدوء - السكون - ضبط النفس - التصرف الحكيم - هذه أنواع من الأحياء لها كل الأثر فى نجاحك فاسمع وصية من ناصح .

ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتى   والنصح أغلى ما يباع ويـــوهب

وفى القصص القديمة ، إن (أثينا) انتصرت على (إسبارطة) فاستعد ملك إسبارطة لمحاربة الأثينيين ، فجعل أحد الفلاسفة فى بلاطه يقول كل يوم صباحا

" مولاى لا تنس الأثينيين " وينشأ الطفل اليهودى وتربيه أمه بجانب لبن ثديها على كراهية العرب واعتبارهم غاصبين لمملكة صهيون ، ويحفظوهن أناشيد منها .

(إن نسيتك يا صهيون أنسى يمينى) وأخيرا دعنى أهمس فى اذنيك قليلا ، هناك ثلاثة أمور يجب أن تتذكرها .

أولها : إن العادات الصالحة تنمو فى دائرة الطبع الشخصى فيك .

وثانيها : إنه يمكن تغيير الطبيعة السلوكية إذا أردنا ذلك قال تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ فاذا أردت أراد الله كقوله تعالى ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ ﴿ وإن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهـــم ﴾ .

ثالثا : إن استطعت أن تقتحم الحياة فى ناحية من نواحيها فثق أنك يمكن أن تقتحم كل النواحى وتذكر أن الأسد ملك الغابة فى أى غابة ذهبت به إليها ، فثق فى نفسك دائما كن أسدا فى كل مكان ..

وعلى ذلك فإنه يجدر بك ألا تتصرف كطفل مدلل يعتقد أن الحياة خلقت له كلعبة بين يديه ، ولا تحاول أن تلقى تبعة فشلك على من حولك أو على الظروف أو على مخاوفك أو على القضاء والقدر ، تريد أن تنفى مسئوليتك عن فشلك . وتعود أن تواجه الصعاب كأنها جزء من عملك اليومى وواجهها بقوة ، وحينئذ ستبعث فيك قوة تحقق لك السعادة ، على أن تنصر الله فى عملك فينصرك ، ويمد إليك يد العون دائما .

وخذ بقول الشاعر :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدا   إن الحيـــاة عقيدة وجهـــاد

* * *

الفصـــل العـاشـــر

فلسفة الزمن
بين الوعى الكونى والمدركات الميتافزيقية

- ماذا يقول المفكرون التجريديون
- هل للزمن بداية
- الزمن توأم الوجود
- هل حياتنا متعلقة بأجسامنا المادية فحسب ؟
- ماذا يقول العلم عن الزمن
- الزمن مسألة نسبية .

« فلسفة الزمن »

" بين الوعى الكونى والمدركات الميتافيزيقية "

﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ سورة يونس آية رقم ٤ .

ندرك الزمن بالبديهة ولا نستطيع أن نعرفه ...

ونقول إن الماضى ولىّ وراح ، فإلى أين ؟! .

وإن المستقبل آت لاريب فيه ، فمن أين ؟! .

وإن الحاضر هو اللحظة التى نعيش فيها ، فماذا تعنى هذه اللحظة ؟! .

وبعد ، فهل لهذا الزمن بداية ونهاية ؟! .

أم أنه لا نهائى أى أبدى خالد ؟! .

تلك هى المناقضات التى دارت فى أخلدة الفلاسفة قديما وحديثا ؟! .

حقا إن للزمن وجودا ، فهو نتيجة حتمية للانطباعات التى نتقبلها من الحوادث حولنا ، فبدون الأحداث يختفى الزمن .

ماذا يقول المفكرون التجريديون ؟!

يقولون إنه غير موجود بمعنى الكلمة ، ولكنه يتجلى لنا نتيجة لتتابع الأحداث والتغيرات التى تتم حولنا وفى داخل أجسامنا وعقولنا ، وأنه نتيجة لانعكاسه فى الوعى والشعور ، وإنه الوسيلة الوحيدة التى تكشف لنا عن عالم خارجى عنا ، فمثلا أثناء النوم يرى بعض الناس أحداثا قد تتحقق بعد ساعات أو أيام أو شهور، فأين كنا أثناء النوم ؟! أين كنا نتحول أثناء خمود الوعى ؟! .

إننا أثناء النوم ، يتحرك العقل الباطن والشعور الباطن فى أبعاد أخرى مكانية وزمنية غير التى نعرفها فى يقظتنا ...

فإن حارت الفلسفة ، واختلف أربابها فى تعليل الرؤى الليلية فقد سطع فى القرآن الكريم الضوء البرهانى على رؤية أحداث زمنية مستقبلة يراها ملك من

ملوك مصر أيام الهكسوس تراها واضحة فى سورة يوسف ، اقرأ معى الآيات الشريفة التى ألقت أضواء كاشفة عن الزمن المستقبل الذى لم يأت بعد ، فتعلل أن الزمن المستقبلى يمكن عرفانه كاللحظة الحاضرة أو الماضية قال تعالى ﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ، وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ، يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع للناس لعلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلاَّ قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلاَّ قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ .

وهكذا فسر يوسف الصديق الزمن المستقبل وأحداثه ، وعالج ما فيه من الأحداث الضارة .

والرؤى كثيرا ما تكون كاشفات للزمن المستقبل ، وهى هبة من الله سبحانه وتعالي لكثير من الناس فى هذه الحياة ، لا يشترط فى هذه الهبات أن تكون وقفا على عباده الصالحين ، فقد تكون فى المفسدين ، فهى نوع من إكرام بنى آدم كما ورد فى القرآن الكريم ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ ...

وقد يعلل بعض الفقهاء الرؤى الصالحة أو الصادقة بأنها كرامة للولى واستدراج للشقى ، وقيل إن فى الإنسان نبوءة ، وبدراسة كثير من عباقرة التاريخ وجدنا هذه النبوءة وصدقها ، لا سيما أرباب المزاج العاطفى والعصبى .

إننا فى أثناء النوم المؤقت ، والنوم الدائم – الموت ، أحياء بمدارك أخرى ميتافيزيقية نتجول بها فى عوالم غير محددة بحدودنا ومقاييسنا ..

ويتكرر السؤال ، إذا كان للزمن وجود حقيقى ، فما هو اتجاه ينطلق منه واليه ، نحن نقول ، إن هناك زمنا ماضيا ، وحاضرا ومستقبلا ..

ويعلل اللغويون إنه كثيرا ما يقع الفعل الماضى فى زمن المستقبل مثل قوله تعالى ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ للتأكيد والتحقق ، والمضارع فى الماضى للاستمرار ، تلك قاعدة نحوية أخذت بها " أجرومية " اللغات جميعا ، ونقول .

هل للزمن بداية :

إذا قلنا له بداية فله نهاية ، وإذ قال الفلاسفة إنه أبدى خالد لا أول له ولا آخر ، فقد نعتوه بصفة الألوهية .

وقد وضح القرآن الكريم وجود الزمن عند خلق السموات والأرض ، من ذلك قوله تعالى ﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ سورة الأنبياء ، وقوله ﴿ قل إئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ﴾ سورة فصلت آية رقم ٤ .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى مسيرة الزمن بالأيام ، ومقدارها يختلف كما وضحه بعد .

وما قيل فلسفيا فى طبيعة الزمن ، لا يرضى العقلاء ، ولا يرضى المؤمنين يقولون « إنه سر غامض" كما قال السوفسطائيون من قبل إن الحياة خيال لا حقيقة لها ، وإنها خداع حسى يختلف من شخص إلى آخر ،

ويقولون أيضا إننا فى حاجة إلى عقل كبير ، أو رأى قاطع يضع حدا معقولا لتعريف الزمن ، إنهم أرباب الحدس ، فى أمر قد فرغ الله منه إن كل شىء يتغير ، والتغير وراءه حركة ، والحركة دليل الزمن فهى فى مدة معينة ، قد تكون طويلة ، وقد تكون قصيرة ، يدركها الوعى فيضعها بالطول أو القصر .

والكون وما فيه من كائنات مرئية أو غير مرئية متغير يجرى إلى مستقر له لا نعلمه (كل فى فلك يسبحون) وما دام له أول فلابد له من آخر ولابد من تجدده

مرة أخرى ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ سورة يس ، وقوله تعالى مرددا قول الكفار ﴿ أءِ ذاَ كنا عظاما نخرة ، قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ، فإنما هى زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة ﴾ والساهرة الأرض الجديدة التى يخلقها الله فى الدار الآخرة) وقوله ﴿ ألو لم يروا أن اللّه الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا ﴾ الإسراء .

ولكن الذين يأخذون بالظن ، أضراب المفكرين والفلاسفة والشعراء كل يغنى على ليلاه ، ولا أتعرض لآرائهم التى تثقل الدماغ وتوجعه ، وإن كان بعضهم يدحض رأى الفلسفة التجريدية فى عدم وجود الزمن ، وأنه موجود نتيجة لأفكار فى دائرة الوعى والشعور .

إن الزمن وحدة كاملة عند الله سبحانه وتعالى ، فليس لديه سبحانه وتعالى حاضر وماضى ومستقبل ، فقد جف الكتاب بما هو كائن ، وأبدع سبحانه ﴿ الأمر الكونى بما شاء ، وسير الكون ، وخلقنا نحن كما شاء فى تسييره ، ولكن « الأمر التكليفى » أو القضاء التكليفى ، فنحن فيه أخيار ، لا جبر فيه ، فيه اختيار وفيه فتن ، انظر إلى قوله تعالى فى وصف حرية الاختيار ﴿ أما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ سورة فصلت .

إن الشعور بالقضاء الكونى يسرى فى نفوسنا ، قد نراه فى النوم ، وقد نراه فى اليقظة ونحن نسميه أحلام اليقظة وقد جمع كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ، وكتاب (السيكلوجيا والروح لأحمد فهى أبو الخير ، وكتاب العقاد عن الله سبحانه وتعالى ، بل وكثير من كتب علم النفس ، التى تحدثت عن الشعور واللاشعور والعقل الباطن ، والميتافيزيقا إن هناك قوى مدركة ، وهناك قوى فوق المدركة ، وهناك حواس زائدة فى الانسان ، وإنه لكائن غريب ، وإن خلق الله ونعمه لا تقف عند حد ، مصداقا لقوله تعالى ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ ...

وقد ينتاب الإنسان شعور دفين بأن شيئا ما سيحدث ، فيحدث بالفعل ..

والعلم يجهد جهدا محمودا فى تفسير هذه الغيبيات على ضوء التجارب العلمية، فالغيبيات خارجة عن نطاق العلم ،

وقد دارت محاورة بين إبراهيم عليه السلام والله سبحانه وتعالى كما جاء فى سورة البقرة ﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ .

وقد همست فى نفس نبى من بنى إسرائيل ، عند مروره على أرض خربة فيها عظام بالية فحدثته نفسه كيف يحيى هذه الله بعد موتها ؟! ويقول القرآن الكريم ، ﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يومٍ قال بل لبثت مائه عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾ سورة البقرة ٢٥٨ .

فإن شك العلم فى أمر غيبى ، فليس هذا الشك نكرانا عند المؤمنين إنما هو نوع من الاستطلاع والتشوق الى معرفة الحقيقة واليقين .

الزمن توأم الوجود :

لا يمكن الفصل بين هذا أو ذاك ، فإن كانت الفلسفة التجريدية لا زالت فى شك من ذلك فقد لاحت لبعض الفلاسفة آراء ، وهم لم ينهلوا من «كتاب ربنا» هذا أفلاطون يقول إن الزمن ، والسموات ظهرا فى نفس اللحظة ، فإذا زال الكون زال الزمن .

والحقيقة أن الزمن منسوج فى الكون بطريقة غامضة ليصبح بعدا من أبعاده .

من ذلك لاجتاح على العلم إذا وقف أمام الزمن وبالأخرى الغيبيات موقف الشك الذى يتطلع فيه بتجربة علمية يطمئن بها الفؤاد ، وأن يقول كما قال ابراهيم عليه السلام (ولكن ليطمئن قلبى) ...

ولكنى أعرج على موضوع آخر وكما قلت هذا الموضوع قد وقف منه العلم موقف المستطلع التواق إلى إدراكه موضوع :

هل حياتنا متعلقة بأجسامنا المادية فحسب ؟!

إن خالق هذا الكون أثبت فى كتبه السحابة جمعاء مسألة البعث والحياة الآخرة حياة أبديه خالدة جزاء وفاقا لحياته فى هذه الدنيا ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ ﴿ إن الإبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ﴾ والأديان جمعاء ، التى حرفت بعوامل الزمن كلها تعترف باليوم الآخر ، وكلها تأثرت بمسألة البعث والحياة الآخرة ، تلك الحياة الأبدية الخالدة ، المتجددة المتطورة بما يليق بها .

يقول بعض الفلاسفة ، إن مجرد التفكير فى هذه الحياة الخالدة قد تصيبنا بشىء من الحيرة وحجتهم فى ذلك - إن الكون يسرى من أوله إلى آخره فى عملية - تطور دافعة لا تتوقف ، والتطور صفة أساسية ، ومعنى الخلود فى الآخرة سواء فى نعيمهم أو فى الجحيم ، إن الأمور ستتوقف عند هذا أو ذاك، فيرتع أهل النعيم فى نعيمهم ويشقى أهل الجحيم بجحيمهم ، أى أن التطور سيأتى إلى حالة من الركود أو التوقف وهذه نتيجة يصعب فهمها ، هذا رأى يبدو للنفس فيه نوع من الاقتناع .

ذلك أننا قسنا العالم الآخر وبعالمنا التطور بين عسر ويسر ، ومرض وصحة وبهذا التطور المناقض نشعر بلذة الحياة ، وقديما قيل وبضدها تتميز الأشياء فنحن نعيش العالم الأخر بمقايسنا الدنيوية ، تلك المقاييس التى تحملها قوانين خاصة ، وليست عامة .

أو كما يقول بعض الفلاسفة ، قسنا عالما آخر بعقولنا وحواسنا التى نشأت من البداية فى عالم تحكمه أبعاد صغيرة .

والعالم الآخر تحكمه أبعاد ، تليق بأبديته ، أبعاد لا نعلمها ، ويكفى أن يقول الرسول ﷺ فى وصف الجنة ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

إن الحياة الآخرة ، ليست كما نتصور بل هى بعيدة كل البعد عن تصوراتنا ذلك أن التطور سيلعب فيها دورا هاما ، وإذا عبّرْنا عنها بنعيم الجنة ، فهو نعيم يتطور، حتى لا يحدث السأم والملل .

هناك أبعاد آخرى لا نعلمها ، فهى لحظة الموت يقول الله تعالى ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ ، فما بالنا فى الحياة الأخرة ؟! .

وهناك عوالم أخرى ، فى الجنة ينتقل فيها الإنسان بعد عبوره منطقة الموت ، أى هناك درجات ينتقل فيها من مكان إلى آخر ومقامات ، بين المقام والمقام كما بين السماء والأرض وما دامت الحياة الآخرة مبنية على نعيم ، أو جحيم ، فلابد للأول من تطور حتى يجتنب المتنعم السأم والملل .

وقد نسب بعض الفلاسفة أمثال « جاثلاند » كما جاء فى مؤلف للدكتور عبد المحسن صالح إن الحياة الآخرة ، تتجسد فيها الأرواح ، ونعيش فى عالمها ، ونحن نقول ، أن الأجسام التى خلقت أول مرة يعيدها الله سبحانه وتعالى مع أرواحها وتلك عقيدة البعث والنشور التى هى أصل من أصول الإسلام ، ولا مانع عقلا ولا علما من إعادة باقى الكون ، ما دام الخالق جل شأنه هو الذى فطر السموات والأرض ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى هذه العظام ، وهى رميـــم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ .

ويعارض « جاثلاند » لبعض الأجسام مجادلة عنيفة ، ويطلب دليلا على صحة ذلك ؟ ونحن نقول له ، أنت متمسك بالروح ، فهل لديك دليل عليها ، دليل على إثبات وجودها ؟! وكيف هى ، وما قيل إنه فى بعض المعامل ، أمكن اكتشاف روح أحد الموتى باهتزازاتها الأثيرية كما جاء فى كتاب " السيكلوچيا والروح " فإن الباحثين لا زالوا يتخبطون فيما حسبوه أن روح « چال وبر » تلك التى رسموها بالأشعة السينية حقيقة وهم يعرفون أن الكون ملىء بالهزات الأثيرية وما رأوه بالأشعة قد تكون هذه أثيرية (كهرو مغناطيسية) وما يزعمون من تحضير الأرواح فى غرفات خاصة ، ما هى إلاّ عملية تمويهية يقوم بها العفاريت ، تلك الأرواح الشريرة (شياطين الجن والإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) .

ماذا يقول العلم عن الزمن :

إن الزمن يتأثر بالحركة ويعتمد عليها اعتمادا كليا ، والزمن فى حد ذاته نسبى وليس بشىء مطلق .

والذى يدفعنا إلى الشعور بالزمن ومروره هو حركة الأرض حول نفسها ثم حركتها حول الشمس ، ولولا هذا لما شعرنا بمرور الزمن .. ولعشنا فى ليل سرمدى أو نهار

سرمدى ، وقد امتن الله على عباده إذ يقول فى سورة القصص آية ٧٠ وما بعدها ﴿ وهو الله لا إله إلاَّ هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

لقد اخترع الانسان آلات لقياس الزمن ، ولو عشنا فى كوكب آخر غير كوكب الأرض لاختلفت صورة القياس ، وتبين لنا أن يوما هناك غير يومنا فى الأرض ، ففى عطارد مثلا يصبح اليوم عامين من أعوام إذ أن ليله عام ونهاره عام ، ولو انتقلنا إلى العيش فى زحل لأصبحنا شيوخا فى أقل من ثلاثة أعوام زحلية فعامه يساوى ٢٩٫٥ عاما من أعوامنا على الأرض ، ويومه أقل من نصف يوم على كوكبنا .

وأمر نسبية الأعوام راجع الى بعد الكوكب عن الشمس - فكلما نبعدت عنها كان مدارها الذى يدور فيه حولها أكبر ، وكانت فيها أطول بالنسبة للسنة على كوكب الأرض وعلى سبيل المثال نأتى بالجدول الآتى (١)

الكوكب	متوسط بعده عن الشمس بالأميال	مدة مداره حول الشمس أى عامه	الفترة التى يدور فيها حول نفسه أى يومه
عطارد	٣٦ مليون ميلا	٨٨ يوما	١٨٠ يوما
الزهرة	٦٧ مليون ميلا ومائتا ألف	٢٢٥ يوما	عدة أسابيع
الأرض	٩٣ مليون ميلا وثلاثة آلاف	٣٦٥ يوما	٢٣ ساعة ٥٦ دقيقة
المريخ	١٤١ مليون ميلا وسبعمائة ألف	٦٨٧ يوما	٢٤ ساعة ٣٧ ذقيقة

وهكذا ، راجع كتاب (أصل الكون) للدكتور عبد المحسن صالح ص ٦٦ .

ومن هذا الكشف يتبين لنا أن سريان الزمن يتوقف على الحركة والدوران المصاحب للأجرام السماوية ...

(١) الناشر المكتب الثقافى بالأزهر ، (راجع كتابنا هكذا عرفت ربى) .

ونظرا لشسع المسافات التى تقدر ببلاين من الأميال بيننا وبين الكواكب الأخرى فإننا إذا رصدنا هذه الكواكب يخدعنا الزمن ، ولا يمكن أن تعتمد على مقاييسنا نهائيا ، كمقياس لما تراه العين فى الأكوان المترامية حولنا ...

لأن العين تراها حيث كانت ، لا حيث هى ، أى رصد أى كوكب لا يعطينا ضوؤه مكانه الحالى نظرا لبعده الشاسع عنا ، ولا تنقل الضوء فقد تبلغ سرعته سنوات قليلة أو كثيرة حسب بعده الشاسع ...

فلو رصدنا كوكب مثل كوكب «الشعرى اليمانية» وهى نجم تبعد عنا حوالى خمسين مليون ميلا من الأميال ، فإننا نرى هذا الكوكب منذ كان من تسع سنوات ، فإن الضوء الرهيب ينطلق بسرعة رهيبة ليقطع المسافة بيننا وبينه فى أقل من تسع سنوات ، فكأننا ننظر إليه منذ سنوات تسع .

ولنفرض أن نجما انفجر الآن فى السماء وأنه يبعد عنا بمقدار ألف سنة ضوئية والسنة الضوئية تقدر (٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٨٨٠ ر٥) من الأميال ، فنحن لا نرى هذا الانفجار إلاّ بعد ألف سنة .

ولهذا فإن العلماء عندما يرصدون كوكبا من الكواكب المتعمقة فى الكون ، والتى بيننا وبينها بلايين السنين الضوئية ، فهم فى الواقع ينظرون الى الماضى لا إلى الحاضر ...

ولهذا فإن الزمن مسألة نسبية :

إن كل شىء يتحرك ويحمل معه زمنه ، والذى يتحرك أسرع يبطؤ زمنه أكثر ، إن انطلاق الصاروخ الذى يسير أسرع من الصوت ليست شيئا مذكورا بالنسبة لسرعة الضوء ، فالنسبة بينهما كالنسبة بين سرعة قطار وسرعة نملة ، ولكل منهما زمنه .

فالزمن مرتبط بكل شىء يتحرك ، فالصاروخ أسرع من الطائرة ، والطائرة أسرع من القطار ، والقطار أسرع من الجمل ، ولكل من هؤلاء زمنه ، والأرض ، والغلاف الجوى ، والقمر والشمس والنجوم والمجرات والسدم كل يتحرك بنسبة زمنية لغيره ﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ سورة الأنبياء آية ٣٢ ﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور

النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾ سورة الزمر آية ٤ ﴿ فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ﴾ سورة التكوير آية ١٤ وما بعدها .

ويوضح القرآن الكريم النسبة الزمنية ومقدارها باختلاف مدارات زمنها ففى سورة المعارج يقول الله تعالى ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ولعل القصد ﴾ ، تأويلا ، أن هذه السنين هى المعروفة لنا من سنين الدورة الأرضية حول الشمس ..

وفى سورة السجدة ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ « آية ٣ » .

واليوم الأول : هو يوم القيامة كما تدل عليه سياق الآيات قبله ، وفيه يقول الرسول ﷺ إنه يخفف على المؤمن حتى يصبح وقته كصلاة مكتوبة ، أو زمن قصير كصلاة العصر ، أو ..أو .. والله أعلم ...

أليست النسبة فى الزمن ظاهرة بالنسبة لوقته ، أو بنسبة لمن يتحملون مدته ؟!

إننا نشأنا على كوكبنا نقيس كل الأمور على قدر ما تتقبله حواسنا القاصرة .

ولهذا فإنه لا يقينا إلاّ الزمن الكونى المنسوج من الكون الذى نعيش فيه ، ولكن العلم لا يقتصر على ذلك ، فإنه يدرس الكون كله .

فالكون كله قوانين سارية المفعول على كل من فيه ، من أدق الذرات إلى أجل السموات وإن تعاقب الليل والنهار على أرضنا يعتمد أساسا على حركة الأرض حول نفسها ، إنها تدور بسرعة ألف ميل فى الساعة تقريبا عند خط الاستواء ، فمن منا يحس بذلك ، وتعاقب السنين يعتمد على دوران الأرض حول الشمس بسرعة ٦٦ ألف ميل فى الساعة ، ونحس بذلك ، ونحس بجسم ثابت نعيش عليـــه ، ونحسب كما حسب الأقدمون أن الشمس والقمر والنجوم هى التى تتحرك وتنتقل من شرق إلى غرب .

فلو فرضنا أن أحد رواد الفضاء انطلق بسفينة تائها فى أعماق الكون البعيد فانعزل عن كل شىء حوله من عوالم ، عندئذ لا يحس بسريان الزمن ، كما أنه لا يحس بأن سفينة تسرى وتنطلق فى الكون ، فلا شىء حوله يعطيه إحساسا بمرور أجسام أو زمن .

فالإحساس بمرور الزمن لأبد له من أحداث تميزه ، أحداث متتالية وعندئذ نستطيع أن نقول إن هذا الحدث قد حدث فى الماضى أو أنه يحدث الآن ، أو ربما يحدث فى المستقبل ، ومجرد تصور هذه الأزمنة ، هو الذى يوحى إلينا بمرور الزمن ، والزمن يعتمد على حركة الكون الذاتية ، وكل ما فى الكون يتحرك ، فالحركة دليل الوجود ...

وبعد فإن العلم يسير سيرا حثيثا ، وقد تأتى عقول أكفأ من عقولنا ، ونظريات أعم من نظرياتنا ، لتكشف أسرار هذا الكون مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم إلا إنه بكل شىء محيط ﴾ سورة فصلت آية ٥٣ وما بعدها [١] .

* * *

(١) راجع للمؤلف كتاب هكذا عرفت ربى نشر المكتب الثقافى .

الفهــرست